موسوعة الاغتيالات
ومحاولات الاغتيال في العالم

الجزء الثاني

د. سليم الياس

موسوعة
الاغتيالات ومحاولات الاغتيال
في العالم

سليم الياس

موسوعة
الاغتيالات ومحاولات الاغتيال
في العالم

الجزء الثاني

مركز الشرق الأوسط الثقافي

الطبعة الأولى

1427 هـ 2006 م

مركز الشرق الأوسط الثقافي
للطباعة والنشر والترجمة والتوزيع

Middle East Culatural Center
For Printing, Publishing, Translation & Distribution

الإدارة العامة:
بيروت - الحدث، هاتف: ٤٦١٨٨٨ - ٥ - ٩٦١
فاكس: ٤٦١٧٧٧-٥-٩٦١- خليوي: ٦٤٠٤٩٠-٣-٩٦١
Web site: www.lccpublishers.tk

General Management:
Beirut - Hadath, Tel: 961 -5 -461888
Fax: 961 - 5 - 461777, Mobile: 961 - 3 - 640490
E-mail: lcc_pub@Yahoo.com

مقدمة

إذا عجز اللسان عن الكلام نطق سلاح الغدر. الاغتيال موجود في كل زمان ومكان، وكثيراً ما يرتبط بالتطرف والتعصب، وسببه مرض نفسي أو خلل عقلي أو انحراف فكري، وهو دليل عجز في إبداء الرأي والحوار وتقبل الآخر، فإذا عجز اللسان عن الكلام وانصرف العقل عن الرشد، وضاق الصدر بالصبر نطق سلاح الغدر، وأسوأ أنواع الاغتيال هو الذي يريد قتل حرية التفكير، ونزاهة الكلمة وشجاعة الرأي، وثقافة الشعب.

انتهى القرن العشرين تاركاً في الذاكرة الإنسانية والتاريخية العديد من المآسي، وقد انتهى القرن من حيث بدأ وربما أسوأ، بحلم يتراجع ويتباعد، حلم الرخاء والأمن والسلام بين الشعوب والأمم، وقد أدى تصاعد الخوف والشك إلى الانطواء والعزلة، أو الأنانية والفرقة، على الرغم من التعاون الدولي وتدعيم العلاقات، وتقوية الاتصالات وتبادل الخبرات والمعلومات، وتلاحم الثقافات والحضارات، ومن المفارقات الغريبة للقرن العشرين أن الإنسان حقق إنجازات عظيمة في مجالات العلم والصناعة والتكنولوجيا ومشى على القمر وتنقل بين القارات، ومع ذلك لا تزال توجد إبادات جماعية في أكثر الدول تقدماً أو أكثرها

فقراً، ولو قرأنا بيان الاغتيالات والحروب لوجدنا بين يدينا دليلاً مأساوياً، والجميع يتساءل وما زال يتساءل: متى يسود العالم سلام حقيقي دائم يحكمه العقل؟ فهل أصيب العقل البشري بآفة تحفزه على الإرهاب والتعذيب والقتل والقسوة، وفي الوقت نفسه يدعو إلى حماية حقوق الإنسان والطفل والمرأة والحيوانات وسلامة البيئة.

كان القرن العشرون حافلاً بالمنازعات والاضطرابات، والصراعات والاغتيالات والحروب أكثر من أي وقت مضى، لذلك تكونت وظهرت جماعات وجمعيات وفرق ومنظمات في كل أنحاء العالم ذات أفكار وآراء وتصورات ومعتقدات تميل إلى التخريب والعنف، أو تجنح إلى التدمير والتفجير والقتل، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً أو أنهم أبطال مغاوير يتعجلون الدخول إلى الجنة كشهداء، وهناك أنواع متعددة للإرهاب إرهاب الأفراد، إرهاب الأسرة، إرهاب المجتمع، إرهاب الدولة وإرهاب القوى العالمية، وكل من هؤلاء يريد السيطرة متمثلاً بمقولة فرعون «أنا ربكم الأعلى»، كان الإرهاب سمة أواخر القرن العشرين وبداية القرن الواحد والعشرين وواقعاً مألوفاً، مخيفاً متعدد الدوافع والمصادر والأساليب والأشكال، ليزيد شعوب العالم غماً وهماً، وتشويشاً للفكر، وتشتيتاً للطموحات والطاقات، وضياعاً للثروات والجهود والإبداعات وازدهار الأمم، فالمجازر في فلسطين ولبنان والعراق من قبل الإحتلال، والوحشية في الهرسك وكوسوفو، ومذابح رواندا وهي أسوأ مذابح في تاريخ أفريقيا، وليبيريا والكنغو وجنوب أفريقيا، وجرائم الإبادة في مناطق الشرق الأقصى وجنوب شرق

آسيا، وتدمير وقتل في الشيشان وفيتنام والجزائر والهند الصينية وغيرها الكثير.

الخوف والشك، الانطوائية، الأنانية المريبة، والسلام المخذول، تلك هي الدوافع الحقيقية وراء مظاهر الجاسوسية والإرهاب، بالإضافة إلى رغبة الإنسان الكامنة في الإبادة الفردية والجماعية.

وقد أسهبنا في هذه الموسوعة بتفصيل هذه الاغتيالات من الغرب والشرق على حد سواء، ومنها اغتيال رئيس وزراء إيران علي رازمار، الملك الأردني عبد الله بالقدس، هزاع المجالي رئيس وزراء الأردن، باتريس لومومبا رئيس وزراء جمهورية الكونغو، رئيس جمهورية الدومينيكان الديكتاتوري تروجيلو، عبد الكريم قاسم الرئيس العراقي، الرئيس الأميركي جون كينيدي، والزعيم المغربي المهدي بن بركة، ومارتن لوثر كينغ داعية الحرية والمساواة، روبرت كينيدي، الملك فيصل بن عبد العزيز من السعودية، ومن لبنان العالم والمخترع حسن كامل الصباح والزعيم كمال جنبلاط والرئيس بشير الجميل ورينيه معوض والرئيس رفيق الحريري، وآخرها النائب والصحافي جبران تويني. وكانت تأخذ في بعض الأحيان الطابع القانوني كالمحاكمات الصورية مثل المجاهد الليبي عمر المختار، ورئيس «الحزب السوري القومي الإجتماعي» أنطون سعادة وغيرهما، أو اغتيالات عبر معارك المقصود فيها تصفية قادة من المجاهدين الذين يخوضون معارك التحرر لشعوبهم وأراضيهم أمثال عبد القادر الحسيني وعز الدين القسَّام، أو كما حصل

للإمام المغيب موسى الصدر بتغييبه عن ساحة الصراع مع العدو الإسرائيلي.

ومن مصر الرئيس أنور السادات، ومن اليمن وكوريا وإيطاليا وبريطانيا وفرنسا والفلبين، واغتيال المهاتما غاندي، ورئيسة وزراء الهند أنديرا غاندي، ورشيد كرامي، وأبو جهاد من فلسطين، راجيف غاندي، ومحمد بو ضياف رئيس جمهورية الجزائر، وإسحق رابين، بالإضافة إلى القتل الجماعي: اغتيال 300 قروي بينهم أطفال ونساء وأسر في مذبحة بالجزائر في يوم واحد، 70 سائحاً في وادي الملوك بالأقصر في مصر، اغتيال 97 مدنياً في يوم واحد في الجزائر، وغيرها العديد من الاغتيالات والاحتجاز.

سبنسر برسيفال
(.... - 1812)

في يوم 11 أيار/مايو سنة 1812، ذهب رئيس وزراء بريطانيا سبنسر برسيفال إلى مجلس العموم ليلقي بياناً خطيراً عن سياسته الخارجية. وكانت بريطانيا حينذاك تعاني كثيراً من ويلات الحرب التي شنها نابليون في أرجاء أوروبا فقهر جيوشها وسيطر على شعوبها.

وكذلك كان الشعب يقاسي مجاعة خطيرة، نتيجة الحصار الذي أعلنه نابليون على بريطانيا وحرّم عل دول أوروبا الاتجار معها. وكان المورد الوحيد الذي تعتمد عليه بريطانيا في استيراد حاجتها من مواد الغذاء هو أميركا. وكانت أميركا بلداً محايداً يرسل منتجاته وبضائعه إلى فرنسا كما يرسلها إلى إنكلترا. فلم ترضِ هذه السياسة الحكومة البريطانية، فأصدر برسيفال قراراً يحرم الاتجار مع البلاد التي تتعامل مع نابليون. فأغضب هذا القرار الحكومة الأميركية التي يهمها رواج تجارتها قبل كل شيء آخر، فأرسلت مذكرة إلى بريطانيا تنذرها بأن قطع العلاقات التجارية معها، سيؤدي حتماً إلى نشوب الحرب بينهما.

هذا هو الموقف الذي جاء برسيفال ليشرحه في مجلس العموم ويدافع عن وجهة نظره في القرار الذي اتخذه بشأن الاتجار مع أميركا.

وحفلت ردهات المجلس وشرفاته بجميع رجال السياسة من شتى الأحزاب، وجميع الوزراء المفوضين في بريطانيا، وجميع رجال الصحافة والقلم في البلاد.

ودخل برسيفال بهو المجلس، فوجد جمعاً من النواب يتحدثون.. فحياهم واشترك معهم في الحديث قليلاً. وكان من المسائل المطروحة أمام المجلس في تلك الليلة طلب بمنح صموئيل كرومبثون مكافأة عن آلة اخترعها لنسج القطن والصوف، درت على بريطانيا ملايين الجنيهات، وجعلتها من أولى دول العالم في صناعة النسيج. فقال برسيفال هامساً لمحدثيه أن الحكومة قررت منح صاحب هذا الاختراع عشرين ألف جنيه.. فأخذوا يشكرونه على هذه المكافأة السخية، وتقدم المخترع ليشكره عل هذا القرار.

وفجأة وعلى حين غرة.. سمع صوت طلق ناري.. وإذا برئيس الوزارة يترنح قليلاً ويسقط على الأرض قتيلاً.. فقد نفدت إلى صدره رصاصة قاتلة أصابت القلب في صميمه.. وإذا بالرجل جثة هامدة لا حراك بها.

وحدث حينذاك ما يحدث دائماً من الهرج والمرج والفوضى.. ولكن بعض الحاضرين تمالكوا أنفسهم وألقوا القبض على الجاني.. فإذا به رجل من المفلسين، اشتغل في تجارة الخشب ثم أفلس.. وظل عاطلاً بلا عمل ولا مال.. وقد تقدم بالتماس

إلى رئيس الوزراء يطلب تعويضاً عن سجنه بسبب دين عليه وعندما فشل في الحصول على التعويض حقد على رئيس الوزراء وقدم الرجل للمحاكمة، فتظاهر بالجنون ولكن القضاء أدانه وحكم عليه بالإعدام. . وبعد أسبوع واحد من وقوع الجريمة أقيمت المقصلة لتنفيذ حكم الإعدام. وكان الحكم حينذاك ينفذ في الميادين العامة فاجتمع في الميدان الذي سيعدم فيه الجاني آلاف من الناس، ليشهدوا القصاص من الرجل الذي أودى بحياة رئيس حكومتهم. . واستأجر اللورد بيرون الشاعر الانكليزي شرفة في إحدى المباني المشرفة عل الميدان، ودعا إليها أصحابه، وظلوا ساهرين طوال الليل، حتى إذا أصبح الصبح رأوا كيف تكون نهاية هذا الجاني الذي أدمى قلب الشعب.

وأرسل القصر الملكي إلى البرلمان رسالة يطالب فيها تعويض أرملة الفقيد وأطفاله عن فقد عائلهم. فقرر المجلس منح أرملة الفقيد معاشاً سنوياً قدره 2500 جنيه وكذلك رصد لأيتامه 50,000 جنيه وقرر إقامة تمثال له يوضع في كنيسة وستمنستر حيث دفن برسيفال إلى جانب عظماء إنكلترا.

وانتهز خصومه السياسيون الفرصة وأخذوا يسعون ليخلفوه في الحكم، ولكن سعيهم باء بالإخفاق، وظل الحكم في يد حزبه وهو حزب المحافظين. وتولى رئاسة الوزارة من بعده إيرل ليفربول. وكان هذا الرجل لا يريد مقاطعة أميركا تجارياً، فأصدر قراراً ألغى به قرار برسيفال السابق، وبذلك سمح لإنكلترا أن تستورد من أميركا ما تشاء من البضائع والمنتجات. ولكن العالم لم يكن قد

اخترع حينذاك الهاتف والتلغراف فلم تعرف أميركا هذا القرار الذي صدر في 11 حزيران/يونيو إلا بعد مرور ستة أسابيع.. فلم يكن له أي أثر في تغيير موقف أميركا، التي اجتمع فيها مجلس الكونغرس بتاريخ 14 حزيران/يونيو وقرر إعلان الحرب على بريطانيا[1].

(1) «**أشهر الاغتيالات السياسية في العالم**»، هاني الخير، دار الكتاب العربي، دمشق، ج1، ص 19 ـ 21.

أبراهام لنكولن
(1809 ـ 1865)

«دون حقد على أحد ومحبة للجميع دعونا نضمد جراح الأمة ونناضل من أجل تحقيق سلام عادل ودائم يبقى ماثلاً في الأذهان» كلمات رائعة لأبراهام لنكولن تدل على قدرته الفائقة على التعبير عن نفسه وآرائه.

إيمانه الصادق بالحرية ساعده على الوصول للطريقة المثلى التي استطاع أن يشحذ بها الشعب ويعبئه من أجل تقديم التضحيات للوصول للهدف.

ولد أبراهام لنكولن في سنة 1809 وهو الزعيم الأميركي الذي ألغى الرق، فقد أمضى طفولته وصباه منصرفاً إلى القراءة، وكان مما قرأه في بدء حياته الإنجيل. وعندما كان يتعذر عليه الحصول على كتب جديدة يمضي وقته في قراءتها، كان ينكب على قاموس اللغة يستظهر مفرداته. وكان لنكولن تلميذاً نابهاً مجدّاً، وقد كتب فصولاً امتازت بجدها وعمقها وهو في الرابعة عشرة من عمره، لقد كان معروفاً بين أقرانه الطلاب باستقامة الفكر والخلق، فكانوا يختارونه حكماً يفصل بينهم فيما يجد من خلافات. انتخب أبراهام

لنكولن عضواً في الكونغرس سنة 1846. وانتخب أيضاً رئيساً للولايات المتحدة الأميركية عام 1860.

اغتيل الرئيس أبراهام لنكولن من طرف أحد الأشخاص المتعصبين في العام 1865.

- تحرير العبيد:

من الممكن القول إن كلمات القاضي مارشال كانت صحيحة من نواحي عدة. لقد نص الدستور الأساسي للعام 1787 على أن العبيد سوف يحتسبون كثلاثة أخماس شخص عند تحديد عدد سكان كل ولاية الذي يتم تقرير عدد مندوبيها إلى مجلس النواب، وهو المجلس التشريعي الأدنى في الكونغرس القومي. وضمن هذا الدستور لمالكي العبيد إرجاع الهاربين منهم حتى أولئك الذين فروا إلى ولايات منعت قوانينها الرق. وعشية اندلاع الحرب الأهلية الدموية في البلاد حول الرق والمسائل المرتبطة به، أكدت المحكمة العليا في قضية دريد سكوت ضد ساندفود عام 1857 أن الأميركيين الأفريقيين، أحراراً كانوا أم عبيداً، ليسوا مواطنين أميركيين ولا يحق لهم التمتع بالحقوق التي ضمنها الدستور للمواطنين.

بعد انتهاء الحرب الأهلية، شرّع الكونغرس وصادقت الولايات على مجموعة من التعديلات للدستور هدفت إلى تأمين حقوق المواطنية الكاملة للعبيد السابقين الذين حصلوا على حريتهم خلال الحرب استناداً إلى إعلان تحرير العبيد الذي أصدره الرئيس لنكولن عام 1863. نصت المادة الرئيسية للتعديل الرابع عشر، الذي تمت المصادقة عليه عام 1868 على أنه «لا يحق لأي ولاية أن تضع

أو تطبق أي قانون يختصر من المميزات أو الحصانات لمواطني الولايات المتحدة، كما لا يحق لأي ولاية أن تحرم أي فرد من حقه في الحياة، أو الحرية، أو الملكية، بدون قواعد الإجراءات القانونية المتبعة، كما لا يحق لها أن تحرم أي فرد يعيش ضمن نطاق سلطتها القضائية من الحماية المتساوية للقوانين».

حقق الإصدار والتطبيق المبكر لهذه التعديلات التي تمّت في حقبة إعادة الإعمار نهاية جزئية ومؤقتة فقط للتمييز ضد الأقليات في الولايات المتحدة، استناداً إلى سلطاته في فرض تطبيق نصوص التعديلات، وأصدر الكونغرس عدداً من القوانين المهمة المتعلقة بالحقوق المدنية فمثلاً، منع قانون الحقوق المدنية للعام 1875 الفصل العرقي أو التمييز في وسائل المواصلات العامة والفنادق والمسارح. ولكن حتى الكونغرس الذي أقرّ التعديل الرابع عشر للدستور، سمح بالفصل العرقي في مدارس واشنطن، عاصمة الدولة. وإذ تضاءل الحماس القومي لإعادة الإعمار في السبعينات والثمانينات من القرن التاسع عشر، قامت أيضاً المحكمة العليا بتفسيرات ضيقة لهذه الحقوق المدنية التي أقرها الكونغرس أو أعتبرها على أنها مخالفة للدستور.

جمال الدين الأفغاني
(1838 - 1897)

ترجع نهضة الأمم والدول إلى جهود المصلحين المخلصين من أبنائها الذين يسعون دائماً إلى توحيد أبناء الأمة، وإيقاظ وعيهم بقضايا ومشكلات أمتهم، وتحريك همتهم نحو الإصلاح والتجديد، والوقوف صفاً واحداً في وجه أطماع المستعمرين والطامعين.

وفي أواسط القرن التاسع عشر قام رجال مصلحون من أبناء الشرق الإسلامي، دقّوا ناقوس الخطر لأمتهم، وحذّروا ملوكهم وحكامهم من الخطر الوشيك الذي يتربص بالأمة الإسلامية، وتعالت أصواتهم بالدعوة إلى التعجيل بالإصلاح قبل وقوع الخطر، وكان من هؤلاء الرواد: مصطفى رشيد باشا في تركيا، وميلكم خان في إيران، وأمير علي في الهند، وخير الدين باشا في تونس. وكان جمال الدين الأفغاني أحد هؤلاء الرواد المصلحين الذين وقفوا حياتهم كلها على الدعوة إلى توحيد العالم الإسلامي، وتحرير شعوبه من الاستعمار والاستغلال.

ولكن كانت دعوة كل واحد من هؤلاء وتأثيره محدودين بحدود بلاده، ولم يكن صوته الإصلاحي يتجاوز أبناء وطنه، أما جمال

الدين الأفغاني فقد تجاوز صدى دعوته حدود الأوطان والقوميات، واتسع ليشمل العالم الإسلامي كله.

ـ الميلاد والنشأة:

ولد السيد جمال الدين الأفغاني في تشرين الأول/أكتوبر عام 1838، لأسرة أفغانية عريقة ينتهي نسبها إلى الحسين بن علي عليهما السلام، ونشأ في كابول عاصمة الأفغان. وتعلم في بداية تلقيه العلم اللغتين العربية والفارسية، ودرس القرآن وشيئاً من العلوم الإسلامية. وعندما بلغ الثامنة عشرة أتم دراسته للعلوم، ثم سافر إلى الهند لدراسة بعض العلوم العصرية، وقصد الحجاز وهو في التاسعة عشرة لأداء فريضة الحج سنة 1857، ثم رجع إلى أفغانستان حيث تقلد إحدى الوظائف الحكومية، وظل طوال حياته حريصاً على العلم والتعلم، فقد شرع في تعلم الفرنسية وهو كبير، وبذل كثيراً من الجهد والتصميم حتى خطا خطوات جيدة في تعلمها.

وحينما وقع خلاف بين الأمراء الأفغان انحاز جمال الدين إلى محمد أعظم خان الذي كان بمثابة وزير دولة، وحدث صدام بينه وبين الإنجليز، فرحل جمال الدين عن أفغانستان سنة 1868، ومر بالهند في طريقه إلى مصر حيث أقام فيها مدة قصيرة تردد في أثنائها على الأزهر، وكان بيته مزاراً لكثير من الطلاب والدارسين خاصة السوريين. ثم سافر إلى الآستانة في عهد الصدر عال باشا، فعظم أمره فيها، وذاعت شهرته وارتفعت منزلته، ولقيت دعوته بضرورة التعجيل بالإصلاح صدى طيباً لدى العثمانيين، حتى قال المستر بلنت الإنجليزي: «إن سعي العثمانيين في تحويل دولتهم إلى

دستورية في بادئ الأمر قد ينسب إلى شيء من تأثير جمال الدين، فقد أقام في عاصمتهم يحاورهم ويخطب فيهم»[1].

ـ في مصر:

عُيِّن جمال الدين وهو في الآستانة عضواً في مجلس المعارف الأعلى، وهناك لقي معارضة وهجوماً من بعض علماء الآستانة وخطباء المساجد الذين لم يرقهم كثير من آرائه وأقواله فخرج من الآستانة إلى مصر، فلقي في مصر من الحفاوة والتكريم من أهلها ما حمله على البقاء فيها، وكان لجرأته وصراحته أكبر الأثر في التفاف الناس حوله، فأصبح له مريدون كثيرون، فحسده الشيوخ لحظوته عند الناس.

وخاض الأفغاني غمار السياسة المصرية، ودعا المصريين إلى ضرورة تنظيم أمور الحكم، وقد أدى ذلك إلى تنكر ولاة الأمور له، ونفورهم منه، وتوجسهم به، خاصة أنه كان يعلن عن بغضه للإنجليز، ولا يخفي عداءه لهم في أية مناسبة.

ـ مع محمد عبده في باريس:

كانت مقالاته مثار غضب شديد من الإنجليز ومن الحكام في مصر على حد سواء. فلما تولى الخديوي توفيق باشا حكم البلاد أخرجه من مصر، فانتقل الأفغاني إلى الهند سنة 1879، بعد أن أقام في مصر نحو ثماني سنوات.

---

(1) **«تتمة البيان في تاريخ الأفغان»**، السيد جمال الدين الأفغاني، مطبعة الموسوعات، القاهرة، 1901.

ثم غادر الهند إلى لندن، ومنها انتقل إلى باريس حيث اتصل بالشيخ محمد عبده، وأصدرا معاً جريدة «العروة الوثقى»، ولكنها ما لبثت أن توقفت عن الصدور بعد أن أوصدت أمامها أبواب كل من مصر والسودان والهند. ولكن الأفغاني لم يتوقف عن الكتابة في السياسة، فكانت صحف باريس منبراً لمقالاته السياسية النقدية الساخنة.

- في إيران:

دعاه شاه إيران ناصر الدين للحضور إلى طهران واحتفى به وقرَّبه منه، وهناك نال الأفغاني تقدير الإيرانيين وحظي بحبهم، ومالوا إلى تعاليمه وأفكاره، ولكن الشاه أحس بخطر أفكار الأفغاني على العرش الإيراني، وتغيرت معاملته له، وشعر الأفغاني بذلك، فاستأذنه في السفر، وذهب إلى موسكو ثم بطرسبرج، وكان يلقى التقدير والاحترام في كل مكان ينزله، ويجذب الكثيرين من المؤيدين والمريدين[1].

وحينما زار الأفغاني معرض باريس سنة 1889 التقى هناك بالشاه ناصر الدين، وأظهر له الشاه من الود والتقدير ما دعاه إلى العودة مرة أخرى إلى طهران، ولكن ما لبث الشاه أن تغير نحوه ثانية، خاصة بعدما راح يصرح برأيه في إصلاح الحكومة، ويجاهر بنقده للأوضاع السياسية في الدولة. ولم يطق الشاه صبراً، ورأى في بقاء

---

(1) «جمال الدين الأسد آبادي» (المعروف بالأفغاني)، ميرزا لطف الله خان الأسد آبادي، ترجمه وقدم له وعلق عليه: د. عبد النعيم محمد حسنين، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1973.

الأفغاني خطراً محققاً على أركان عرشه، فأرسل إليه قوة عسكرية، فساقوه من فراش مرضه إلى حدود تركيا.

اتجه الأفغاني إلى البصرة، ومنها إلى لندن حيث اتخذ من جريدة «ضياء الخافقين» منبراً للهجوم على الشاه، وكشف ما آلت إليه أحوال إيران في عهده، وكان تأثير الأفغاني قوياً على الإيرانيين، حتى بلغ من تأثيره أنه استطاع أن يحمل بعض علماء إيران على إصدار فتوى بتحريم شرب الدخان، فأصدر الميرزا محمد حسن الشيرازي فتوى حرّم فيها على الإيرانيين شرب الدخان، فامتنعوا عن شربه امتناعاً شديداً، حتى إن العامة ثاروا على الشاه، وأحاطوا بقصره، وطلبوا منه إلغاء الإتفاق مع إحدى الشركات العربية لتأسيس شركة «ريجي» في إيران، فاضطر الشاه إلى فسخ الإتفاق، وتعويض الشركة بمبلغ نصف مليون ليرة إنجليزية.

ـ دسائس الوشاة ومكائد الحاقدين:

وكان ذلك أحد الأسباب التي جعلت الشاه يلجأ إلى السلطان عبد الحميد ليوقف الأفغاني عن الهجوم عليه، واستطاع السلطان أن يجذب الأفغاني إلى نزول الآستانة سنة 1892، وأراد السلطان أن يُنعم على الأفغاني برتبة قاضي عسكر، ولكن الأفغاني أبى، وقال لرسول السلطان: «قل لمولاي السلطان إن جمال الدين يرى أن رتبة العلم أعلى المراتب».

وفي أثناء وجود الأفغاني بالآستانة زارها الخديوي عباس حلمي، والتقى بالأفغاني لقاءً عابراً، ولكن الوشاة والحاسدين من

أعداء الأفغاني المقربين إلى السلطان وجدوا في ذلك اللقاء العابر فرصة سانحة للوقيعة بينه وبين السلطان، فبالغوا في وصف ذلك اللقاء، وأضفوا عليه ظلالاً من الريبة والغموض، وأوعزوا إلى السلطان أنهما تحادثا طويلاً في شؤون الخلافة، وحذّروه من الخطر الذي يكمن وراء تلك المقابلة فاستدعى السلطان العثماني جمال الدين الأفغاني وأطلعه على تلك الأقوال، فأوضح له الأفغاني حقيقة الموقف بجرأة، وانتقد هؤلاء الوشاة بشجاعة لم تعهد لغيره.

ـ منهج الأفغاني في الإصلاح الديني:

كانت الدعوة إلى القرآن الكريم والتبشير به من أكبر ما يطمح إليه الأفغاني في حياته، وكان يرى أن القاعدة الأساسية للإصلاح وتيسير الدين للدعوة هي الاعتماد على القرآن الكريم، ويقول: «القرآن من أكبر الوسائل في لفت نظر الإفرنج إلى حسن الإسلام، فهو يدعوهم بلسان حاله إليه. لكنهم يرون حالة المسلمين السيئة من خلال القرآن فيقعدون عن اتباعه والإيمان به». فالقرآن وحده سبب الهداية وأساس الإصلاح، والسبيل إلى نهضة الأمة: «ومن مزايا القرآن أن العرب قبل إنزال القرآن عليهم كانوا في حالة همجية لا توصف، فلم يمض عليهم قرن ونصف قرن حتى ملكوا عالم زمانهم، وفاقوا أمم الأرض سياسة وعلماً وفلسفة وصناعة وتجارة»[1]. فالإصلاح الديني لا يقوم

(1) «جمال الدين الأفغاني، ذكريات وأحاديث» عبد القادر المغربي، دار المعارف، مصر ـ القاهرة، سلسلة اقرأ 68.

إلا على القرآن وحده أولاً، ثم فهمه فهماً صحيحاً حراً، وذلك يكون بتهذيب علومنا الموصلة إليه، وتمهيد الطريق إليها، وتقريبها إلى أذهان متناوليها.

ـ جمال الدين بين السنية والتشيع:

يرى بعض الباحثين أن جمال الدين كان إيرانياً من أسد آباد بالقرب من همدان، وأنه كان شيعياً جعفري المذهب، وذلك بالرغم من اشتهار أمر جمال الدين بانتسابه إلى بلاد الأفغان وأنه سني المذهب، وبالرغم من حرصه على تلقيب نفسه بالأفغاني، وانخراطه في علماء أهل السنة في جميع البلدان الإسلامية التي زارها أو أقام فيها.

ويحاول هؤلاء إيجاد الأدلة، وتدبيج البراهين التي تعضد موقفهم، وتؤيد ما ذهبوا إليه، ومن ذلك:

1 ـ وجود عائلة جمال الدين في إيران، وعدم وجود أي أثر لها في أفغانستان.

2 ـ إن اسم والد جمال الدين صفدر، وهو اسم إيراني شيعي يعني: البطل ممزق الصفوف.

3 ـ اهتمام جمال الدين بإيران ومشكلاتها أكثر من اهتمامه بأي قطر إسلامي آخر.

4 ـ إجادة جمال الدين اللغة الفارسية باللهجة الإيرانية.

5 ـ تمجيد جمال الدين للإيرانيين وإشادته بذكائهم.

وهي في مجملها قرائن لا ترقى إلى الأدلة الجازمة، أو البراهين

القاطعة تنقضها كتابات جمال الدين وسيرة حياته، التي توضح أنه كان أفغانياً سنياً لا إيرانياً شيعياً[1].

فهو في كتابه «تتمة البيان في تاريخ الأفغان» ينتقد الشيعة في انصرافهم عن بعض أركان الدين إلى ظواهر غريبة عنه وعادات محدثة، فيقول: «وجميع الأفغانيين متمذهبون بمذهب أبي حنيفة، لا يتساهلون رجالاً ونساءً وحضريين وبدويين في الصلاة والصوم، سوى طائفة (نوري)، فإنهم متوغلون في التشيع، يهتمون بأمر مأتم الحسين (رضي الله عنه) في العشر الأول من محرم، ويضربون ظهورهم وأكتافهم بالسلاسل مكشوفة».

وقد تصدى لهذا الزعم عدد من الباحثين والمفكرين، في مقدمتهم د. محمد عمارة الذي رأى أن الرجل لن يعيبه أن يكون إيرانياً أو أفغانياً، ولن ينقص من قدره أن يكون شيعياً أو سنياً، لأنه مسلم تشرف به كل أقاليم الإسلام وجميع مذاهبه.

وأن الذي جعل قضية الخلاف حول موطن جمال الدين وحول المذهب الديني الذي تمذهب به تأخذ بعداً آخر، أخرجها من هذا الإطار المألوف، هو أن الذين ادعوا إيرانيته وشيعته قد أرادوا ـ من وراء هذه الدعوى ـ إثبات كذب الرجل، فقد قال عن نفسه بأنه أفغاني، ونطقت أفكاره وكتاباته بأنه سني،

---

(1) **«جمال الدين الأفغاني المفترى عليه»**، د. محمد عمارة، دار الشروق، القاهرة، 1984.

فالمقصد من وراء تلك الدعوة هو هدم الرجل (الرمز) الذي يعتز به الجميع[1].

ـ الأفغاني والماسونية:

انتظم جمال الدين في سلك الماسونية، لينفسح له المجال أمام الأعمال السياسية، وقد انتخب رئيساً لمحفل «كوكب الشرق» سنة 1878، ولكنه حينما اكتشف جبن هذا المحفل عن التصدي للاستعمار والاستبداد، ومسايرته لمخطط الإنجليز في مصر استقال منه. وقد سجل الأفغاني تجربته تلك في كلمته التي أدان فيها ماسونية ذلك المحفل الذي يتستر تحت شعارات براقة وأهداف عريضة، لكنه في الحقيقة لا يخرج في ذلك كله عن حيز القول إلى الفعل، بل ربما كان أدنى إلى تحقيق أهداف المستعمر وترسيخ أطماعه بعيداً عن تأكيد مبادئ الحق والحرية والمساواة التي يرفعها مجرد شعار.

ـ هل مات مسموماً؟

توفي الأفغاني في الآستانة بعد حياة شاقة مليئة بالمتاعب والصعاب عن عمر بلغ نحو ستين عاماً، وكما حفلت حياته بالجدل والإثارة، فقد ثار الجدل أيضاً حول وفاته، وشكك البعض في أسبابها، وأشار آخرون إلى أنه اغتيل بالسم.

فبالرغم من أن الشيخ عبد الرشيد إبراهيم ـ الرحالة الروسي

---

(1) «جمال الدين الأفغاني والثورة الشاملة»، السيد يوسف، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1999، سلسلة تاريخ المصريين 151.

الشهير - يؤكد أنه كان مريضاً، وأنه توفي متأثراً بمرضه، وكان قد زاره قبيل ساعتين من وفاته، فإن ابن أخته ميرزا لطف الله خان يزعم أنه مات مسموماً، ويتهم الحكومة الإيرانية بقتله، ويذكر أن الحكومة الإيرانية أوفدت ناصر الملك لقتل جمال الدين بعدما رفضت الدولة العثمانية تسليمه لها.. وكانت وفاته في 10 آذار/ مارس 1897[1].

(1) «زعماء الإصلاح في العصر الحديث» أحمد أمين، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1948.

ملك إيطاليا أمبرتو الأول
(1844 ـ 1900)

هل يمكن للمرء الهرب من قدره..؟

بالطبع (لا)..

ولكن ماذا لو اتخذ الاحتياطات اللازمة؟..

الجواب أيضاً (لا).. فحتى هذه الاحتياطات تدخل ضمن ما هو مقدر على الإنسان وتلعب دوراً مهماً كعنصر من عناصر ما سيحدث!

ما جعلني أكتب هذه المقدمة ثلاث قصص تدور حول هذا الموضوع:

ـ **القصة الأولى:** حدثت إبان الثورة الأميركية، فقد حلم المدير المالي للثورة روبرت موريس بأنه سيُقتل بواسطة قذيفة مدفعية أثناء زيارته لإحدى سفن البحرية في اليوم التالي. وقد أقلقه ذلك الحلم إلى درجة التفكير بإلغاء الزيارة.. إلا أنه عدل عن رأيه وقرر اتخاذ الاحتياطات اللازمة، فأصدر أوامره إلى

كابتن السفينة بأن لا تُطلق مدافع التحية أبداً حتى يعود إلى الشاطئ. كما حذر من حمل الجنود لأي أسلحة نارية أو وجود أي بارود على ظهر السفينة. وفعلاً انتهت الزيارة بسلام واستقل موريس وأعوانه أحد القوارب نحو الشاطئ. وفي تلك الأثناء وبينما كان كابتن السفينة يراقب وصول القارب وقفت ذبابة على أنفه، وحين رفع يده ليبعدها ظن أحد الجنود أنها إشارة منه للبدء في إطلاق مدافع التحية.. وهكذا أطلق الجندي قذيفة دمرت القارب الذي كان يستقله موريس فتسبب في موته وهو يهم بالنزول إلى الشاطئ!!

ـ **القصة الثانية**: فقد حدثت في عهد قريب في إسبانيا. فقد كان جايم كاستل ينتظر ولادة طفله الأول بعد ثلاثة أشهر، إلا أنه سمع في المنام من يخبره بأنه لن يرى ذلك الطفل أبداً.. ومع تكرار الحلم أيقن كاستل أنه سيموت لا محالة، فسارع بالتأمين على حياته بمبلغ 7 ملايين بزيستا تدفع بعد موته لطفله الجديد. وبعد أسبوعين اصطدمت به سيارة منحرفة فمات على الفور.. شركة التأمين علمت بقضية الحلم من أحد الأقرباء فرفضت دفع مبلغ التأمين للطفل بحجة أن كاستل كان يعلم بأمر موته!!

أما قصتنا الثالثة وهي موضوع عنوان هذا البحث من موسوعة الاغتيالات، فهي الحادثة المشهورة التي وقعت في تموز/يوليو عام 1900.

فقد وصل ملك إيطاليا أمبرتو الأول إلى مدينة مونزا ليفتتح حفلاً رياضياً في اليوم التالي. وفي ليلة وصوله خرج سراً مع مساعده دي كامب جن إلى أحد المطاعم لتناول الغذاء. وكان المطعم مزدحماً بحيث قام صاحب المطعم بخدمتهما. . ولكن ما إن اقترب الرجل من طاولتهما حتى عقدت الدهشة ألسنة الرجال الثلاثة، فقد كان صاحب المطعم يشبه الملك في كل شيء. . في الملامح والجسم وحتى في الشنب الكبير. وسرعان ما نسي الملك أمر الطعام ودخل في نقاش طويل مع الرجل - الذي يجهل هويته - حول هذه المصادفة الغريبة. وكان الملك أمبرتو قد طلب من الرجل أن يحدثه عن حياته، وكان كلما استطرد في الكلام زادت دهشة الملك من تشابه التفاصيل، فالرجل ولد في المدينة نفسها، وفي الوقت نفسه في 14 أيار/ مايو عام 1844 وكان له الاسم نفسه. . والأغرب من ذلك أنهما تزوجا في الوقت نفسه في 22 نيسان/أبريل عام 1868 من امرأتين لهما الاسم نفسه مارغريتا كما أن لكليهما ابن بكر يدعى فتيريو. والطريف أن الرجل افتتح مطعمه في اليوم الذي توج فيه الملك على إيطاليا. .

وما إن عاد صاحب المطعم لعمله حتى قال الملك لمساعده: «هذا الرجل سيفيدني في أشياء كثيرة، تأكد من حضوره حفل الافتتاح غداً»!

وفي اليوم التالي تفقد الملك شبيهه فلم يجده. . وحين سأل

مساعده بدا الارتباك على وجهه وأخبره أن صاحب المطعم أصيب بطلق ناري خلال شجار وقع في المطعم فتوفي قبل قليل!!

عندها ارتعد الملك وشعر بغصة في حلقه، فالقتيل كان يسبقه دائماً بساعات قليلة.. وعلى الفور نادى حراسه وأغلق المكان وحاول الهرب.. إلا أنه لم يتجاوز أمتاراً قليلة إلا واخترقت جسده ثلاث رصاصات أطلقها عليه أحد المعارضين فمات في الحال!!

وليم ماكينلي
(1901 - 1843)

في 22 شباط/فبراير 1927 الموافق يوم عيد ميلاد جورج واشنطن، دعا سفير الولايات المتحدة في باريس، مايرون هيريك، ممثلي دول أميركا اللاتينية الأعضاء في الإتحاد الأميركي إلى مأدبة ومما قاله في خطابه: «إن الولايات المتحدة ليست متعطشة للأراضي فلا رغبة لديها ولا حاجة لمناطق جديدة. وكما يعرف المدركون فإننا حاولنا باستمرار وعن تصميم طوال الأربعين عاماً الماضية، عدم الإفادة من الفرص التي أتيحت لنا للتوسع. فالذين يتهموننا بالإمبريالية هم جاهلون أو سيئو النية»[1]. بالطبع، فقد جعله النبيذ وأضواء مدينة الأنوار البراقة ينسى ما اقتطع من المكسيك وتقييد كوبا والهيمنة على هايتي والدومينيكان وانتزاع بنما من كولومبيا واجتياح نيكاراغوا وضم الفيليبين.

---

(1) Louis Guilaine, L'Amérique latine et l'impérialisme américain, Armand Colin, Paris, 1928.

عام 1823، وفي رسالة موجهة إلى الكونغرس أطلق الرئيس الأميركي جيمس مونرو العقيدة التي لا تزال تحمل اسمه. ففي الوقت الذي كانت تتداعى فيه الإمبراطورية الإيبرية لتوقظ بعض المطامع البريطانية، رفض مونرو أي تدخل أوروبي في الشؤون الأميركية. وكان المبدأ مفيداً للجميع لو لم تسعَ الولايات المتحدة تحت غطاء مكافحة الاستعمار الخارجي، إلى توجيه سياستها الخارجية نحو تشكيل كتلة قارية تبغي الهيمنة عليها.

وفي عدم اكتراث بإضفاء المصداقية على مبرراتها، قامت الولايات المتحدة بالتدخل عسكرياً عام 1824 في بورتو ريكو وعام 1831 في الأرجنتين وبين 1845 و1847 في المكسيك وعام 1857 في نيكاراغوا وعام 1860 في مقاطعة بنما وأيضاً في نيكاراغوا. إلى درجة أن حكومات تشيلي وبوليفيا والإكوادور وغرينادا الجديدة (كولومبيا) والبيرو تنادت عام 1847 إلى الإجتماع في ليما لبحث ما تثيره هذه السياسة التدخلية من مشكلات. في العام التالي، تأكدت شكوكها مع حرب المكسيك حيث ضمت الولايات المتحدة نصف أراضي جارتها، من تكساس إلى كاليفورنيا.

مع نهاية الحرب الأهلية الأميركية، أدركت أميركا الشمالية حجم قوتها. وابتداءً من العام 1880، وبعد أن أكملت فتح المناطق الغربية التفتت نحو الجنوب. خلال رئاسة الجنرال غرانت (1869 ـ 1877) عرضت الولايات المتحدة جهراً مشروعها

من خلال ما سمّي نظرية «القدر الجليّ»: السيطرة على القارة بأكملها. بالطبع كان المبرر الروحاني الدائم هو الدفاع عن الديمقراطية لكنها وضعت سياستها هذه موضع التنفيذ بواسطة العصا الغليظة وإرسال مشاة البحرية. وتعاقبت التدخلات العسكرية المحددة مع عمليات الاجتياح تتبعها إقامة المحميات.

تمردت كوبا التي بقيت تحت الإحتلال الإسباني بينما استقلت باقي المستعمرات الأميركية. وأطلق فيها خوسيه مارتي منذ العام 1985 حرب إستقلال ثانية. في 15 شباط/ فبراير 1898 وضمن ظروف غامضة انفجرت المدمرة الأميركية يو. أس. ماين في مرفأ هافانا. تذرع الرئيس وليم ماكنلي بهذا الحادث ليعلن الحرب على إسبانيا. وبعد أن تفوقت على القوات الإسبانية إثر «حرب قصيرة رائعة» كما كان يحب تسميتها تيودور روزفلت، احتلت القوات المسلحة الأميركية بورتو ريكو. وبموجب إتفاقية باريس في 10 كانون الأول/ ديسمبر 1898، تخلت إسبانيا أيضاً عن كوبا والفيليبين.

تحت ضغط الإحتلال العسكري، اضطرت كوبا «المحررة» إلى إضافة ملحق لدستورها وهو «تعديل بلات» الذي صوت عليه الكونغرس الأميركي في العام 1901 والذي تعطي بموجبه هافانا الولايات المتحدة حق التدخل «لضمان الإستقلال الكوبي»، والمحافظة على حكومة تحمي «الحياة والملكية والحريات الشخصية». وقد جاء في الوثيقة إضافة إلى ذلك: «من أجل

تأمين الشروط المطلوبة للولايات المتحدة، ومن أجل المحافظة على إستقلال كوبا وحماية شعبها وتأمين حماية نفسها أيضاً، تقوم حكومة كوبا ببيع أو تأجير الولايات المتحدة الأراضي الضرورية لتكديس مخزون الفحم أو لإنشاء المحطات البحرية في بعض النقاط المحددة. . .» وهكذا ولدت قاعدة غوانتانامو، ويعود الفضل إلى إنشاء هذه القاعدة إلى الرئيس ويليام ماكينلي.

ـ من هو الرئيس ماكينلي؟

هو الرئيس الرابع والعشرون للولايات المتحدة الأميركية، انتخب من قبل الشعب كما ينص القانون الجديد للانتخابات في أميركا في ذلك الوقت. لكنه قضى معظم رئاسته منشغلاً في السياسة الخارجية. إن هذا المحارب القديم القادم من غمار الحرب الأهلية ليحتل كرسي الرئاسة قاد الولايات المتحدة لتوجيه الضربة الخاطفة الوحيدة ذات المعنى إلى الاستعمار في شكله القديم.

ولد ماكينلي في 29 كانون الثاني/ يناير 1843 في نيلز بولاية أوهايو لأبوين من الطبقة العاملة أنجبا تسعة أبناء كان آخرهم ماكينلي.

التحق ماكينلي بكلية «ألليغني» واشترك في الحرب الأهلية برتبة جندي في سلاح المشاة بولاية أوهايو. ومع نهاية الحرب منح رتبة فخرية رُقّي فيها إلى رتبة رائد، ثم درس الحقوق، وأصبح محامياً في أوهايو. اشتغل في وظيفة المدعي العام

للمقاطعة، وكان طوال الوقت مؤيداً للدور السياسي الذي يلعبه قائده العسكري السابق هايز[1].

انتخب ماكنلي عضواً في مجلس النواب عام 1876 واحتفظ بعضويته لفترة طويلة من العام 1877 إلى 1891 ما عدا فترة قصيرة من 1884 ـ 1885، وأصبح معروفاً في أوساط الشعب الأميركي أنه مدافع عن حماية التعريفة الجمركية للبضائع الأميركية، وتقدم بقانون ماكنلي للتعريفة.

تزوج من إداسا كستون عام 1871، لكن زوجته أعجزها المرض بعد الموت المبكر لابنتيهما.

تولى ماكينلي منصب حاكم ولاية أوهايو لفترتين ولم يحالفه الحظ في محاولة اختياره مرشحاً للرئاسة عن الحزب الجمهوري في العام 1892، لكنه وُفق عام 1896 ودخل البيت الأبيض حيث كانت الشعارات الرئيسية لحملته الانتخابية هي حماية التعريفة، ودعم معيار الذهب ولكن الشؤون الخارجية فُرضت عليه في مدة رئاسته.

في العام 1898 كانت مشاعر العداء للإسبان تتأجج في الولايات المتحدة وطالبت الصحف بالتدخل العسكري الأميركي لإخماد ثورة كوبا ضد الاستعمار الإسباني. وقد سعى ماكينلي

(1) «رؤساء أميركا»، صموئيل كرومبتون. ص 92 ـ 93. و«الولايات المتحدة الأميركية من الخيمة إلى الإمبراطورية». ص 264 ـ 266.

للوصول إلى حل دبلوماسي، لكنه اضطر فعلياً أن يطلب من الكونغرس الموافقة على إعلان الحرب عندما تعرضت السفينة الأميركية ماين لانفجار ضخم أدّى إلى إغراقها في ميناء هافانا في شباط/فبراير عام 1898، وكان الاتجاه الغالب لدى الشعب الأميركي أن يحمّل إسبانيا المسؤولية في هذه الكارثة.

كانت حرباً سريعة تكلّلت بالنصر وأثبتت للعالم مدى قوة البحرية والجيش الأميركي. وبمقتضى «إتفاقية باريس» عام 1899 تسلمت الولايات المتحدة بورتوريكو، وغوام، والفيليبين، وبالإضافة إليهم قام ماكينلي بضم هاواي وإحتلال ووك إيلاند. وأثناء ثورة «البوكسر» الصينية أرسل ماكينلي 5000 جندي أميركي ليشاركوا كجزء في القوة الدولية لحماية الأجانب في الصين.

وفي الشؤون الداخلية أيّد ماكينلي تعريفة «دنغلي» المرتفعة عام 1897، و«قانون معيار الذهب» عام 1900 الذي جعل الدولار الذهبي المعيار الوحيد لقيمة العملة. وقد أعيد انتخاب ماكينلي لفترة رئاسة ثانية عام 1900، وبدا مستعداً للاستمتاع بفترة رئاسية حافلة بمذاق النصر حيث كانت معظم أهدافه الرئيسية قد تحقّقت أو كادت تتحقق، لكنه تعرّض للاغتيال في 6 أيلول/سبتمبر 1901 على يد ليون زولجوز في معرض بان أميريكان في بافاللو في نيويورك. وفي 14 أيلول/سبتمبر 1901 ترك ماكينلي كرسي الرئاسة لنائبه ثيودور روزفلت، وانتقل إلى جوار ربّه.

بعد ثمانية أيام فقط أعمت وفاته كثيراً من الناس عن أخطائه. ومع ذلك، فإن هذا الرجل المسالم بطبيعته والمنحاز بأخلاقه، قد جرَّ الدولة الأميركية إلى حرب لا فائدة منها ضد إسبانيا، وكانت بالفعل دولة ضعيفة لا تريد القتال.

وقد أثير موضوع استعادة كوبا خلال الفترة الثانية لرئاسة كليفلاند. وكان كليفلاند قد عالج الموضوع بطريقة رجل الدولة، محاولاً إيجاد حل مشرف وسلمي في الوقت الذي يظل فيه متمسكاً بإعلان مونرو، وقد قاوم بشدّة أولئك الدين كانوا يدعَون إلى التدخل.

وكانت إسبانيا قد حكمت كوبا بيد من حديد طوال أربعمائة سنة. وفي سنة 1896، ثار الشعب الكوبي ضد إسبانيا، وتأثرت أميركا كثيراً من الثورة التي كانت قريبة جداً من شواطئها، ومن أسباب ذلك أن أميركا كانت تتعاطف بشكل طبيعي على أي شعب يرغب في التحرر. ومما لا شك فيه أن ذلك يعود إلى أن أميركا كانت ذات يوم في ذات المركز الذي كانت فيه كوبا.

ولما ترك كليفلاند منصب الرئاسة، حذّر ماكينلي من أخطار الإصغاء إلى أولئك الذين يودون التدخل. وقد وافق ماكينلي في البداية، ولو أنه كان أميناً لهذا الإتفاق، ورجع إلى سكان بلاده لكان الشعب قد أيده، ولكنه لم يعط للشعب القيادة التي يحتاج إليها، فتحوّلت البلاد نحو دعاة التدخل، فسمحت بذلك باندلاع نار الحرب ضد إسبانيا.

وقد اقترن اسمه بقانون «حماية التعرفة» الذي سنّه ماكينلي في سنة 1890، ذلك القانون الذي شعر الكثيرون بأنه قد ساهم في أزمة العام 1893. وفيما عدا ذلك، فإن حياته العامة لم تكن مرموقة، قبل أن يصبح رئيساً. وقد تميزت إدارته، أثناء توليه منصب حاكم ولاية أوهايو ولفترتين معاً امتدتا من سنة 1891 وحتى سنة 1895، بلا أي إنجازات.

هذا، وقد نجح السناتور ماركوس. أ. حنّا، وهو رجل أعمال ثري من ولاية أوهايو في القيام بحملة تبرعات ضخمة لانتخاب ماكينلي رئيساً. وكان ماكينلي صورة طبق الأصل عن السياسي التاجر، وقد قال أحد الذين يتكلمون عن خبرة بأنه ما كان ليتردد في التضحية بصديق ضعيف في سبيل إرضاء عدو قوي.

وفي الوقت الذي جرى فيه انتخابه، كانت البلاد تعاني من إحدى أزماتها الموقوتة، وقد أقنع حنا الناخبين بأن وضع النقد على أساس الذهب، يمكن أن ينقذ الوضع، وبغير ذلك لا يمكن حدوث تحسن. وكان وليم جينينغ برايان الذي خسر الانتخابات مرتين أمام ماكينلي يفضل وضع النقد على أساس الفضة وليس الذهب. وقد قاوم برايان في انتخابات سنة 1900 دعاة التوسع، ولكن الوقت كان متأخراً، فقد ربحت أميركا حربها ضد إسبانيا، واستولت أميركا على مستعمرات بعيدة خاصة بها، وفوق هذا كله، كانت أميركا تستمتع بالثراء الكاذب الذي تجلبه الحروب

دائماً. وكانت هزيمة برايان تعني أن الشعب يحبذ التوسع والتعرفه العالية واستناد العملة على أساس الذهب، الأمر الذي أُقر رسمياً في شهر آذار/ مارس سنة 1900.

والدول الحديثة، بعد أن تقرر الدخول في الحرب، تنتظر عادة وقوع حادثة ما، وفي الحرب الإسبانية - الأميركية، كانت تلك الحادثة، إغراق السفينة الحربية ماين وفقد أرواح 280 شخصاً، ولم يكتشف أحد الطريقة التي نُسفت بها هذه السفينة، وطبيعي أن يقرّر بعض الناس، أن الحادث كان مؤامرة مدبرة من إسبانيا، غير أن الناس الأكثر تفكيراً لم يكونوا على هذا القدر من التأكيد.

وثمة حادثة أخرى زادت من حمى الحرب، هي رسالة بعث بها سفير إسبانيا دي لوي ينتقد بها ماكنلي إلى صديق له في أوهايو. ولما صودرت هذه الرسالة، استقال دي لوي، ولكن الشعب الأميركي كان قد أفهم بأنها تعني السياسة الحقيقية لإسبانيا.

وقامت الحكومة الإسبانية بكل ما في وسعها لتمنع الحرب، وفي اليوم الذي سبق طلب الرئيس إلى الكونغرس إعلان الحرب، أبرق الوزير الأميركي من مدريد يقول إن الحكومة الإسبانية مستعدة لتسليم الجزيرة. ولكن ماكينلي تجاهل البرقية، وأعلن الحرب في التاسع عشر من شهر نيسان/ أبريل سنة 1898.

هذا، وقد لاقى أكثر من 54,000 أميركي حتفهم في هذا النزاع، ومات معظمهم تقريباً من انتشار الأمراض. ولكن الحقيقة الكاملة قد كُشف النقاب عنها فيما بعد، وهي أن حكومة ماكينلي لم تكن مهتمة فقط بحريات جارتها الضعيفة كوبا. إذ أن أميركا رغبت في إحتلال مركزها في النظام الاستعماري، ومن أجل حماية مصالحها المترامية الأطراف، ولكي تحصل على قواعد بحرية في كل مكان على وجه الأرض، قد أرادت الحصول على جزيرتي بور توريكو وغوام وذلك المركز الذي لم يذكره أحد من قبل، الفيليبين. وقد استطاعت أميركا الاستيلاء على الثلاثة كنتيجة للحروب. وأخيراً، دفعت أميركا إلى إسبانيا مبلغ عشرين مليون دولار تعويضاً لها عن الفيليبين التي أصبحت جزءاً من الولايات المتحدة، ومُنحت الإستقلال التام سنة 1946[1].

(1) «موسوعة الإمبراطورية الأميركية»، ج «قاموس الشخصيات الأميركية»، د. صالح زهر الدين، المركز الثقافي اللبناني، 2004. ص 172 ـ 175.

عبد الرحمن الكواكبي
(1854 - 1902)

عندما أطلق منصف المرزوقي قبل أعوام، اسم «الإستقلال الثاني» على كتاب يشرح فيه الاستبداد ويتحدث عن الديمقراطية لم يجل في خاطره أن يتم توظيف واستعمال هذا العنوان من قبل أطراف عدة، لا علاقة لها بتصوره للديمقراطية، بل وأن تتم مصادرته منه من قبل إدارة أميركية متطرفة، مباشرة أو عبر مهرجيها ومروجيها. لكن ألم توظف كلمة الإشتراكية من قبل أنظمة الحزب الواحد المتعفنة بيروقراطياً؟ ألم تستعمل القيم الكبرى من قبل ألد أعدائها؟ ألم تختزل النازية الحضارة الأوروبية في تفوق الآري كما اختزلت كنيسة القرون الوسطى رسالة السيد المسيح في صكوك الغفران؟

سوء الاستعمال والتوظيف جزء لا يتجزأ من طبائع النفس. والأفكار العامة قابلة للاحتواء، بقدر ما هي مجردة وبعيدة عن دينامية الحياة ومطرقة الذهن وسندان الواقع. فما زالت التعاريف عائمة وهائمة كونها حمالة أوجه. ألم نشهد ذلك جلياً في تسمية الإرهاب مقاومة والمقاومة إرهاب؟

الجديد في الحركة الفكرية النقدية في المجتمعات العربية اليوم أنها في عملية استجواب ومساءلة للذات والآخر، للممارسة والأفكار. لقد شبعت من التقليد والتبليد. لم تعد تعيش ترف التسطيح العام للأفكار والبرامج، بل صارت بحاجة للتعمق في الإنتاج كوسيلة وحيدة لصيرورة التفاعل الحقيقي مع مجتمعاتها دون مداهنة أو نفاق.

ـ الإستقلال الأول والفشل الأول:

لم تولد النهضة العربية في رحم تغيير عاشه المجتمع العربي بأولوياته الداخلية. وإنما في سيرورة عملية اغتصاب غير كاملة تعرض لها باتصاله بأوروبا. هذه التي لم تدخله محررة، بل مهيمنة بالبضاعة والمدفع والمطبعة. برموز البرجوازية الأوروبية المتجسدة في الثورة الصناعية والاستعمار بأشكاله المتتابعة وعصر التنوير.

رغم طابعه السلبي والتعسفي، شكل ولوج الرأسمالية نقلة تاريخية نحو تفريد قطاعات واسعة من السكان انخرطت في المهن «الغربية» الجديدة في المدن. إلا أن النهضة لم تواصل مسيرة التنوير، إذ اكتفت بتحويل الأفكار والنظريات المطروحة في المخبر المجتمعي ـ الثقافي في الغرب ـ في معمعان تناقضاته وصراعاته ـ إلى إيديولوجيات. لقد تعاملت مع الداروينية والإشتراكية والديمقراطية والحداثة بوصفها وصفات جاهزة. في حين أنها مادة استعمال تتطلب عملية إعادة تعرف نقدية صارمة تسمح بإنتاج معرفي ينبع مباشرة من الصراعات المعاشة.

عالجت النخب نفسها على حساب الحركة المجتمعية. فعاشت

أوروبا بل كانت في أوروبا أكثر منه في نهضة عالمية بمقومات عربية. بين انفصامها عن المجتمع وتواصلها مع العالم الخارجي عززت طابع الغربة عن المجتمع، غربة أكملها البعض بوقوفه في صف الدولة التسلطية الحديثة، القامع اليومي لمجتمعه.

كانت الثورة الفرنسية المثال الأهم للثوريين العرب، وكانت النهضة أيضاً فرصة تاريخية لعودة الأقليات إلى التاريخ السياسي كطرف فاعل فيه. وانعكس فشل النخبة في التفاعل مع الجماهير الواسعة في تداخل مأساوي بين الحداثة واستقصاء الجمهور. هذا الجمهور الذي انتقم من عملية استقصائه بانكفاء على الذات وعلى الماضي، رافضاً الحاضر الذي يحوله إلى قطيع للمستبد الحديث. فقد سقطت السلطة الثقافية الجديدة والسلطة السياسية الجديدة كلاهما في امتحان المشاركة والديمقراطية. كما وجدت النخب العسكرية والمدنية في السلطة الدكتاتورية الطريق الأقصر إلى ثورتها. كانت تظن أنها تحرق المراحل، فحرقت مجتمعاتها وبقيت المراحل.

في فشل السلطة التسلطية بعد الكولونيالية وفشل النهضة الثقافية المجهضة والمخنوقة من الحكومات ما جعل من التجهيل البرنامج السياسي الوحيد موضوعياً خلال عقود. برنامج يعيدنا لأيام سقوط الرجل العثماني المريض: كل العيون تطمع في الغنيمة وكل الأطراف تشعر بالحق الطبيعي في التدخل. ألا يقول المثل الشعبي: «المال الداشر (المباح) يعلّم الناس السرقة»! لكن المشكلة أن المال ثروات طائلة والسارق محترف.

ـ تحطيم المجتمع وتجهيل الناس:

ها نحن جيل يحمل كل ميراث الهزيمة المبكرة للإستقلال الأول والنهضة الأولى، أحياناً ببعض الدروس وأحياناً دون الخروج بأي درس. فالمجتمع مكسور الجناح والمعارضة السياسية مستأصلة الرئة. كما أن أزمان التجهيل وسيطرة الخطاب الإيديولوجي على الصحافة والتعليم، إضافة لاشمئزاز الناس من التزلف واحتقار الذات والخوف الدائم في تعاملهم مع جملة أساليب التواصل التي فرضتها الدكتاتوريات عليهم، كلها عوامل وغيرها خلقت عزوفاً عاماً عن القضايا المدنية والمواطنية والوطنية. بحيث دفع أكثر من جيل ثمن التدنيس المنظم للوعي.

مثل هذه المخاوف كانت سائدة في الفكر الغربي منذ أيام أرسطو. لقد اكتسبت أهمية جديدة بعد قيام الثورة الفرنسية وما ارتكبته في حق الطبقات العليا. ثم ازدادت بعد ظهور الفكر الماركسي والحركات الإشتراكية التي أخذت تنادي علناً بحق الفقراء في الاستيلاء على السلطة تحديداً لإنهاء هيمنة الطبقات الغنية. وهكذا أصبح ما كان بالأمس خطراً يتخوف منه المنظرون مطلباً ينادي به المنادون ويؤكدون مشروعيته.

ـ في لبنان الإستقلال، في مصر كفاية وفي سورية كرامة:

تلخصت نظرية الجنرال حافظ الأسد في الحكم بضرورة الاعتماد على العصبيات التقليدية في أجهزة الأمن المختلفة والقوات المسلحة الخاصة. ذلك لضمان ولاء أجهزة القمع المباشر وغير المباشر، ثم معالجة الملفات السياسية على نار هادئة. لقد كان لديه

كامل الثقة بصلاحية أسلوبه لكل مكان وزمان. لذا لا يستغرب اعتماد نفس العقلية في إدارة الأوضاع اللبنانية.

إلا أن اغتيال الرئيس الحريري في 14/ 2/ 2005 ثم تظاهرة استقالة الحكومة، سجلت ثلاثة دروس تتعدى الحدود:

1 ـ فشل النهج الأمني في إدارة الحياة السياسية وبناء إقتصاد تنموي ومؤسسات دولة قانون على ضفتي الحدود السورية ـ اللبنانية.

2 ـ غياب الدينامية عن متكلسي الفساد والاستبداد بحيث لم يروا أن ما كان ورقة جيوسياسية محتملة قبل خمسة عشر عاماً ـ الوجود السوري في لبنان ـ أصبح ورقة خاسرة بكل المعاني.

3 ـ أن النضال السلمي هو أضمن الوسائل للانتقال الديمقراطي وإعادة صياغة الخطاب الوطني. وأن أبناء البلد، وليس الدبابة المحتلة، هم أقدر الناس على تحقيق هكذا انتقال في الفكر والممارسة.

من نصائح حكماء العرب والفرس للسلاطين والحكام منذ الدولة الساسانية إلى الدولة العباسية أن لا يتركوا لمن بعدهم عجزاً مالياً كبيراً أو نقمة شعبية أكبر أو ارتباطاً مبالغ فيه للسلطة بشخصهم. لم يسمع أو يشأ أن يأخذ الجنرال الأسد بهذه النصائح، فأسرف في تفصيل الدولة على مقاس سلطته، ناسياً أن خلافته، لابنه أو لغيره، لن تكون يسيرة. من الصعب إلباس الثوب لشخص آخر. خاصة وأن مادة الطاعة الوحيدة عند الأجهزة الأمنية تنبع من

عنصرين: الأول موضوعي، يتعلق بأمن الجماعة الحاكمة بالمعنى العشائري والطائفي، والثاني ذاتي، يقوم على الاستزلام الشخصي.

ـ عبد الرحمن الكواكبي في سطور:

في العام 1902 اغتيل المفكر العربي عبد الرحمن الكواكبي مسموماً.

ولد الكواكبي عام 1854 في مدينة حلب لأسرة اشتهرت بالعلم، ودرس في مدارسها حتى أتقن العربية والتركية وعلومهما. منذ تفتح وعيه توجه الكواكبي إلى الصحافة والكتابة، فحرر جريدة «فرات» ثم أصدر «الاعتدال» و«الشهباء»، وذلك بالتوازي مع تقلبه في العديد من الوظائف الحكومية.

ـ النشأة:

إن مدينة حلب كانت في السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر صورة مصغرة لما يحدث في الإمبراطورية العثمانية كلها. فيها والٍ عثماني صغير ممثل للسلطان العثماني الكبير الوالي عارف باشا. وفيها أيضاً صوت صغير يشكو من ظلم الوالي، صوت رجل عادي، عادي جداً اسمه عبد الرحمن الكواكبي.

عاش الكواكبي في مدينة حلب منذ ولد. لقد ماتت أمه وهو في السادسة من عمره. ولكن أباه استطاع أن يعلمه كما يتعلم أي طفل في تلك الأيام، اللغة والدين.

وعندما وصل عبد الرحمن الكوكبي إلى سن العشرين أصبح يتكلم: الفارسية، والتركية بالإضافة إلى العربية، وبالإضافة إلى دراسة الكتب الدينية، والتاريخية، وقوانين الدولة العثمانية.

ـ القاهرة عام 1900:

تعرض الكواكبي في حلب للاضطهاد، فاضطر للسفر إلى مصر التي كانت مركز استقطاب قادة المعارضة في العالمين العربي والإسلامي. ومن هناك قام برحلة إلى بلدان أفريقيا الساحلية الشرقية وجزيرة العرب وصولاً إلى الهند. وكانت غايته دراسة أحوال المسلمين، حيث خلص إلى أن بؤسها يعود إلى حرمان الأمة من حرية القول والعمل والجهل المطبق ولا سيما في أمور الدين وتشوش الإدارة المركزية والتخلف عن ركب الحضارة وعدم مجاراة الزمن والفقر العام وعدم الاهتمام بتعليم النساء وفساد الأسرة وتفسخ الأخلاق.

بعد انتهائه من رحلته عاد الكواكبي إلى مصر، حيث شرع يكتب في محاولة الإصلاح. ولقد جلبت له كتاباته شهرة كبيرة، وجعلت المفكرين يتجمعون من حوله، وهو ما جعل له مكانة الأستاذ بينهم، خاصة أن المقالات التي راح ينشرها في «المؤيد» كانت تلقى أصداء كثيرة. وكان عبد الرحمن الكواكبي في قمة مجده ومحاولاته الإصلاحية حين توفي بشكل مباغت، ويرى البعض أنه مات مسموماً.

والفصول التي نشرتها جريدة «المؤيد» في القاهرة ـ وهي غريبة في اللهجة والأسلوب والموضوع ـ فصول مشبعة بالصراحة والجرأة، وكانت مجهولة التوقيع. للوهلة الأولى اعتقد قراء الجريدة بأن الذي كتبها هو الشيخ محمد عبدو.

مستحيل. فصحيفة «المؤيد» هي لسان حال الخديوي عباس

الثاني، الذي بدأ يختلف مع الشيخ الإمام وإن الشيخ علي يوسف صاحب «المؤيد» علاقته بالشيخ محمد عبدو سيئة.

هكذا بدأ الجمهور يتساءل عندما بدأ الكواكبي بنشر مقالات عن طبائع الاستبداد في صحيفة «المؤيد» بالقاهرة. فمنذ وصول الكواكبي إلى القاهرة عام 1899 توثقت علاقته بالشيخ علي يوسف بواسطة صديق مشترك هو رشيد رضا مفكر سوري آخر هاجر إلى مصر، وبعد أيام قليلة من وصول الكواكبي إلى القاهرة بدأت مقالاته الغريبة تنشر في «المؤيد» والتوقيع مجهول.

وفي العام 1900 جمع الكوكبي مقالاته في كتاب، وحتى عندما فعل ذلك لم يوقع باسمه.

إن الكتاب كان له عنوان غريب هو: «طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، وهي كلمات حق وصيحة في واد، إن ذهبت اليوم مع الريح فقد تذهب غداً بالأوتاد»، محررها الرحالة (ك).

ـ الآستانة عام 1901:

قصر السلطان

كتاب الكوكبي «طبائع الاستبداد» قيد البحث.

من الناحية المبدئية يمنع هذا الكتاب وأي كتاب آخر للكواكبي من التداول. أمر سلطاني يبلغ إلى جميع الولايات في الإمبراطورية العثمانية.. هناك عقوبات أخرى في الطريق.

إن الكواكبي هاجم السلطان بهدوء، إذن.. سيعاقبه السلطان بهدوء أيضاً عقاباً صارماً.

إن السلطان هو الذي يبحث المسألة شخصياً. هذا طبيعي ففي السجن تستطيع أن تجد دائماً أن أكثر الناس قلقاً هو السجان. إن السلطان مرتعش مرتعد، خائف، إنه خائف عل نفسه وعلى سلطته. إنه مهزوم أمام الدول الأجنبية، مهزوم أمام العدو الأجنبي، فلا أقل من أن ينتصر عل مواطنيه كبديل وتعويض. إن السيف وحده هو الذي يضمن له الإنتصارات على مواطنيه. السيف هو السلاح الوحيد الذي يجعل السلطان مطمئناً على سلطته. إن السيف مخيف وصاحبه خائف. وعندما يخاف السلطان من مواطنيه فإنه يطلب راحة وليس نقداً، صمتاً وليس فكراً. إن أي صوت يهز أمنه وأي هزة تقلب سفينته. ولأن الرياح عاتية والسفينة مملوءة بالثقوب تتسرب المياه إليها.

إن العدو أصبح الآن داخل السفينة. العدو الآجل هو شعب بأكمله. والعدو العاجل هو كتاب بمفرده. إذا كان الكوكبي قد أصدر هذا الكتاب متنكراً فإن السلطان سوف يعاقبه متنكراً أيضاً. إذا كان الكوكبي يملك قلماً، فإن السلطان يملك سيفاً، إن القلم يكتب، يناقش، يرد، يعترض. ولكن السيف لا يناقش ولا يفكر. إنه يقتل فقط.

وبالنسبة للكواكبي لم يكن السؤال هو: أيعاقبه السلطان أم لا؟ سيعاقبه ليس السؤال: أكون العقاب خفيفاً أم حازماً؟ سيكون حازماً. ليست المشكلة أيكون العقاب بطيئاً أم سريعاً؟ سيكون سريعاً. ولكن السؤال هو: كيف يكون هذا العقاب؟ هل يتم العقاب في صمت وحذر؟ وبغير أي دليل يشير إلى فاعله؟ كيف.. كيف..

ـ **الإسكندرية عام 1902:**

قصر الخديوي إسماعيل

«. . يا كواكبي، أريد أن أستشيرك في أمر يخصك، إني أستعد للسفر إلى الآستانة لأجدد فروض الطاعة لمولانا السلطان. . لماذا لا تحضر معي لاستجلاب رضا السلطان عنك. . ».

هذه هي الفكرة التي قالها الخديوي للكواكبي عندما استدعاه في الإسكندرية. لقد خرج الكواكبي من القصر وهو يرى شيئاً مريباً في الأمر. لا يمكن أن تكون هذه فكرة الخديوي، لا يمكن أن تكون الفكرة بهذه البساطة.

وعندما سأل الكواكبي صديقه محمد كرد علي عن رأيه قال له: إن السلطان لا تأخذه رحمة بالذين يخرجون عليه. لقد أغرى جمال الدين الأفغاني من قبل بالذهاب إلى الآستانة وحينما ذهب الأفغاني اكتشف أنها خدعة. إن السلطان جاء به إلى الآستانة ليراقبه. . ليحد من نشاطه ليجعله حياً كالميت.

اعتذر الكواكبي عن عدم السفر مع الخديوي إلى السلطان. إذن لم تنجح هذه الحيلة.

ـ **القاهرة 1902:**

مقهى يلدز في حديقة الأزبكية

ـ يا كاظم هات لي كوباً من الماء، بسرعة يا ولدي. .

ـ ماذا بك يا أبي.

ـ لا شيء يا بني. . مجرد آلام بسيطة. . هات لي الحنطور. . أريد أن أعود إلى البيت. . إلى الأزهر يا أسطى. . إلى شارع الإمام الحسين بالأزهر. وفي الطريق كان الابن قلقاً والأب يفكر كثيراً. . ماذا جرى لك يا كواكبي؟ لقد اعتدت أن تجلس في مقهى يلدز منذ سنتين. واعتدت أن تشرب فيه القهوة السادة في كل مرة! لماذا؟ لماذا؟ لماذا إذن كانت القهوة غريبة المذاق هذه المرة؟ لماذا يا كواكبي؟ إن الفنجان كان طعمه غريباً. . وهذه الآلام حلت بك بعد فنجان القهوة بنصف ساعة فقط. . ماذا جرى؟. اللهم اجعله خيراً.

ـ حي الأزهر شارع الإمام الحسيني: الخميس 14 تموز/يوليو/ 1902:

بمجرد وصول الكواكبي إلى منزله في هذا المساء بدأت الآلام تطارد جسمه جزءًا جزءًا. . من الأمعاء إلى القلب، إلى الصدر. بعد قليل أصبح واضحاً بالضبط ماذا يجري. بعد قليل أصبح كاظم ـ ابنه ـ يعرف بالضبط سر الخطر. ولكن الابن يتساءل بينه وبين نفسه: لماذا اختار السلطان أن يقتل الكواكبي بالسم وليس بأي سلاح آخر؟

ولم تكن الإجابة صعبة. إن الكواكبي فضح في كتابه استبداد السلطان جزءًا جزءًا. . لهذا أراد السلطان أن يجعل جسم الكواكبي يموت قطعة قطعة. إن السم وحده يضمن ذلك، إنه الآن يسري في جسم الكواكبي بوصة بوصة. . إن الكواكبي كان جريئاً. . وكانت جرأته في عقله. الآن يجري السم في دمائه. هذا عقاب السلطان. عقاب تحت الجلد. عقاب بطيء، وعذاب بطيء.

إن الكواكبي يحاول الآن أن يتحدث مع كاظم، مع ابنه. إنه يقول له بصوت عال يتجه إلى الانخفاض شيئاً فشيئاً: يا بني استدعِ لنا طبيباً فوراً.. دكتور بسرعة. دكتور بس.. دكتور... دكتور... مات الكواكبي.

ـ حي الأزهر: منزل الكواكبي في اليوم التالي لدفنه:

شيء غريب! كيف استطاع السلطان عبد الحميد وهو في قصره بالآستانة أن يعلم بوفاة الكواكبي بمثل هذه السرعة؟ كيف استطاع خبر إتمام المهمة أن يصل إليه في مثل هذا الوقت الضيق؟.

لقد أرسل السلطان إلى مندوب له في بيروت بأن يهبط سريعاً إلى القاهرة. هناك سيجد أن الكواكبي قد مات. هناك سيقابل أناساً آخرين يمثلون السلطان. إن على الجميع أن يذهبوا فوراً ـ مع أقصى الحذر ـ إلى بيت الكواكبي. إن السلطان يريد مصادرة كل الأوراق التي كتبها الكواكبي بخط يده. هذه الأوراق يجب أن ترسل فوراً إلى السلطان عبد الحميد شخصياً في قصر يلدز بالآستانة. السلطان نفسه ينتظرها. إن المهم هو السرعة، قبل أن يظهر أي دليل يشير إلى علاقة السلطان بوفاة عبد الرحمن الكواكبي. ولكن عندما ذهب جنود السلطان إلى بيت الكواكبي بعد يوم واحد من دفنه وجدوا مفاجأة جديدة في انتظارهم.

فمن بين الأوراق والكتب التي تركها الكواكبي بعد وفاته، وجد كتاب كان قد بدأ تأليفه ولم ينته منه بعد. وكان يحمل عنواناً بسيطاً يقول «العظمة لله».

إن الكواكبي ـ حتى وهو ميت ـ ما زال محتفظاً برأيه. الله وحده هو العظيم.

ـ بعض أفكار الكواكبي:

أما في بلاد الشام فالأفكار التنويرية بالنسبة للمرأة أطلقها بعض المفكرين النهضويين المسيحيين، وبخاصة في لبنان، في حين نلاحظ أن كتابات أحد أهم النهضويين في المشرق والعالم العربي الشيخ عبد الرحمن الكواكبي، الذي كان يمتلك فكراً تحليلياً ورؤية ثاقبة، حللت الاستبداد وآثاره، في اثنين من أهم ما كتب عن الاستبداد في الوطن العربي حتى اليوم، نظر إلى المرأة نظرة فيها من الإجحاف والظلم، ما يدهش القارئ لآثاره، ويجعله يقف طويلاً محاولاً تفسير هذا التناقض في الفكر النهضوي لدى مفكر، والذي يمكن إرجاعه على الأغلب إلى الأسباب التي ذكرناها سابقاً، وبخاصة أنه عاش حياته كلها في حلب وكتب فيها كتابيه الشهيرين، حيث سافر بعدها إلى مصر، وقتل مسموماً على أيدي السلطات العثمانية التي شعرت بخطره وجهدت لإسكاته. وأزعم أنه لو أتاح القدر للكواكبي أن يكتب بعد هربه من حلب إلى مصر، لتغيرت بالتأكيد آراؤه تجاه المرأة.

فهو في كتابه «طبائع الاستبداد» يتهم النساء بأنهن اقتسمن مع الذكور أعمال الحياة قسمة ضيزى، وتحكمن بسن قانون عام، جعلن نصيبهن به هين الأشغال بدعوى الضعف، ونوعهن مطلوباً بإيهام العفة، وجعلن الشجاعة والكرم سيئتين فيهما، محمودتين في الرجال، وجعلن نوعهن يهين ولا يهان، ويظلم أو يظلم فيعان،

والحاصل أنه قد أصاب من سماهن بالنصف المضر[1].

أي أنه بتحليله الدقيق العلمي الرائع لأسباب تخلف العرب، ودعوته لنهوضهم، لم يكن على نفس القدر من العلمية والموضوعية في حديثه عن النساء، لكنه رغم ذلك يدعو في كتابه الآخر «أم القرى» إلى تعليم النساء، مبيناً أن أحد أسباب الانحلال تركهن جاهلات، مبيناً أن ضرر جهل النساء وسوء تأثيره في أخلاق البنين والبنات أمر واضح غني عن البيان. إلا أنه دعا في نفس الوقت إلى أن «بالحجب والحجر الشرعيين» للنساء في البيوت إغلاق باب الفجور وإفساد الحياة الشريفة[2].

ولم يكن رأي النهضوي الحلبي فرنسيس مراش، بأفضل من رأي الكواكبي، فقد طالب بقصر تربية المرأة على دائرة التعليم الأولى، فالدراسة المتعمقة للعلوم تؤدي إلى نتائج غير مرغوب فيها، لأن ذلك سيوقظ فيها الميل إلى الحرية والرغبة في الاقتداء بالرجل، فتهمل واجباتها المنزلية وأطفالها، وربما يعن لها أن تضع نفسها فوق الرجل.

---

(1) **«طبائع الاستبداد»**، عبد الرحمن الكواكبي، ص71.

(2) **«أم القرى»** عبد الرحمن الكواكبي، ص 178 ـ 180.

بطرس غالي
(1846 ـ 1910)

قالت العرب في أمثالها: «الملك عقيم»، بما يعني أن شواهد التاريخ لا ترى للسياسة نسباً أو تعرف لها صهراً، فالسياسة لها قواعدها التي تحكمها، وما يغلفها من عوامل أخرى ما هي إلا للتسويق وإخفاء الوجه الحقيقي للسياسة التي لعن لفظها وجميع مفرداتها الإمام محمد عبده.

والمتابع لتاريخنا يلحظ أن بعض الأحداث جاءت مشوهة، حيث كان الخطاب الأيديولوجي الفاقع هو سيد الموقف، ويتم تفسير الأحداث والمواقف على أرضية «نحن.. وهم» وليس على أرضية المشتركات وعوامل التلاحم، ومن تلك الأحداث التي عايشتها مصر كان حادث اغتيال رئيس الوزراء المصري القبطي بطرس غالي على يد أحد شباب الحزب الوطني.

ـ نشأة بطرس غالي:

ولد بطرس غالي في بلدة الميمون بمحافظة بني سويف سنة

1846 وكان أبوه موظفاً، والتحق في صغره بأحد الكتاتيب كغيره من المصريين حيث تعلم مبادئ القراءة والكتابة، ثم التحق بالمدرسة القبطية بالقاهرة[1]، ثم انتقل إلى مدرسة البرنس مصطفى فاضل، وكانت تلك المدرسة تهتم بتدريس اللغات فأتقن الإنجليزية والتركية. وكان يتمنى العمل في مصلحة سكك الحديد، وكانت من الهيئات المعتبرة في مصر في ذلك الوقت، ولذا نظم قصيدة في مدح رئيسها عمر لطفي، وما لبث أن عُين مدرساً في المدرسة القبطية بالقاهرة، لكنه سافر بعد ذلك في بعثة إلى أوروبا لتلقي تعليمه العالي هناك.

وعندما عاد بطرس من أوروبا عمل في الترجمة بالإسكندرية، في مجلس التجارة بشعبة الضرائب، ووضع كتاباً في المسائل المالية كان من أشهر الكتب في ذلك التخصص في تلك الفترة، وقد تنبأ له المندوب الإنجليزي في صندوق الدين ريفرز ويلسون بأنه سيكون وزيراً لمالية مصر.

وعندما قامت الثورة العرابية في مصر بقيادة أحمد عرابي كان بطرس من المنادين بمفاوضة الخديوي، ولذا اختير ضمن مجلس المفاوضة بعد هزيمة العرابيين في معركة التل الكبير للتفاوض مع الخديوي باسم العرابيين، وكان بطرس غالي هو أول من يحصل على رتبة الباشوية من الأقباط، وكان الزعيم الوطني أحمد عرابي هو من توسط له للحصول على هذه الرتبة.

---

(1) محمود متولي، «مصر والاغتيالات السياسية» ـ دار الحرية ـ القاهرة ـ الطبعة الأولى ـ 1985.

وقد صعد نجم بطرس غالي سريعاً، ففي العام 1893 تولى وزارة المالية إبان بداية عهد الخديوي عباس حلمي الثاني في وزارة رياض باشا التي استمرت حوالي عام، ثم لم يلبث أن أصبح وزيراً للخارجية في الوزارة الثالثة التي شكلها مصطفى فهمي باشا، والذي كان يعتبر رجل الإنجليز في مصر، واستمر في وزارة الخارجية ثلاثة عشر عاماً، من 12 تشرين الثاني/ نوفمبر 1885 حتى 11 تشرين الثاني/ نوفمبر 1908، وهي أطول فترة يشغلها وزير في هذا المنصب الكبير. وقد وصف زكي مجاهد صاحب كتاب «الأعلام الشرقية» بطرس غالي بقوله: «كان عالي الهمة، كبير المطامع، قوي الحافظة، شديد العارضة، وقد ارتقى إلى أسمى المناصب المصرية بجهده وقوة عقله، وكان يميل إلى المطالعة في ساعات الفراغ، وقد جمع مكتبة كبيرة، وكان يعرف اللغة الفارسية والتركية والقبطية والإنجليزية والإيطالية».

ـ بطرس ورئاسة الوزارة المصرية:

اشتهر بطرس بذكائه ودهائه الشديدين، لذا رأى البعض أن تعيين بطرس جاء متماشياً مع سياسة المهادنة التي كان يرغب الخديوي عباس في اتباعها مع الإنجليز، حيث إن بطرس كان على علاقة جيدة مع كل من الإنجليز والخديوي على حد سواء.

وعندما سقطت وزارة مصطفى فهمي باشا أسند الخديوي عباس حلمي الثاني رئاسة الوزارة إلى بطرس غالي، واستمرت هذه الوزارة منذ تشكيلها في 13 تشرين الثاني/ نوفمبر 1908 حتى اغتيال بطرس في 20 شباط/ فبراير عام 1910.

وكان تعيين بطرس غالي في رئاسة الوزارة المصرية بطلب من المعتمد السامي البريطاني في القاهرة جورست وبموافقة الخديوي عباس حلمي الثاني، ولذا سميت هذه الوزارة عند المصريين في تلك الفترة بوزارة الوفاق، أي التوافق بين كل من الإحتلال الإنجليزي وعباس حلمي، وأكد الخديوي عباس لجورست أن بطرس غالي مصرياً قبل أن يكون قبطياً، عندما تساءل جورست عن موقف المصريين في سابقة تعيين رئيس وزراء قبطي لمصر(1).

ويرى بعض مؤرخي تلك الفترة أن تعيين الإنجليز لبطرس غالي في هذا الوقت في رئاسة الوزراء كان مقصوداً، لضرب الحركة الوطنية المصرية التي اشتد ساعدها وبدأت تطالب بالإستقلال وزوال الإحتلال، ولذا فكر الإنجليز في زرع الشقاق بين عنصري الأمة من الأقباط والمسلمين لإدخال الحركة الوطنية في معارك جانبية بعيداً عن معركة الإستقلال والتحرر، ولعل ما يؤكد هذا التفسير هو أن العلاقات بين المسلمين والأقباط في هذه السنوات شهدت حالة كبيرة من التأزم والقلق، عبر عن نفسه في مؤتمرين كبيرين عقدا بعد اغتيال بطرس غالي بقليل وهما «المؤتمر القبطي» الذي عقده الأقباط، و«مؤتمر مصر الجديدة» الذي عقده المسلمون رداً على المؤتمر القبطي السابق.

ـ الأدوار التي لعبها بطرس غالي:

لعب بطرس غالي عدة أدوار في السياسة المصرية، واتسمت

(1) طارق البشري، **«المسلمون والأقباط في إطار الجماعة الوطنية»** ـ دار الشروق ـ الطبعة الرابعة ـ 2004.

كلها بالتعاون مع الإنجليز، ولذا لم يبد الشعب المصري أي نوع من الفرح لذهاب وزارة مصطفى فهمي وقدوم وزارة بطرس غالي، ولا يرجع ذلك إلى ديانة الرجل، ولكن إلى ماضي بطرس الذي اختزنت له مرارة الشعب المصري عدة أحداث، منها:

ـ إتفاق السودان:

عندما احتل الإنجليز مصر عام 1882 بعد فشل الثورة العرابية، شهد السودان قيام الثورة المهدية التي استطاعت أن تسيطر على السودان، وفي تلك الفترة قرر الإنجليز إعادة السودان إلى سيطرتهم في إطار حملة مشتركة تتحمل تكاليفها الخزانة المصرية، وأن يكون حكم السودان مشتركاً بين مصر وبريطانيا. وقد وقع اللورد كرومر المعتمد البريطاني في مصر على تلك الوثيقة عن الجانب البريطاني، ووقع عن الجانب المصري بطرس غالي، وتم توقيع إتفاق السودان في 19 كانون الثاني/ يناير 1899. وقد نص الإتفاق على اثنتي عشرة مادة كان مجموعها لا يعني إلا شيئاً واحداً هو فصل السودان عن مصر، حيث إن جميع سلطات السودان تتمركز في يد الحاكم العام للسودان وهو بريطاني الجنسية.

كما نص الإتفاق على أنه لا يجوز عزل هذا الحاكم إلا بعد موافقة الحكومة البريطانية، كما أن تشريعات القطر المصري لا تسري على السودان.

وبذلك لم يُعط هذا الإتفاق لمصر أي ميزة فعلية من المشاركة مع بريطانيا في إعادة فتح السودان، وتحملت مصر بمفردها تكاليف الحملة، وكانت المسؤولية ملقاة على مصر والسلطة في يد بريطانيا.

ورغم هذا الإتفاق المجحف في حق مصر فقد وافق بطرس عليه، رغم أنه كان يملك تقديم الاستقالة وإحراج بريطانيا في إبداء عدم قدرته على المضي مع أطماعها إلى نهاية الطريق، فقد أعطاها بموافقته حقاً في السودان دون أن تتحمل ثمنه، وأعطاها سلطة واسعة في إدارة السودان دون أدنى مسؤولية.

كما أن هذا الإتفاق قوض ممتلكات مصر في منطقة خط الاستواء في كل من أوغندا وعدد من الموانئ الموجودة على البحر الأحمر مثل زيلع وبربرة.

ويذكر اللورد كرومر في تقرير له عن حالة مصر والسودان أن السودان كان يبتلع الكثير من الأموال دون أن تكون هناك أية نتيجة، وأن إعادة فتح السودان يُعزى إليه إفلاس الخزانة المصرية، حتى إن مصر باعت في سبيل هذه الحملة البواخر الخديوية وعدداً من السرايات والحدائق والأراضي وكل ما استطاعت بيعه للإنفاق على هذه الحملة، ورغم هذه النفقات جاء إتفاق 1899 ليطيح بهذه النفقات والأرواح التي بذلت ويعطي السودان بلا ثمن لبريطانيا، وكان هذا الإتفاق بلا مثيل في العلاقات الدولية!!

وقد قابل الرأي العام المصري إتفاق الحكم الثنائي بغضب كبير، واعتبرته الصحافة المصرية سلباً للحقوق، ومقدمة لاستيلاء بريطانيا على السودان، ومن الطريف في هذا الإتفاق الشائن أن الحكومة المصرية قامت عقب هذا الإتفاق بتسديد أكثر من مائتي ألف جنيه من خزينتها إلى بريطانيا نظير عدد من الجنود والضباط الذين شاركوا في الحملة، ووصفت إحدى الصحف الفرنسية هذا الإتفاق بقولها:

«لقد وقع أمس أفظع اغتصاب في هذا الجيل وهو عقد الإتفاق الذي أبرم بين الغاصب القاهر والمغصوب العاجز، فقد وقع مجلس النظار المصري العقد المشؤوم لا تخلياً منه عن السودان مؤقتاً فحسب، وإنما تنازلاً عن ملكية أراضيه الفسيحة لإنجلترا».

ووصفت الصحف المصرية هذا الإتفاق بكلمة «الانتحار»، وكعادة المصريين في إطلاق النكات التي تعبر عن الرفض السياسي أو المعارضة السياسية، فعندما صعد بطرس إلى رئاسة الوزارة قال المصريون: إنه جاء ليسجل عقد بيع السودان بعد أن كان قد وقع العقد الإبتدائي في إتفاق السودان.

- رئيس محكمة دنشواي:

لعب بطرس غالي دوراً كبيراً في حادثة دنشواي التي كانت من النقاط السوداء التي سجلها التاريخ في حق الإنجليز أثناء إحتلالها لمصر، وملخصها أن عدداً من ضباط الجيش الإنجليزي خرجوا لاصطياد الحمام في قرية دنشواي فأصيبت إحدى السيدات بعيار ناري واحترق أحد الأماكن الذي يتم فيه تخزين القمح، فاستشاط أهالي القرية غضباً وهاجموا هؤلاء الإنجليز ففر البعض وتوفي أحدهم على أثر ضربة، فعقد الإنجليز محاكمة لتأديب أهالي القرية، ورأس هذه المحكمة بطرس غالي باعتباره قائماً بأعمال نظارة الحقانية في 23 تشرين الثاني/ نوڤمبر 1906، وقضت بالإعدام شنقاً لأربعة من الأهالي، وبالأشغال الشاقة مدداً مختلفة لعدد آخر، وبالجلد خمسين جلدة على آخرين، وتم تنفيذ الأحكام بعد محاكمة استمرت ثلاثة أيام فقط وأمام الأهالي.

ـ العمل بقانون المطبوعات:

صدر أول قانون للمطبوعات في مصر في 26 تشرين الثاني/ نوفمبر 1881 في عهد الخديوي توفيق، لكن هذا القانون لم يتم العمل به حتى اشتد ساعد الحركة الوطنية خاصة بعد حادثة دنشواي وحالة الغضب المكتوم التي اجتاحت الرأي العام المصري على هذه البشاعة التي تمت بها محاكمة دنشواي، ولذا طلب الإنجليز من حكومة بطرس غالي ضرورة عودة قانون المطبوعات مرة أخرى، فأصدر مجلس الوزراء في 25 آذار/ مارس 1909 قراراً بإعادة العمل بقانون المطبوعات الصادر في عهد الخديوي توفيق، وكان الهدف منه مصادرة الحريات ومصادرة الصحف وإغلاقها، وكان هذا القانون بمثابة وضع القيود على الأقلام، وتكميم أفواه الصحافة.

وقد زاد هذا القانون من سخط الوطنيين على حكومة بطرس غالي، ولذا اعتبر البعض أن بطرس مسؤول مسؤولية تاريخية عما حل بالصحافة الوليدة من كبت لحرياتها ومصادرة للصحف، وبلغ من غضب الوطنيين على هذا القرار أن قام محمد فريد زعيم الحزب الوطني بالذهاب إلى الخديوي عباس حلمي في نفس اليوم الذي صدر فيه ذلك القانون بعريضة احتجاج على ما قامت به وزارة بطرس غالي وقامت المظاهرات الرافضة لهذا التضييق والكبت لحريتها.

وقد أدى إغلاق منافذ التعبير أمام الحركة الوطنية والقمع الفكري والسياسي الذي تعرضت له إلى اللجوء للعمل

الوطني السري الذي كان مكاناً ملائماً لظهور العنف في العمل السياسي.

ـ تمديد إمتياز قناة السويس:

لعب بطرس غالي دوراً مشبوهاً في مشروع تمديد إمتياز قناة السويس الذي كان يهدف إلى تمديد العقد إلى أربعين عاماً أخرى، وذلك مقابل مبلغ من المال تدفعه الشركة صاحبة الإمتياز إلى الحكومة المصرية إلى جانب نسبة معينة من الأرباح تبدأ من سنة 1921وتنتهي سنة 1968.

وكان بطرس يجتهد لإخفاء مشروع القانون عن الصحافة والحركة الوطنية حتى يقوم بتمريره دون أي ضجة من الرأي العام المصري، ولذا ظل هذا المشروع محل تكتم مدة عام كامل، وقد اقترب بطرس من تحقيق غرضه لولا أن الزعيم الوطني محمد فريد استطاع الحصول على نسخة من مشروع القانون وقام بنشرها في جريدة «اللواء» في تشرين الأول/ أكتوبر 1909 وبدأت حملة من الحركة الوطنية وعلى رأسها الحزب الوطني في تعبئة المصريين ضد هذا القانون، خاصة أن إعطاء الإمتياز كان يعني أن تترك الشركة القناة للمصريين سنة 2008.

وكان من ذكاء الحركة الوطنية أنها طالبت بعرض مشروع هذا القانون الخطير على الجمعية العمومية لأخذ رأيها فيه، وكان معنى ذلك هو حشد الأمة المصرية ضد هذا القانون، وقد وافق الخديوي عباس حلمي على ذلك، وتم تحديد يوم 10 شباط/ فبراير 1910 لانعقاد الجمعية العمومية لمناقشة المشروع.

وفي تلك الجلسة حضر شخص يدعى إبراهيم ناصف الورداني وكان من أعضاء الحزب الوطني، وتأثر بما دار من مناقشات في تلك الجلسة وخرج منها عازماً على وضع حد ونهاية لمشروع هذا القانون يتلخص في اغتيال بطرس غالي.

وقد قام إبراهيم الورداني باغتيال بطرس غالي أمام وزارة الحقانية في الساعة الواحدة ظهراً يوم 20 شباط/فبراير 1910، حيث أطلق عليه ست رصاصات أصابت اثنتان منها رقبته[1].

ـ نتائج الاغتيال:

كان اغتيال بطرس غالي هو أول جريمة اغتيال في مصر الحديثة، وكان متزامناً مع نظر الجمعية العمومية لمشروع مد إمتياز قناة السويس، وكان الورداني شجاعاً للغاية، فقد اعترف بقيامه بقتل بطرس غالي لأنه في نظره خائن بسبب ما قام به في إتفاق الحكم الثنائي ومشروع قانون مد إمتياز قناة السويس، ورئاسته لمحكمة دنشواي، وقانون المطبوعات.

وعقب اغتيال بطرس تم ترقية ابنه نجيب غالي ليصبح وكيلاً لوزارة الخارجية المصرية، وحصل على رتبة الباشوية.

كان اغتيال بطرس غالي سبباً في إنشاء المكتب السياسي الذي كان يهدف إلى تعقب السياسيين وذوي الاتجاهات الوطنية، وكان

---

(1) زكي محمد مجاهد، «الأعلام الشرقية في المائة الرابعة عشرة الهجرية» ـ دار الغرب الإسلامي ـ بيروت ـ الطبعة الثانية ـ 1994.

أول رئيس لهذا المكتب هو فليبدس بك وهو شخصية يونانية تمصرت، وعرف عنها الفساد، حتى إنه سُجن بعد ذلك خمسة أعوام لجرائم تتعلق بالرشوة والفساد.

وتألفت عقب اغتيال بطرس غالي وزارة جديدة برئاسة محمد سعيد باشا وكان سعد زغلول فيها وزيراً للحقانية، فصودرت الحريات، ونفي محمد فريد إلى خارج مصر، كما تحالف الخديوي عباس حلمي الثاني مع الإنجليز وعادت سياسة الوفاق بينهما مرة أخرى.

ـ الاغتيال.. سياسي:

أما إبراهيم الورداني فقد كان وقت اغتياله لبطرس غالي شاباً في الرابعة والعشرين من عمره، ودرس الصيدلة في سويسرا، حيث عاش فيها عامين بدءًا من سنة 1906، ثم سافر إلى إنجلترا وقضى بها عاماً حصل خلاله على شهادة في الكيمياء ثم عاد إلى مصر في كانون الثاني/يناير 1909 ليعمل صيدلانياً. وكان عضواً في الحزب الوطني، وكان له ارتباط بجمعية مصر الفتاة. وبعد عودته لمصر أسس جمعية أسماها «جمعية التضامن الأخوي» التي نص قانونها على أن من ينضم فيها يجب أن يكتب وصيته.

وقد مثل الورداني أمام المحكمة في 21 نيسان/أبريل 1910 وكان يرأسها الإنجليزي دلبر وجلي، وكان من بين المحامين الذين حضروا للدفاع عن الورداني أحمد بك لطفي.

وعندما ألقي القبض على الورداني قال إنه قتل بطرس غالي

لأنه خائن للوطن، وإنه غير نادم على فعلته. واعترف أنه فكر في قتل بطرس عندما حضر جلسة المجلس العمومي، ورأى معاملة بطرس غالي الجافة لأعضاء المجلس، ومشاركته في محكمة دنشواي.

وقد كشف التحقيق مع الورداني وجود أكثر من خمس وثمانين جمعية سرية لم يكن للحكومة أي علم بها أو عنها.

وقد وجهت للورداني تهمة القتل العمد مع سبق الإصرار، وهي جريمة عقوبتها الإعدام، وانشغل الرأي العام المصري بالحادث انشغالاً كبيراً، حتى فشت في تلك الفترة خطابات التهديد التي كانت ترد إلى النظار (الوزراء) وكبار المسؤولين في الدولة.

وقد قام عبد الخالق باشا ثروت ـ الذي كان يشغل في ذلك الوقت منصب النائب العام ـ بالتحقيق في القضية، وقد ذكر في مرافعته أن الجريمة المنظورة أمام المحكمة هي جريمة سياسية وليست من الجنايات العادية، وأنها «بدعة ابتدعها الورداني بعد أن كان القطر المصري طاهراً منها»، وطالب بالإعدام للورادني، ثم أرسلت القضية إلى المفتي الشيخ بكري الصدفي لإبداء رأيه فيها، لكن المفتي أخذ بوجهة نظر الدفاع القائلة باختلال قوى المتهم العقلية وضرورة إحالته إلى لجنة طبية لمراقبته، إلا أن المحكمة لم تأخذ برأي المفتي، وكانت سابقة أن يعترض المفتي على حكم محكمة الجنايات برئاسة الإنجليزي دولبر وجلي، وفي يوم 18 أيار/مايو 1910 أصدرت محكمة الجنايات حكمها بالإعدام

على الورداني، وفي صباح يوم 28 حزيران/يونيو 1910 تم تنفيذ حكم الإعدام في الورداني[1].

وقد صدر قرار يُحرم على أي مصري الاحتفاظ بصورة الورداني وبقي هذا القرار سارياً حتى ثورة تموز/يوليو 1952.

ـ المواقف من الاغتيال:

لم يترك الإحتلال الإنجليزي حادثة اغتيال بطرس غالي تمر دون أن يستخدمها لزرع الشقاق بين عنصري الأمة المصرية من مسلمين وأقباط، وفي الإسراع للقضاء على الحركة الوطنية، فقد شنت الصحف الموالية للإحتلال وبعضها من الصحف القبطية هجوماً كبيراً على الحركة الوطنية واتهمتها بالتعصب الديني، ووصفت الاغتيال بأن وراءه دوافع دينية، ودعت إلى إيجاد فرق من الإحتلال تجوب المدن لحماية الأقباط، ودعت لإغلاق الصحف التي تحرض على كراهية الأقباط.

وأعلن بعض ذوي الاتجاهات المتطرفة من الأقباط عزمهم اللجوء لدولة قوية تكون عضداً لهم في المستقبل، وبذلك جعل هؤلاء من الحادث مأتماً قائماً، ودعوة للثأر والانتقام، ودعوة لأن يحكم الإنجليز مصر مباشرة، لأن الخديوي عباس في نظرهم كان يساند الحركة الوطنية، بل إن البعض دعا إلى إلغاء الجيش المصري وزيادة قوات الإحتلال.

---

(1) مصطفى النحاس جبر، «سياسة الإحتلال تجاه الحركة الوطنية (1906 ـ 1914)» ـ الهيئة العامة للكتاب ـ 1975م.

وقد عارض هذا الاتجاه عقلاء الأقباط الذين نفوا عن الحادث أي صفة دينية، ومن أمثال هؤلاء نصيف المنقبادي ومرقس حنا ومرقس فهمي وغيرهم. وقال مرقس حنا بأن التعصب إذا كان موجوداً فلا قضاء عليه إلا بالدستور، ودعا الأقباط إلى كتابة العرائض من أجل الدستور.

ويؤكد المؤرخ طارق البشري في كتابه «المسلمون والأقباط في إطار الجماعة الوطنية» أن اغتيال بطرس غالي أوجد نوعاً من الأسى والحزن في أوساط الأقباط على إعتبار أن الرجل كان أول قبطي يتولى هذا المنصب منذ تاريخ طويل في مصر، وأن بعضاً من مثيري الشقاق حاول استغلال هذا الحادث لإثارة الخلافات الطائفية، بالرغم من أن دوافع الاغتيال كانت سياسية، وهو ما أكده المعتمد البريطاني في مصر إلدن جورست من أن الباعث على قتل بطرس غالي لم يكن لثأر شخصي أو لتعصب ديني وإنما كانت جريمة سياسية، وكذلك ما أكده المحامي القبطي المعاصر للحدث «مرقص فهمي» من أنه إذا كان الورداني قتل بطرس غالي تعصباً فليس ذلك دليلاً على أن كل المسلمين أرادوا هذا القتل[1].

(1) عبد الرحمن الرافعي، «محمد فريد رمز الإخلاص والتضحية» ـ دار المعارف ـ القاهرة ـ الطبعة الرابعة ـ 1984م.

جاستون كالميت
(... ـ 1914)

في أوائل سنة 1914 كان الجدل السياسي في فرنسا على أشده حول مسألة الدفاع الوطني ونقص الاستعداد له وحول قانون الخدمة العسكرية، ففي ذلك الأفق المضطرب وقعت جناية سياسية إجتماعية كان لها أعظم وقع في فرنسا وفي جميع أوروبا.

ففي عصر يوم الاثنين 16 آذار/ مارس سنة 1914 قصدت مدام كايو زوجة الوزير والسياسي الشهير يوسف كايو إلى دار جريدة «الفيغارو» في وسط شارع الشانزلزيه، وكانت «الفيغارو» يومئذ من أشهر الصحف الباريسية وأشدها ذيوعاً ونفوذاً بين الطبقات الرفيعة وفي أوساط المال والسياسة.

وطلبت مدام كايو رؤية رئيس التحرير مسيو جاستون كالميت، وانتظرت ساعة حتى استدعيت لمقابلته، وما كادت تدخل إلى مكتبه حتى بادرته بإطلاق خمس رصاصات من مسدسها، فسقط أرضاً، وهرع الحاجب عند سماع الصوت ليشهد المنظر المروع، وبعد بضع ساعات توفي جاستون متأثراً بجراحه.

كان جاستون كالميت قد التحق بتحرير جريدة «الفيغارو» في

العام 1880 وظل يتدرج في أعماله حتى غدا رئيساً للتحرير عام 1903، وذاع اسمه وسمت مكانته الصحفية والإجتماعية. وكان مسيو كايو قد وصل بعد حياة سيامية حافلة إلى رئاسة الوزراء الفرنسية في العام 1911، ولكنه استقال عقب النقد الذي وجه إلى وزارته من جراء موقفها في المفاوضات مع ألمانيا على المسألة المراكشية.

وفي آذار/ مارس عام 1913 دخل في وزارة دومرج الراديكالية الإشتراكية وزيراً للمالية، وفازت الوزارة في البرلمان بالتصديق على سياستها المالية بأغلبية كبيرة، وكانت ثمة جبهة قوية تعارض كايو وسياسته المالية، وكانت جريدة «الفيغارو» تؤيد هذه المعارضة بسلسلة من الحملات العنيفة، وكانت تنشر كل يوم تقريباً مقالات وصوراً لوثائق ورسائل تخدش من سمعة كايو وشرف زوجته. وكانت هذه الحملات والوثائق ترمي إلى التدليل على أن كايو لم يتورع خلال حياته السياسية من أن يستغل مركزه كوزير للمالية وأن ينمي ثروته الخاصة على حساب الأموال العامة، وأنه استعمل نفوذه للتأثير على القضاء في قضية الفضيحة المالية التي ارتكبها شخص يدعى روشيت عام 1911، وإنه عاونه على الفرار من قبضة العدالة.

ولم تقف «الفيغارو» عند هذا الحد، ولكنها هاجمت كايو في حياته الخاصة، وأخذت تنشر صوراً لبعض خطابات غرامية كان كايو يكتبها إلى خليلته التي تزوجها فيما بعد وهي الزوج القاتلة، وكانت لا تزال يومئذ في عصمة زوجها القديم مسيو ليون كلارتي

ابن مدير مسرح «الكوميدي فرانسيز». وظهر فيما بعد أن «الفيغارو» استطاعت أن تحصل على بعض هذه الخطابات من مدام جويدان زوجة كايو الأولى التي طلقها ليتزوج من خليلته، وكان كايو يستبيح لنفسه في هذه الرسائل أن يفضي إلى خليلته بكثير من أسرار الدولة والشؤون العامة خلال الأقوال والوقائع الغرامية، وكان رئيس التحرير كالميت يسبغ على هذه الحملات بقلمه اللاذع صوراً مثيرة، ويطعن الوزير وزوجته طعنات نجلاء.

ولبثت «الفيغارو» في حملتها العنيفة مدة ثلاثة أشهر. وفي يوم من أيام آذار/ مارس نشرت مقالاً جامعاً بتوقيع كالميت ضمنته جميع التهم والفضائح التي تنسبها إلى كايو وهذه خلاصتها:

1 ـ أن كايو لم يكن يرمي في جميع أعماله العمومية إلا إلى جمع المال لنفسه، وأنه لم يكن يتورع عن التدخل في أعمال البورصة، ومساعدة أعوانه وأصدقائه في الاستفادة من تقلباتها.

2 ـ إن موقفه في المفاوضات المتعلقة بالمسألة المراكشية مع ألمانيا كان موقف تفريط وخيانة، وأنه عمد إلى مفاوضة ألمانيا بطريقة سرية للتنازل لها عن جزء من الكونغو الفرنسية، نظير تنازلها عن دعاويها في مراكش.

3 ـ أنه ما كاد يلي وزارة المالية في آذار/ مارس عام 1912 حتى بادر بالعمل على معاونة صديقه الأفاق روشيت واستطاع بنفوذه وتدخله لدى النيابة العمومية والقضاء، أن يعمل على تأجيل قضيته الجنائية أشهراً حتى استطاع روشيت أن يفر

من قبضة العدالة، وقد صرح مسيو جوريس النائب الإشتراكي ورئيس لجنة التحقيق في مسألة روشيت باستيائه من التدخلات الرسمية في الإجراءات القضائية، ومع أن فضيحة روشيت المالية، وقعت في نيسان/أبريل عام 1911، فقد لبث كايو يسعى إلى تأجيل قضيتها حتى تسقط بمرور المدة أو يفر روشيت، وهو ما حدث بالفعل.

4 ـ أن كايو بصفته مديراً للبنك العقاري في القاهرة ـ وكان مركزه الرئيسي في باريس ـ طرح أسهم هذا البنك في البورصة وحصد من وراء ذلك أرباحاً طائلة، وأنه أضاع أموال العمال وأموال الإقتصاد الوطني وساعد الأفاقين على اغتياله.

تلك خلاصة المقال اللاذع الذي نشرته «الفيغارو» والذي بلغ فيه محررها كالميت الذروة في النيل من كايو ومن نزاهته وسمعته السياسية، ولم يكن ثمة ما يدل على أن كالميت قد أفرغ كل ما في جعبته من الطعون والسهام المسمومة، وكانت «الفيغارو» تطلع كل يوم بطعنة جديدة، وكانت زوجة الوزير تضطرم حفيظة وسخطاً لتلك الحملات الهدامة لمكانة زوجها وحياته العامة والخاصة، وتحاول أن تجد الوسيلة لدرء هذه الطعنات القاتلة. ولما نشر كالميت مقاله الجامع في اتهام الوزير حزمت مدام كايو أمرها واشترت مسدساً بدون علم زوجها، وتمرنت على إطلاق النار منه، ووصلت المأساة إلى ذروتها في يوم 16 آذار/مارس حينما خرّ كالميت صريعاً برصاص الزوجة المنتقمة حسب ما أسلفنا.

على أثر وقرع الجريمة، اضطرب الرأي العام الباريسي واعتقلت مدام كايو وأودعت سجن الحقانية، وشيع جثمان كالميت في 21 آذار/ مارس وشاهده جمهور غفير، ووقعت أثناء الجنازة وبعدها مظاهرات عديدة، واستمرت العاصمة الفرنسية أياماً في هرج ومرج، واستقال مسيو كايو في الحال من وزارة المالية، وانتدب البرلمان لجنة للتحقيق فيما أثير من الوقائع والفضائح، وعرضت نتيجة التحقيق على المجلس وأسندت إلى الوزير المستقيل وبعض زملائه السابقين تهماً في أمور كثيرة، وأصدر المجلس في حقهم قراراً باللوم بعد نقاشات عاصفة، واستمر الأفق السياسي على حاله بضعة أسابيع حتى انتهت الدورة البرلمانية القائمة وبدأت الانتخابات للمجلس الجديد.

وكشف التحقيق مع الزوج القاتلة عن كثير من الوقائع والمثالب المؤلمة، واعترف مسيو مونيس وزير العدل في التحقيق بأن كايو رجاه في العمل على تأجيل قضية روشيت خشية أن ينفذ محاميه تهديده بإثارة بعض الفضائح الرسمية، وأنه نقل هذا الرجاء إلى مسيو فابر النائب العمومي، وأيد كايو وزير العدل في هذا الاعتراف.

بدأت محاكمة مدام كايو في 20 تموز/ يوليو عام 1914، وكان مسيو كايو بالرغم من وقع الحادث المروع الذي ارتكبته زوجته، وبالرغم مما ثار حول اسمه ومكانته من الضجيج، قد تقدم للانتخابات الجديدة، وفاز فيها، وكان يعمل جاهداً لكي يسبغ على هذه المحاكمة الجنائية لوناً سياسياً عميقاً، وكان يحشد حوله بعض

الصحف ويغذيها بحملات سياسية ظاهرة الوحي، وغدت محاكمة مدام كايو يومها من أعظم حوادث العصر، ولم يحجب من رنينها مصرع الأرشيدوق فرديناند ولي عهد النمسا والمجر في سرايفو، وما بدأ عل أثره من انحدار أوروبا نحو هاوية الحرب بخطى سريعة.

تولى الدفاع عن الزوجة القاتلة الأستاذ لابوري وعن أسرة كالميت الأستاذ شينوي، وسمح لجمهور من سيدات الطبقة الرفيعة بمشاهدة المحاكمة من وراء حاجز حديدي، وشهد النائب العمومي المحاكمة بنفسه ممثلاً للاتهام، وقالت مدام كايو في بدء المحاكمة أنها لم تقصد القتل ولكنها قصدت معاقبة القاذف وإرهابه. وقال مسيو كايو إن نهجه في حياته الخاصة قد يكون السبب في وقوع الحادث ولكنه دافع عن نفسه وعن سياسته دفاعاً رناناً، وقال بأن خصومه كانوا يهددونه بنشر وثائق تقضي على سمعته ومكانته. وحدثت أثناء الجلسة مناقشة عاصفة بين الوزير وبين المسيو لازاروس مدير إدارة «الفيغارو» إذ زعم أن المسيو كالميت أطلعه على أوراق تؤيد خيانة كايو ونذالته، ولما ألح كايو في طلب هذه الأوراق أعلن النائب العمومي أن الوثائق المزعومة ليست سوى صور من أصول غير موجودة، واتهم كايو جريدة «الفيغارو» بأنها كانت في خدمة ألمانيا وأنها تتقاضى أموالاً منها.

سمعت المحكمة أقوال كثيرين من محرري «الفيغارو»، وكان من شهود القضية القصصي الكبير بول بورجيه والكاتب المسرحي هنري برنشتين، وأدلت مدام جويدان زوجة كايو الأولى بأقوالها

فروت قصة الرسائل الخاصة التي سرقتها من مكتب زوجها السابق المسيو كايو والتي نشرت «الفيغارو» بعضها، وأبت أن تقدم أصولها إلى المحكمة ولكنها قدمت صوراً فوتوغرافية منها إلى الأستاذ لابوري، فأبى أن يقرأها. وكانت هذه الرسائل التي تبادلها مسيو كايو مع خليلته مدام كلارتي ـ وهي التي غدت زوجته فيما بعد، ثم غدت بطلة القضية ـ، مستقى خصيباً لمحرر «الفيغارو» فيما كان يكشفه من أمور حياة كايو الخاصة وحياته الغرامية.

استمرت المرافعات في القضية أسبوعاً، واستعرضت خلالها أبشع الصور عن فساد الحياة الفرنسية العامة وفضائحها المثيرة، ولم يتورع الاتهام أو الدفاع عن أن يلطخ بالعار والإثم كل شخصية تناولها مهما كان مقامها أو مكانتها، ما بين وزراء ونواب وكتّاب من جميع الأحزاب، ولم تحدث الوقائع المادية الحاسمة أثرها في هيئة المحلفين كشراء مدام كايو للمسدس الذي ارتكبت به الجريمة، وتمرينها على إطلاقه، وكذلك المذكرة التي كتبتها إلى زوجها تنبئه بأنها ستأخذ حقها بيدها. ولم يتأثر المحلفون بما في ذلك من عمد ظاهر وسبق الإصرار على ارتكاب الجريمة، وغلبت الدعاية السياسية على جو المحكمة، وقضى الأستاذ لابوري بدفاعه الرنان الساحر على كل عنصر للإدانة. وفي يوم 29 تموز/يوليو أصدرت المحكمة حكمها ببراءة مدام كايو خلال مناظرة عاصفة. وما كادت الزوجة القاتلة تسمع الحكم ببراءتها حتى سقطت مغمياً عليها بين ذراعي محاميها، واشتد الضجيج والهرج في ساحة المحكمة، وامتزجت أصوات الهاتفين لكايو بهتافات «يا للقاتل» وأمثالها، واشتد اضطراب الرأي العام الفرنسي، وعادت المظاهرات السياسية

أشد مما كانت، يهتف بعضها لكايو وللإشتراكيين، ويهتف البعض الآخر للملكيين والوطنيين.

وجاء هذا الحكم دليلاً جديداً على انحلال القضاء الفرنسي، وتأثره بالاعتبارات السياسية، وخضوعه الواضح لوحي السلطة التنفيذية، ولم يمض يومان على ذلك حتى سقط الزعيم الإشتراكي جان جوريس قتيلاً برصاص قاتله راوول فيلان وهو جالس في بعض مقاهي باريس في 31 تموز/يوليو فازداد الرأي العام اضطراباً، وكان الأفق الدولي المتجهم خلال ذلك ينذر فرنسا وأوروبا بالويل، وكانت الحرب الكبرى على الأبواب.

فرانس فرديناند
(1863 ـ 1914)

يعود تاريخ النمسا إلى القرن الثاني قبل الميلاد حيث كانت هناك مملكة النوريكوم. في عام 15 قبل الميلاد استولت دولة الروم في عهد القيصر آوكوستوس على الأراضي النمساوية، ومنذ ذلك الحين يعود كثير من مدن النمسا إلى عصر الرومان مثل فينا والتي كانت أسمها (فيندوبونا)، سالسبورج (يو فافوم) وغيرها.

وبعد وفاة القيصر الروماني مارك أوري في سنة 180 بعد الميلاد في فينا، انتهى العصر الروماني في النمسا بانسحاب الروم منها وتركوها للجرمانيين (الألمان)، حيث انتشرت الحملة الصليبية في البلاد من المبشّرين القادمين من أيرلندا وشوتلاند، ويعود تاريخ أكبر مركز رهباني في سالسبورج «سانت بينرس» إلى هذا العهد.

ـ تشكل الدولة النمساوية:

حكمت هذه المنطقة في القرن التاسع عشر عائلة بابين بيرج، وكانت أولى الوثائق التاريخية التي ذُكرت فيها النمسا هي في عام 996 تحت إسم (اوستاريكي) وذلك في عهد ليوبولد الأول من عائلة بابين بيرج.

وما بين عام 1080 و1136 ميلادي ـ وخاصة في عهد ليوبولد الثالث والذي كان يتخذ من مدينة كلوستر نيبورج مركزاً لحكمه ـ وصلت النمسا في ذلك الوقت إلى عصر مزدهر.

وفي عصر الحروب الصليبية اشترك ليوبولد الخامس وليوبولد السادس في هذه الحروب، في العام 1246 ميلادي سقط آخر عضو من حاشية بابين بيرج وهو فريدريك الثاني، وانتهى بذلك عصر عائلة بابين بيرج.

ـ عهد الهبسبورج:

بدأ بعد ذلك عهد عائلة الهابسبورج حيث استلم في عام 1273 رودولف فون هابسبورج زمام الحكم وكملك على ألمانيا. وفي عصر رودولف الرابع 1363 عاشت النمسا نهضة حضارية ومعمارية كبيرة حيث بنيت الجامعة في فينا عام 1365 ـ وهي الآن أقدم جامعة في البلاد الناطقة باللغة الألمانية ـ، وكذلك تم بناء كنيسة شتيفان دوم. ومن خلال حروب الهابسبورج مع البوهيميين والمجر حصلت النمسا على عرش هاتين الدولتين في عام 1526 وأصبحت بذلك من القوى العظمى، وكان هذا في عصر مكسيميليان الذي استطاع تطوير النمسا من دولة متأخرة إلى دولة لها مؤسستها المتطورة.

ـ الصراع مع العثمانيين:

في نفس العام 1526 احتل السلطان سليمان الثاني مدينة بودابست، وفي العام 1529 وصل إلى أبواب ڤيينا ولكنه ترك حصارها بعد وقت قصير. ولكنه عاد وحاصرها في العام 1532 ولم

يتوج بالنجاح، وبعد معارك طاحنة في المجر مع الأتراك عام 1547 تم توقيع إتفاقية هدنة بين النمسا والإمبراطورية العثمانية، وكان على فرديناند الإمبراطور النمساوي دفع الجزية إلى العثمانيين وكانت وقتها 30 ألف دوكتا سنوياً.

في عهد فرديناند تم تطوير المؤسسات الحكومية إلى حكومات مركزية وبقيت سارية المفعول حتى منتصف القرن التاسع عشر، وكذلك انتشر المذهب البروتستانتي المسيحي في النمسا والتي كانت في ذلك الحين كاثوليكية المذهب.

وفي العام 1618 اندلعت الثورة البوهيمية ضد إمبراطورية الهابسبورج والتي عرفت بحرب الثلاثين عاماً لأنها دامت إلى العام 1648 وانتهت بمعاهدة «فيستفال» في عهد فرديناند الثالث.

في العام 1683 حاصر الأتراك فينا للمرة الثالثة ولكن استطاع جراف شتارهمبرج في معركة عند جبل الكالينبرج رد الأتراك. وفي العام 1686 حررت بودابست من الإحتلال التركي بعد 145 عام من السيطرة التركية على بودابست.

ـ تشكل الإمبراطورية النمساوية:

بعد موت كارل السادس تولت ابنته ماريا تريزا الإمبراطورية النمساوية من العام 1740 إلى 1780. وتعتبر ماريا تريزا من أهم الشخصيات في تاريخ النمسا لأنها بدأت حملة تجديد واسعة حيث جعلت أمور التعليم من واجبات الدولة وهكذا أنشأت أول المدارس الإبتدائية كما أنشأت أيضاً ميزانية التعليم، والمنهج

الطبي الفييباوي من فانسويتن الذي كان طبيب ماريا تيرزا. بعد وفاة زوج ماريا تريزا شارك ابنها الأكبر جوزيف الثاني بالحكم وكان هذا في العام 1765. وكان من المعروف أن حُكام النمسا في ذلك الوقت هم حُكام ألمانيا، حيث أصبح هو أيضاً إمبراطوراً لألمانيا. وقد تابع جوزيف الثاني الجهود لتحديث الإمبراطورية النمساوية حيث وضعت قوانين الحرية الدينية مما حسن من وضع اليهود آنذاك، وقوانين الرعاية الصحية والإجتماعية، وفي عصره أنشئت المستشفى العامة الجامعية والتي كانت من أكبر مستشفيات العالم.

بعد وفاة جوزيف الثاني جاء أخوه ليوبولد الثاني عام 1790. وكانت ڤيينا بذلك الوقت عاصمة العالم الموسيقية من خلال هايدن موتسارت وبيتهوفن في أواخر القرن.

في العام 1789 قامت الثورة الفرنسية وقبل أن تتخذ النمسا خطوات رد الفعل ضد فرنسا خوفاً منها، مات ليوبولد الثاني واستلم ابنه زمام الحكم.

ومن خلال اجتياح نابليون لأوروبا وصلت جيوشه إلى النمسا في عام 1809 ولكن الجيوش النمساوية هزمته في معركة أسبرن، ولكن الجيش الفرنسي استطاع الإنتصار عليهم في معركة بمارخ فيلد في نفس العام، وبذلك بدأ عصر نابليون في النمسا، ومن نتائج هذه الهزيمة أن نابليون فصل جزءاً من النمسا الجنوبية وشكل منها دولة الهيرين وهي يوغوسلافيا، وبذلك فقدت النمسا حدودها البحرية.

في العام 1810 كان الأمير ميترنيخ يتولى الأمور الدبلوماسية واستطاع أن يخفف من حدة الصراع مع نابليون بتدبير زواجه من الدوقة الكبيرة ماري لويز ابنة الإمبراطور النمساوي فرانس الأول.

وبعد هزيمة نابليون في معركة لايبزيخ 1813 استعادت النمسا السيادة على أراضيها من جديد ثم بعد ذلك معاهدة «فينا» عام 1815 لإعادة تنظيم أوروبا.

في العام 1848 قامت ثورة من الطلاب والعمال والأمراء، وأدت هذه الثورة إلى تغير كبير حيث أنشئ مجلس الدولة (البرلمان النمساوي الأول) في هذه السنة، واستلم فرانس يوسف الإمبراطورية وفي العام 1849 أنشئت السكة الحديدية. وأسست فصائل الجاندارم.

في العام 1866 خاضت النمسا حروباً مع روسيا وإيطاليا في معارك كونيكسكريتس وكستوزا وليسا، ثم خرجت النمسا من الحلف الألماني. وفي العام 1867 تم وضع تسوية مع المجر ووضع أسس لحقوق المواطنين.

في العام 1869 بدأ العمل بقانون الخدمة العسكرية الإجبارية العامة، وقانون التعليم الإجباري العام.

في العام 1889 أقدم ولي عهد النمسا رودولف على الانتحار، وعين ولي العهد الدوق الأكبر فرانس فرديناند.

وضع في العام 1907 قانون الحق في الانتخاب العام. وفي العام 1908 ضمت النمسا إلى الإمبراطورية أراضي سلوفينيا، وكان

لهذا دور كبير في تطور الأمور في البلقان حيث حقد الصرب على النمسا.

في العام 1914 اغتيل ولي عهد النمسا فرانس فرديناند في سراييفو عن 51 عاماً من قبل أحد الصرب الحاقدين، وتسبب اغتياله باندلاع الحرب العالمية الأولى من عام 1914 ـ 1918، وفي العام 1916 توفي الإمبراطور فرانس يوسف واستلم كارل الأول الإمبراطورية النمساوية.

ـ تفاصيل الاغتيال وبداية الحرب:

وصل ولي عهد النمسا فرديناند وزوجته إلى سرايفو بتاريخ 28 حزيران/ يونيو 1914، وخلال تنقله في أحد شوارع المدينة بسيارته قام أحد الطلاب الصرب بإلقاء قنبلة على السيارة فلم تنفجر، فتناول مسدسه وأطلق عليه ثلاث رصاصات فأصابت الأولى ولي العهد في حنجرته فألقت زوجته نفسها عليه لتحول بينه وبين الجاني، فكان نصيبها الطلقة الثانية والثالثة، ولكن السائق أسرع بالسيارة إلى القصر الذي كان مخصصاً له، وفي باحة القصر فتح فرديناند عينيه وقال:

«يا صوفيا يجب أن تعيشي لأولادنا». ولكن الرصاصتين كانتا قد أصابتا صوفيا مقتلاً، ومات الزوجان معاً.

وتبين من التحقيقات التي أجريت بأن الطالب كان يدعى برنزيب. رأى الإمبراطور فرانز جوزيف أن اللوم يقع في اغتيال ابنه على الحكومة الصربية، مع أنه لم يكن يوجد أي دليل يدعم

هذا اللوم، كما أنه اتهم في الوقت نفسه قيصر روسيا بالإشتراك في ذلك الاغتيال، وذلك لتأييده الحركة السلافية، ووجه إنذاراً نهائياً لحكومة بلغراد صيغ بعبارات قاسية، والهدف منه أن ترفض بلغراد هذا الإنذار وهذا ما حصل. وفي غضون ثماني وأربعين ساعة أعلنت النمسا الحرب على الصرب، وأمر القيصر على الفور بالاستنفار العام لتأييد الصرب وبصورة تلقائية بدأت فصول سلسلة كاملة من الأحداث الدولية، ووضعت موضع التنفيذ، وكان الإمبراطور ويليام الألماني بما له من جيوش وبحرية جاهزين للقتال ملتزماً بتأييد النمسا. ثم عملت بريطانيا وفرنسا ـ اللتان كانتا قد وقعتا قبل ذلك بعشرة أعوام إتفاقاً ودياً لمكافحة التوسع الألماني في الشرق الأوسط وأفريقيا وأمكنة أخرى ـ على تحويل ذلك الإتفاق الودي إلى تحالف عسكري وكان يوجد إتفاق مماثل بين بريطانيا وروسيا.

ومع أن هجوم النمسا على الصرب كان السبب الأصلي للحرب فإن القرار الذي اتخذته ألمانيا بالزحف على بلجيكا المحايدة تمهيداً للهجوم على فرنسا، هو الذي حولها من حرب محلية إلى حرب عالمية.

في العام 1918 عند انتهاء الحرب العالمية الأولى، أعلنت براغ الجمهورية التشيكوسلوفاكية، وبعدها استقال الإمبراطور كارل الأول وأعلنت الجمهورية النمساوية الأولى أيضاً في العام 1918. وتوفي كارل في العام 1922 في جزيرة ماديرا وكان هذا آخر إمبراطور للنمسا.

ـ الجمهورية الأولى:

بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى وهزيمة النمسا حددت دول الائتلاف المنتصرة في مؤتمر «سان جرمان» 1919 حدود النمسا الجديدة الحالية، وفي العام 1920 وضع القانون الجديد للجمهورية، وحتى العام 1932 توالت عدة حكومات برئاسة المسيحيين الإشتراكيين بينما بقي الحزب الإشتراكي الديمقراطي بزعيمه أوتوباور في المعارضة.

في العام 1932 استلم أنكلبرت دولفوس الحكم ومارس حكماً ديكتاتورياً من ناحية، ومن ناحية أخرى كان ضد سياسة هتلر، مما أدى إلى محاولة انقلاب من الوطنيين الإشتراكيين النازيين عام 1934 وتم اغتيال دولفوس وفشل الانقلاب. وخلف المستشار كورت شوشنيك دولفوس كمستشار للحكومة النمساوية.

في العام 1938 دخلت القوات الألمانية النمسا وضمت النمسا إلى الرايخ الألماني، وخاضت النمسا الحرب العالمية الثانية مجبرة مع ألمانيا، وفي نهاية الحرب العالمية الثانية وهزيمة هتلر دخلت قوات الحلفاء إلى النمسا عام 1945. وفي 27/4/1945 تكونت الجمهورية النمساوية الثانية بزعامة الدكتور كارل رينر، ولكنها كانت تحت سيطرة الحلفاء (أميركا، روسيا، فرنسا، إنجلترا).

ـ الجمهورية الثانية:

في العام 1955 وبعد أكثر من 300 جلسة عقدها وزراء خارجية الحلفاء قام وفد حكومي نمساوي رفيع المستوى مؤلف من مستشار الحكومة النمساوية حينذاك يوليوس راب ونائبه أودلوف شارف

ووزير الدولة كرايسكي بعقد مباحثات مع الحكومة السوفياتية بمقتضى ما يسمى بـ «مذكرة موسكو» على الموافقة المبدئية للحكومة السوفياتية على معاهدة الدولة.

تم توقيع معاهدة الدولة من جانب الدول العظمى والنمسا في قصر البيلفيدير يوم 15/ 5/ 1955 مع تأكيد حظر انضمام النمسا إلى ألمانيا، ووافق البرلمان على قانون الحياد في 26 تشرين الأول/ أكتوبر 1955، وأصبح هذا اليوم هو العيد الوطني للنمسا. وأصبحت مدينة فينا ثالث مقر من مقرات الأمم المتحدة.

جان جوريس
(1859 - 1914)

- منح الحرية للعالم بالقوة مشروع غريب مليء بالمطبات.
- الشجاعة هي أن نفهم الواقع ونمضي نحو المثل الأعلى في آن معاً.
- لا تأتي الثورات عادة نتيجة لغياب الإصلاحات، بل نتيجة لإحباط آمال الجماهير في الإصلاحات التي وعد النظام القيام بها.

جان جوريس

ولد المفكر والعالم الإشتراكي الفرنسي جان جوريس في العام 1859 في عائلة متوسطة، ثم حصل على منحة دراسية من «دار المعلمين» في باريس، وتميزت حياته الدراسية بالتفوق على جميع أقرانه من الطلاب.

درس جوريس الفلسفة وانتخب نائباً في البرلمان الفرنسي واشتهر بمواقفه وخطاباته الشهيرة بالدفاع عن الديمقراطية والإشتراكية، وكان شرساً في مهاجمة النظام الرأسمالي الذي لا يمكن - حسب رأيه - إلا أن يؤدي إلى الفساد والفوضى والحرب.

اشتهر جان جوريس بوقوفه ضد معاداة السامية، وكان أبرزها قضية دريفوس الشهير في العام 1898، وبتأسيسه صحيفة «الاومنتيه» (الإنسانية) التي أصبحت تنطق فيما بعد باسم الإشتراكية، وما زالت هذه الصحيفة تصدر حتى يومنا هذا وتعبر عن آراء «الحزب الشيوعي» الفرنسي.

ويمكن تلخيص فكر جوريس بأنه فكر إشتراكي ديمقراطي إصلاحي ومعاد للحرب إلى أقصى حد، بالإضافة إلى تأثره العميق بالفلسفة التي جعلته يغرق أحياناً في نزعة إنسانية مثالية. كما أنه يرفض المناداة بالأممية المطلقة على حساب القومية الوطنية، بالرغم من أنه لا يرفض الأممية(1).

اغتيل جان جوريس برصاص راول فيلان عندما كان جالساً في أحد المقاهي الباريسية بتاريخ 31 تموز/يوليو عام 1914، وكان السبب المعلن من عملية الاغتيال هو معارضة جوريس الشديدة لإعلان الحرب العالمية الأولى والتي خلّفت الملايين من الضحايا والخراب في العالم.

---

(1) «الموسوعة السياسية»، الجزء الثاني، ص 119.

شهداء الإستقلال

(1916)

خلال الحرب العالمية الأولى 1914 ـ 1918م عاش البيروتيون مرحلة صعبة ودقيقة عندما أدانت السلطات القضائية مجموعة من الشخصيات الذين تعاونوا فيما بينهم للتخلص من السيادة العُثمانية على البلاد العربية على أمل أن تساعدهم إنكلترا على توحيدها تحت راية الشريف حسين بن علي الذي أعلن الثورة على الدولة العُثمانية في ذلك الحين.

قام حوالي مائة شخص من وجهاء بيروت والنافذين فيها من أهل الحل والعقد في البلاد وكان فيهم المسلمون والنصارى، اجتمعوا وأسسوا ما سُمّي يومئذ بالجمعية الإصلاحية، ثم انتخبوا من بينهم 25 عضواً برئاسة الشيخ أحمد عباس الأزهري، صاحب الكلية العُثمانية في بيروت التي أصبحت الكلية الإسلامية ثم كلية الشيخ عباس فيما بعد، وكان الانتخاب سرياً وعدد الناخبين 61 شخصاً كان منهم: أحمد مختار بيهم، أيوب ثابت، سليم علي سلام، كامل الصلح، جان تويني، بترو طراد، جان نقّاش، رزق الله أرقش، سليم البواب، حسن الناطور، جميل الحسامي، جرجي

رزق، ألبير بسول، حبيب فرعون، عبد الحميد الغندور، ألبير يوسف سرسق، عبد الباسط فتح الله، فؤاد حنتس، جبران بسترس، ويوسف الهاني، واتخذوا لهم نادياً بباب إدريس في بيروت.

وكانت أهداف هذه الجمعية ذات وجهين، سري وعلني، أما العلني الذي يطالب به جميع أعضائها من مسيحيين ومسلمين هو منح المناطق العربية في المملكة العُثمانية حكماً ذاتياً، وانتقال جميع المصالح الإقليمية في ولاية بيروت إلى أيدي هيئات تمثّل الأهالي، والاعتراف باللغة العربية كلغة رسمية واستعمالها في البرلمان العثماني على قدم المساواة مع اللغة التركية وعدم تجنيد العرب للخدمة وقت السلم خارج بلادهم.

كانت هذه المطالب محل أخذ وعطاء بين الجمعية الإصلاحية وبين السلطات العُثمانية المسؤولة، غير أن هذه السلطات فقدت صوابها عندما علمت بأن أعضاء هذه الجمعية كانوا يشكلون في داخلها جمعية أخرى تعمل على التنسيق مع القوى الغربية لمساعدتهم في التخلص من نير الإحتلال العثماني، وكان صلة الوصل بين هذه الجمعية وباقي الجمعيات العربية الأخرى نخلة بك التويني، ترجمان القنصلية الفرنسية الفخري في بيروت.

ولما فتشت السلطات العُثمانية مركز القنصلية الفرنسية في بيروت بإرشاد فيليب زلزل عثرت في باطن جدار إحدى الغرف على عريضة بالمطالب السرية التي تتلخص بإلحاق مدينة بيروت بالجبل ووضع لبنان تحت الحماية الفرنسية، وهي موجهة إلى مسيو كوجيه، قنصل فرنسا في بيروت. وقد وقّع هذه العريضة كل من:

ميشال تويني، بترو طراد، أيوب ثابت، رزق الله أرقش، خليل زينيّة، ويوسف الهاني. وقبيل اكتشاف هذه العريضة بوقت قصير تمكن جميع هؤلاء الموقعين على العريضة من مغادرة لبنان ما عدا يوسف الهاني، الذي اعتقل في داره ببيروت في نهاية حفلة ساهرة كان يقيمها هو وزوجته حنينة دوماني بحضور جمال باشا نفسه. ففي أثناء الحفلة حضر أحد الضباط إلى بيت الهاني وأسرّ في أُذن جمال باشا أن الأوراق التي اكتشفت في القنصلية الفرنسية يوجد من بين الموقعين عليها اسم يوسف الهاني. وعند نهاية الحفلة اعتُقل صاحب المنزل باعتباره متآمراً على الباب العالي. وشكّل جمال باشا في كل من عاليه بجبل لبنان ودمشق محكمة عسكرية أُطلق عليها يومئذ الديوان العُرفي، وعُين له الميرالاي تحسين باشا رئيساً وإلى جانبه هيئة تحقيق مؤلفة من ضابط يدعى صلاح الدين أفندي، وعدد من القضاة على رأسهم القاضي شكري بك، وتولى محيى الدين علم الدين، البيروتي، في هذا الديوان وظيفة كاتب ضبط.

ولكي يقطع جمال باشا دابر المحاولات المبذولة لتخليص الهاني، فإنه أمر بتقديم موعد تنفيذ الحكم به عن سائر المحكومين، وقد أُعدم الهاني بالفعل فجر يوم 5 نيسان/أبريل سنة 1916م، بينما أُعدم الآخرون في 6 أيار/مايو من تلك السنة. وتبعاً للمحاكمات التي أجراها الديوان العُرفي، فإنه تمّ تنفيذ أحكام الإعدام بالمحكومين على مرحلتين بشكل إفرادي في تواريخ مختلفة، ففي 15 آب/أغسطس سنة 1915م قبل شروق شمس ذاك اليوم الكئيب شهدت ساحة البرج في بيروت إحدى عشرة جثة أسلمت أرواحها إلى بارئها صبراً تحت أعواد إحدى عشرة مشنقة

بإشراف القومندان البيروتي أبو عفيف المصري، وفيما يلي أسماء أفراد هذه القافلة الأولى من الشهداء:

- عبد الكريم الخليل، من الشياح قرب بيروت.
- محمد المحمصاني، من بيروت.
- محمود المحمصاني، من بيروت.
- عبد القادر الخرسا، أصله من دمشق ومقيم في بيروت.
- نور الدين القاضي، من بيروت.
- سليم أحمد عبد الهادي، من قرية عرّابة قرب جنين في فلسطين.
- محمود نجا العجم، من بيروت.
- الشيخ محمد مسلّم عابدين، مأمور أوقاف اللاذقية من دمشق.
- نايف تللو، من دمشق.
- صالح حيدر، من أهالي بعلبك.
- علي الأرمنازي، من حماه.

وفي السادس من شهر أيار/مايو سنة 1916م تمّ إعدام القافلة الثانية من المحكومين في ساحة المرجة بمدينة دمشق وهم:

- شفيق بك مؤيد العظم، من دمشق.
- الشيخ عبد الحميد الزهراوي، من حمص.
- الأمير عمر الجزائري، حفيد الأمير عبد القادر الجزائري من دمشق.

- شكري بك العسلي، من دمشق.

- عبد الوهاب الإنكليزي، من دمشق.

- رفيق رزق سلوم، من حمص.

- رشدي الشمعة، من دمشق.

وفي نفس التاريخ أي يوم السادس من شهر أيار/ مايو سنة 1916م أُعدم في بيروت في ساحة البرج الأبطال التالية أسماؤهم:

- باترو باولي، من التابعية اليونانية، مقيم في بيروت.

- جرجي الحداد، من لبنان.

- سعيد فاضل عقل، من الدامور، لبنان.

- عمر حمد، من بيروت.

- عبد الغني العريسي، من بيروت.

- الشيخ أحمد طبارة، إمام جامع النوفرة في بيروت.

- محمد الشنطي اليافي، من يافا بفلسطين.

- توفيق البساط، من صيدا.

- سيف الدين الخطيب، من دمشق.

- علي بن عمر النشاشيبي، من القدس.

- محمود جلال البخاري، من دمشق.

- سليم الجزائري، من دمشق.

- أمين لطفي الحافظ، من دمشق

وإلى جانب قوافل الشهداء التي أُعدمت بشكل جماعي، هناك

أفراد آخرون حكم عليهم الديوان العُرفي بتهم مماثلة وتمّ إعدامهم في مدن مختلفة، وفي تواريخ متفرقة وهم:

- الخوري يوسف الحايك، من سن الفيل قرب بيروت، أُعدم في دمشق يوم 22 آذار/ مارس سنة 1915م.
- نخلة باشا المطران، من أهالي بعلبك اغتاله حارسه الشركسي أحمد بك الرزّي قرب أُورفه في الأناضول في 17 تشرين الأول/ أكتوبر سنة 1915م وأُلقيت جثته في بركة ماء قرب المكان الذي اغتيل فيه.
- الشقيقان فيليب وفريد الخازن من جونية بلبنان أُعدما في بيروت يوم الثاني من أيار/ مايو سنة 1916م.
- عبد الله الظاهر، من عكّار، أُعدم في بيروت يوم الأول من آذار/ مارس سنة 1916م.
- يوسف الهاني، من بيروت، أُعدم في بيروت في نيسان/ أبريل سنة 1916م.
- محمد الملحم، شيخ عشيرة الحسنة، أُعدم في دمشق في أوائل سنة 1917م.
- فجر المحمود، من عشيرة الموالي، أُعدم في دمشق أوائل سنة 1917م.
- شاهر بن رحيل العلي، من عشيرة التركي، أُعدم في دمشق على أثر إعلان الثورة العربية.
- الشيخ أحمد عارف، مفتي غزة، وولده، من مدينة غزة أُعدما في القدس الشريف سنة 1917م.

- الشقيقان أنطوان وتوفيق زريق، من طرابلس، أُعدما في دمشق سنة 1916م.
- يوسف سعيد بيضون، من بيروت، أُعدم في عاليه ـ لبنان يوم العاشر من شهر آذار/مارس سنة 1916م.
- راهب فرنسي، كان عند مطران الروم الكاثوليك في طرابلس، أُعدم في دمشق.

ـ دور محمد الشنطي اليافي في انكشاف نشاط الجمعية اللامركزية:

لعب هذا الرجل دوراً خبيثاً في نقل نشاط أعضاء الجمعية اللامركزية في القاهرة إلى المسؤولين في اسطنبول، ذلك بأنه كان أحد أعضاء هذه الجمعية فسوّلت له نفسه الإثراء على حساب زملائه اللامركزيين فتقرب من حقي بك العظم حتى اطمأن إليه ووثق به وعهد إليه بوثائق الجمعية السرية ليسلمها إلى أصحابها من المنتسبين إليها في البلاد العربية.

ولكن الشنطي، بدلاً من أن يسلم هذه الوثائق إلى أصحابها العرب، عرّج على اسطنبول وقابل وزير الداخلية طلعت باشا وأطلعه على ما يحمل من أسماء ودَوْر كل منها في بلده. فما كان من طلعت باشا إلا أن أرسله مع ما يحمل من أوراق خطيرة إلى قائد الجيش الهمايوني الرابع أحمد جمال باشا وهذا تلقاه باهتمام وسهّل له الإقامة بأحسن فنادق دمشق على حساب الدولة.

بيد أن جمال باشا ما لبث أن قلب للشنطي ظهر المجن بعد أن

علم بثرائه الفاحش عن طريق امتهان التجسس على أبناء قومه. وأمر بسوقه إلى ديوان عاليه حيث حُكم عليه بالإعدام مع بقية المتهمين في ساحة البرج ببيروت وذلك يوم السادس من شهر أيار/مايو سنة 1916م ودُفن مع الذين تسبب في نكبتهم في حفرة واحدة بتربة الدروز في هذه المدينة.

- دور القنصلية الفرنسية:

بين الرواة اختلاف في كيفية وصول أوراق هذه القنصلية إلى السلطات العثمانية.

هناك من يقول إن رجال الحكومة في بيروت ذهبوا إلى دار القنصل الأميركي وطلبوا منه أن يسمح لهم بتفتيش دار القنصلية الفرنسية وكذلك الإنكليزية لأنهما كانتا تحت إشرافه بعد سفر القنصلين الفرنسي والإنكليزي في بداية الحرب، فرفض قنصل أميركا هذا الطلب لأن القنصليتين المذكورتين كانتا قد ختمتا بالشمع الأحمر.

فقال الموظفون العثمانيون، إنهم لا يريدون دخول الغرف المختومة، بل هم يكتفون بتفتيش ما لم يُختم، فاستمهلهم القنصل الأميركي ريثما يراجع السفير في الآستانة، وقد راجعه فعلاً فأجاز السفير طلب التفتيش. وفي أثناء التفتيش عُثر في دار القنصلية الفرنسية على الوثائق الخطيرة فأخذوها بينما لم يعثروا على أي شيء في دار القنصل الأميركي لأنه لم يترك شيئاً بعكس القنصل الفرنسي.

وهناك رواية أخرى تقول إن الموظفين العُثمانيين في بيروت، دخلوا دار القنصلية الفرنسية وفضوا الأختام من على أبواب غرفها، فأبلغ القنصل الأميركي الذي احتج سفير دولته في اسطنبول ورفع الأمر للحكومة الأميركية في واشنطن التي احتجت هي بدورها في شهر تموز/يوليو سنة 1915م احتجاجاً رسمياً على خرق القواعد الدولية.

- دور فيليب زلزل:

هذا الشخص من وجهاء بكفيا في لبنان وقد احتضنه القنصل الفرنسي في بيروت وجعله كبير تراجمة القنصلية.

وعندما أُعلنت حالة الحرب بين الدولة العُثمانية وفرنسا نُفي فيليب المذكور مع من نفي من موظفي القنصلية المحليين إلى مدينة دمشق لإبعاده عن منطقة الساحل.

ولما رأى أن ما كان وعد به مسيو بيكو، القنصل الفرنسي، من العودة إلى سوريا بعد أسبوعين لم ينفذ، خشي أن تنقله السلطات العُثمانية إلى الأناضول أُسوة بغيره من زملائه، فالتجأ إلى قنصل ألمانيا بدمشق عارضاً عليه التوسط لدى أحمد باشا بإعلان ندمه على خدمة فرنسا ورغبته في التكفير عن سوابقه لصالح الأجانب وذلك بمأثرة يفيد منها رجال السياسة العُثمانية ولا يستطيع غيره أن يقوم بها.

فاستحضره أحمد جمال باشا وسأله عن هذه المأثرة مع وعد له بإعادته إلى بلدة بكفيا والعفو عنه، إن كان صادقاً فيما يقول.

فقال زلزل: إنه وحده يعرف مخبأ الأوراق السياسية التي احتفظ بها القنصل في جدار من جدران إحدى غرف القنصلية، ودل على هذا المخبأ بالفعل، فإذا هو مستودع أُعد في الجدار بصورة خفية، وطلي بابه بشكل يحول دون معرفته واكتشاف ما وراءه.

وقد تحقق لدى الكشف من قبل السلطات العسكرية ما أخبر به زلزل، فظهرت الوثائق التي تدين الكثيرين ومنها مضبطة موقعة من الوجهاء: ميشال التويني، يوسف الهاني، بترو طراد، أيوب تابت، رزق الله أرقش، خليل زينية. وجاء في آخر هذه المضبطة:

«. . . فأقصى ما يبتغيه مسيحيو سوريا هو أن تحتل فرنسا القطر السوري. ولهذه الأسباب يعرض الموقعون أسماءهم من أعضاء اللجنة التنفيذية بالنيابة عن مسيحيي بيروت بحسب مراتبهم الاقتراحات التالية، التي يعتقدون أنها الوحيدة الكفيلة بإصلاح الحالة السياسية الحاضرة في سوريا:

1 ـ إحتلال فرنسا لسوريا.

2 ـ إستقلال ولاية بيروت إستقلالاً تاماً تحت وصاية فرنسا وحمايتها.

3 ـ إدماج ولاية بيروت بلبنان وأن تكون تحت سيادة فرنسا الفعلية.

وكان اكتشاف هذه الوثيقة الخطيرة بمثابة رأس الخيط الذي سحبت به السلطات العثمانية كافة المتصلين بالمراجع الفرنسية، فاعتقلت من كان تحت حكمها، وحولته إلى ديوان عاليه لينتهي إلى الإعدام في ساحة البرج.

وأما الذين كانوا بعيدين عن متناول هذه السلطات فإنهم اكتفوا بتحمل العقوبات الغيابية حتى إذا ما وضعت الحرب أوزارها عادوا إلى بلدهم ليتبوأوا أعلى المراكز الحكومية وأسماها جزاء ما قدمت أيديهم من خدمات سالفة للحلفاء وأغراضهم السياسية والعسكرية.

والجدير بالذكر أن الوحيد الذي وقع في فخ الاعتقال وحكم بديوان عاليه كان الوجيه يوسف الهاني الذي ورد اسمه بين الموقعين على مضبطة القنصلية الفرنسية، بينما كان بقية رفاقه الآخرين قد أفلتوا من قبضة أحمد جمال باشا في الوقت المناسب قبل أن يفشي فيليب زلزل سره الدفين القاتل!

الراهب الروسي راسبوتين
(1872 ـ 1916)

في 31 كانون الأول/ديسمبر عام 1916 تم اغتيال جوجوري يفيمتش راسبوتين. وهو راهب روسي، سيطر على قيصر روسيا نيقولا الثاني وزوجته عن طريق علاجه لابنهما من مرضه الميؤوس من شفائه. وقد استخدم نفوذه الشرير في ميادين السياسة والتعيينات الحكومية، واشتبه في تورطه مع الألمان في الحرب العالمية الأولى، وانتهى الحال باغتياله.

ـ قصة الراهب المشعوذ:

قبل يوم من موته كتب إلى الإمبراطور يقول:

«بعد سنتين تماماً لن يكون لك وجود ولا زوجتك أيضاً وبعد 25 سنة لن يكون في روسيا نبيل واحد.

أما أنا فسأموت يوم أول كانون الثاني/يناير عام 1917». وقد صدقت تنبؤاته.

فبعد سنتين قامت الثورة الروسية وسجن الإمبراطور وزوجته وأُعدما. . . وبعد 25 عاماً جاءت النازية لتقضي تماماً على النبلاء

والأمراء القدامى، وفي 1 كانون الثاني/يناير وجدت جثة راسبوتين في بركة مياه ورقبته مطوّقة بحبل عن عمر 44 عاماً.

ولم تكن قدرته على التنبوء بالأحداث قبل وقوعها هي ميزته الوحيدة بل كانت له مقدرة أخرى غريبة فقد كان قادراً على شفاء المرضى الذين استعصى علاجهم على الأطباء. أما علاجه فهو بالصلاة والدعاء. . . وكان لا يعرف في الطب، بل يمارس قدرته على الشفاء فقط.

كان راسبوتين فلاحاً أمياً، واتجه للدين صدفة. فقد زار أحد أقاربه في الدير، فبهرته العزلة والهدوء وقرر أن يكون واحداً منهم واختفى عن قريته وكان عمره 20 سنة.

وفي هذه الفترة تعلم مبادئ الدين وتزوج من فتاة تكبره بـ5 سنوات، وأنجبت له طفلاً ميتاً، فقال حينها: «الحمد لله من الصعب أن يكون الإنسان أباً لأنه من الصعب أن يكون ابناً، وأصعب من هذا كله أن يكون زوجاً لأم لا تكف عن البكاء على طفلها وعلى زوجها وعلى حالها، ومن الصعب أن يرى الإنسان زوجته تضع كل حياتها في عينيها».

وبعد فترة وجيزة ماتت زوجته أيضاً. وكان راسبوتين جاهلاً، لكنه كانت لديه مقدرة عجيبة على جذب الناس إليه، وخاصة النساء، فهو يسحب النساء وراءه ومعه وأمامه وبين أحضانه.

لم يكن راسبوتين غنياً ولا رقيقاً ولا محباً للمرأة، وكان يقول: «احتقرها. . تحترمك لأنها لا تعرف معنى الاحترام. . . تعرف شيئاً واحداً. . . إذلالها، وإذلال المرأة تكريم لها، فالرجل الذي يقسو

عليها ترى أنه يهتم بها. والذي يضيِّق عليها ترى أنه يغار عليها، فاحبسها تحصل منها على نعيم الدنيا».

قرر راسبوتين أن يكون راهباً نهائياً، فسافر إلى اليونان ودار حول جبل أتوس وقال: «جئت من روسيا أحمل قلبي على كفي، وأريد أن أعود بلا قلب».

وكان له ما أراد، فعاد أكثر صفاءً وأكثر إصراراً وأقوى جسماً وبلا قلب. سمعت به إحدى نساء البلاط الملكي، وبأن قواه الروحية لا يقاومها أحد، وأن الحياة في أحضانه هي الجنة.

وكانت بالطبع النساء هن أكثر من روج للدعاية له وأصبح راسبوتين «الرجل المقدس» القادر على شفاء النفوس والأجسام بنظرة منه أو بلمسته أو بقبلته أو بصلواته ودعائه.

في تلك المرحلة انبرى أحد الكهنة ليقول للمؤمنين إن بينهم شيطاناً ارتدى ملابس الرهبانية، وإن راسبوتين يقيم صلوات فاجرة، وأخبرهم كيف يفتك بالعذارى وهن راضيات، وأنه يجب القضاء عليه.

وذهبت مجموعة من الراهبات ليلقين نظرة على هذا الشيطان فأصبحن عبدات له منذ اللقاء الأول. ولم يعدن يذهبن إلى الكنيسة.

كانت الإمبراطورة قد أنجبت أربع بنات وبعدهن أنجبت ولداً يحمل عرش أسرة آل رومانوف، لكن الطفل كان مصاباً بمرض خطير وهو إن دمه لا يتجلط، إي أنه إذا

نزف فإنه ينزف إلى درجة الإغماء، والذي قد يؤدي إلى موته.

وطبعاً الأطفال عرضة للجروح عند لعبهم. وحدث أن ولي العهد قد جُرح وجاء الطبيب ونظر إلى الطفل وهز برأسه، وقال للوالدة: مع الأسف صاحب السمو سيموت.

استدعت الإمبراطورة راسبوتين بعد أن سمعت عنه، وكان راسبوتين غارقاً بالخمر والرقص. ورفعوه من فوق الجثث العارية وألبسوه لباس الرهبنة، وطلب منه أن يغسل وجهه قبل ذهابه، وعندما أتت فتاة له بالماء ليغتسل، صرخ بها وقال: «وهل أغسل وجهي بالماء؟ هل ترينني حصاناً أم خنزيراً، هاتوا لي بالنبيذ».

ذهب إلى ولي العهد وشفاه بسرعة فائقة. ومرة أخرى جُرح الطفل ونزف وأبرقوا إلى راسبوتين بالحضور، وكان وقتها بعيداً عن العاصمة أكثر من ألف ميل، فأبرق إلى الإمبراطورة يقول لها: «لا خوف على صاحب السمو. اجعلوه يلمس برقيتي وسيزول عنه النزيف»! وكان هذا ما حصل بالفعل.

وبعد سنوات اصطدم رأس ولي العهد بزجاج فنزف، وأبرقوا إلى راسبوتين، لكنه لم يرد على البرقية، أراد أن يجعل من نفسه شيئاً صعب المنال. وبعدها بيومين ذهب لعلاجه وعندما استفاق الطفل من غيبوبته سأل أمه من هذا الرجل؟ فقد رأيته في حلمي بالأمس، فردت عليه والدموع في عينيها: إنه الرجل المقدس، اركع عند قدميه وقبّل يديه. وكان الجميع يفعل ذلك.

وكان من الطبيعي أن يغار الأزواج من راسبوتين، فكيف لا وكل النساء يتحدثن عن قدراته.

وكان راسبوتين لا يحب السياسة ولكنه فقط كان يستفيد من سلطته على الإمبراطورة فيدخل إلى غرف القصر دون استئذان، وكان يجلس إلى جانب الإمبراطورة بعد خروجها من الحمام ويلمس شعرها المبلل، وكان يعصر بيديه شعرها ثم يشرب الماء الغزيز. ولا أحد كان يعلم من أين أتى الماء الغزير المتصبب من شعرها والذي كانت قد جففته بنفسها.

ـ نهاية راسبوتين:

إن الذين ثاروا على راسبوتين كانوا من الرهبان، وكانوا يعتقدون بأن أفعاله نتيجة الشعوذة. وكان راسبوتين يثير حقدهم عليه.

دعا الأمير يوسوبوف راسبوتين إلى بيته ووضع له السم في الطعام، وكان يغار على زوجته منه التي أحبته بجنون حتى أنها كانت لا تنام إلا إذا وضعت أحد أحذية راسبوتين ـ التي احتفظت بها ـ تحت رأسها لتحلم.

ولكن السم الذي وضعه في طعام راسبوتين لم يكن له أدنى مفعول على معدته التي كانت تحتوي على عشرات الزجاجات من الفودكا كل ليلة.

فأطلق الرصاص عليه وأصابه إصابة غير قاتلة، ثم عاد وأطلق الطلقة الثانية، فأرداه ثم ربط حبلاً في رقبته وسحبه خارج المنزل وألقاه في فتحة من الجليد المتجمعة على أحد أنهار روسيا.

مات الراهب غرقاً وعندما اكتشفوا جثته لم يجدوا أي أثر للسم، وبعد أشهر أحرقوا جثته.

ولا يزال راسبوتين حتى اليوم لغزاً محيراً، أكانت لديه قوى عجيبة أم هي هبة؟ لا أحد يدري.

- من أقوال راسبوتين:

«لقد قامرت حتى النهاية، ولكني غلبت على أمري. ولا يمكن للإنسان أن يتحدى القدر مرتين. وكل طاغية يموت الموتة التي تتناسب مع طباعه وأخلاقه وعمق أطماعه. والآن لم يتبقَّ أمامي أي شيء أو أمل. ولم يعد هناك أي شرف أو أدنى ولاء ممن عاونوني قبل أن يسلموني. وتلك هي حياتنا وذلك هو مصيرنا، من الوحل إلى السلطة ومن السلطة نعود مرة أخرى إلى الوحل».

وربما ما قاله راسبوتين هو ما ردده أيضاً هتلر قبل أن يذهب منتحراً، وما ردده هتلر ربما هو ما تحدث به موسوليني حينما وجدوه ممزقاً من ضرب الأقدام وأكوام النعال، وما تحدث به موسوليني ربما هو ما قاله شاوشيسكو عندما استسلم في رومانيا، وما أعلن عنه شاوشيسكو ربما هو ما تفوه به صدام حسين حينما تم سحبه من الحفرة المشهورة.

الطغاة المجرمون يتشابهون في نهاياتهم المخزية ويغادرون التاريخ إلى الأبد وتلاحقهم مخازيهم إلى قبورهم.

راسبوتين الذي أطلق عليه لقب الشيطان لم يكن حاكماً كما هو معروف، ولكنه كان يتصرف في روسيا على أنه الحاكم الأوحد

الذي له السلطة المطلقة على القيصر وامرأته وكان من خلالهما يتوسع في الأطماع والبطش والطغيان ولم يتجرأ أحد على النيل منه لأنه كان محاطاً بهالات السحر التي تحميه من كل مَن يريد الإطاحة به حسب ما كان الجميع يظنون ذلك.

ولم تدم له هذه السلطة طويلاً رغم جبروته وتوغله بأعمال الشر فكان أن تقصده بالهلاك نفر من روسيا بقيادة الأمير يوسوبوف واستطاعوا أن يدسوا له السم في مائدة عامرة بالأطعمة والمشروبات أعدوها له خصيصاً، بعد أن دعوه لها، وكان الكل في ذلك الوقت يؤمن بأن راسبوتين الشيطان لن تلحق به سكرات الموت لأنهم كانوا يرونه أبعد من الموت في أن يأخذه إلى مهاويه السحيقة. وبالفعل لم تستطع السموم من أن تنال منه فما كان من الأمير يوسوبوف إلا أن بادره بوابل من الرصاص الكثيف وألحقه بعصا غليظة أردته متخبطاً بدمائه، ليحمله رجال الأمير بعدها ويلقوا به في النهر.

الجنرال ستانلي مود
(... ـ 1917)

كان الجنرال ستانلي مود قائد القوات البريطانية التي زحفت على بغداد واحتلها يوم 11 آذار/مارس عام 1917. جيء به من الدردنيل بعد انتهاء المعارك هناك لإنقاذ القوات المحاصرة في الكوت وفك الحصار عنها.

رقي إلى رتبة قائد فيلق دجلة في 11 تموز/يوليو عام 1916م وبعد 48 يوماً رقي مرة أخرى فصار القائد العام للقوات العامة في العراق.

دخل في معارك ضارية مع الأتراك فانتصر فيها الواحدة تلو الأخرى حتى دخل بغداد صباح يوم 11 آذار/مارس عام 1917، وبعدها استمرت قواته في الاستيلاء على بقية المدن العراقية، وبذلك انتهت آخر أيام الحكم العثماني في العراق.

في يوم 19 آذار/مارس نشر بيانه المشهور على العراقيين والذي جاء فيه: «جئنا محررين لا فاتحين...».

بدأ الخلاف يدب بين الجنرال مود والسير برسي كوكس، بسبب طبيعة الجنرال مود الذي كان يحب التسلط والاستيلاء وإدارة

كل الأمور سواء كانت عسكرية أم سياسية بنفسه حتى وفاته، ومن ثم نقل السير برسي كوكس إلى طهران.

في مساء يوم 14 تشرين الثاني/ نوفمبر 1917 حضر الجنرال مود حفلة في مدرسة الأليانس اليهودية، وتناول فيها كوباً من الحليب، وبعد انتهاء الحفل، وعند عودته إلى بيته شعر بتوعك في صحته، ثم اشتد عليه المرض، وبعد الفحص والمعالجة، قيل أنه مصاب بنوع حاد من التسمم. وفي مساء يوم 18 تشرين الثاني/ نوفمبر لفظ أنفاسه الأخيرة، ودفن في مقبرة الإنكليز قرب باب المعظّم.

البطريرك مار شمعون بنيامن
(... - 1918)

قبل مجيء الكابتن البريطاني كرايسي إلى مدينة أورمية وإجتماعه بالبطريرك مار شمعون، كان قد التقى إسماعيل آغا سمكو - الكردي الشكاكي - وبعد هذا التقى بمار شمعون ونصحه بمواجهة سمكو وتسوية كل الخلافات فيما بينهما خدمة لمصلحة الطرفين ويكون الآشوريون والأكراد والأرمن جميعهم يداً واحدة مع دول الحلفاء.

لم يرتح البطريرك إلى فكرة اللقاء مع سمكو لأنه لم يكن يثق به، ولكن كرايسي الإنكليزي بدهائه ومكره أقنع البطريرك بضرورة هذه الخطوة وأهميتها في تلك الظروف. وبعد عودة البطريرك من مدينة سالامس، أرسل مبعوثه شموئيل خان بيجان الماواني إلى سمكو لوضع ترتيبات الزيارة المتوقعة. استقبل سمكو المبعوث البطريركي بحفاوة وبمزيد من الإكرام وتم التفاهم بين الطرفين على أن يكون مكان اللقاء في كونا شهر، وتاريخه في الثالث من آذار/ مارس عام 1918.

تسلم البطريرك رسالة سمكو الذي يرحب فيها بفكرة اللقاء ويبيّن فيها مكان وتاريخ اللقاء.

ولما علم الجنرال آغا بطرس بهذا الخبر، اكتشف ما وراء هذه اللعبة وما انطوت عليه من خطورة، وعليه تقدم بتوسلاته إلى البطريرك يرجوه الإقلاع عن هذه الفكرة قائلا: «فداؤك سيدي، اترك هذه الأمور لنا، ونحن خير من يقتدر منها، لك الصليب واترك السيف لنا، إن سمكو رجل ماكر ورعديد، دعه هو يأتي إلينا».

وكذلك فعل الأرمن في إبلاغ البطريرك مار شمعون لإلغاء هذا اللقاء والابتعاد عن سمكو الشرير، لكن البطريرك ولحبه بنشر الوفاق لم يساوره أي شك في نوايا سمكو.

في التاريخ المحدد للزيارة في 3/ 3/ 1918 توجه مار شمعون إلى كونا شهر يرافقه أخيه القائد داويد وبكلونيك كونراتوف مع أربعة من الضباط الروس وسار في حراسته 150 فارساً آشورياً مسلحاً. استقبلهم سمكو استقبالاً لائقاً مظهراً لهم ترحاباً حاراً، ولدى وصول الموكب إلى قصره، تقدم برجائه إلى البطريرك لنزع سلاح رجاله ووضعه في أركان قريبة منهم بدلاً من أن يكون في مناكبهم أو في أيديهم، مدعياً الفزع والهلع اللذان أثارهما مظهر الفرسان في قلوب مواطنيه وأهله. فلبي طلب سمكو بذلك، حيث جمع السلاح وركن على الحيطان القريبة من مربض الفرسان الذين اتخذوا مواقعهم في الأزقة المؤدية للقصر، منهم من تربع على الأرض ومنهم من كان واقفاً وجميعهم بانتظار البطريرك وأخيه داويد اللذين دخلا مع سمكو إلى القصر.

جرى حديث الساعة مع سمكو وأتباعه وكان غير ذي فائدة ولم يرض عنه البطريرك، وبعد احتساء القهوة استأذن مار بنيامين

بالخروج، رافقه سمكو مودعاً حتى باب القصر، ولدى اقتراب البطريرك من العربة التي ستقله، أطلقت عليه النار من الخلف وسقط في الحال، وبدأ الرصاص ينصب على الفرسان الآشوريين من السطوح ومن وراء الأبواب والشبابيك، وقد كان أزلام سمكو المتربصين من الكثرة بحيث لم يدعوا أية فرصة للآشوريين لالتقاط سلاحهم، وكانت مذبحة مروعة ذهب ضحيتها البطريرك و47 فارساً آشورياً مع أربعة من الضباط الروس ومقاتلان باسلان هما: شموئيل خان وأخوه إيشاي، أما داويد شقيق البطريرك ـ وهو من القادة ـ فقد هرب وهو مصاباً ولاذ مختبأً في بيت أحد الأرمن في تلك المدينة.

لقد مثّل القتلة بجثة مار بنيامين حيث أجلسوه على كرسي وهو صريعاً وبتروا إصبعه وأخذوا منها الخاتم الذهبي وتركوه.

محاولة اغتيال الجنرال غورو في العام 1921
(1867 - 1946)

وردت تقارير سرية من عيون ساهرة وغيورة على الوطن وإستقلاله تفيد بقيام الجنرال هنري غورو برحلة سياحية إلى القنيطرة يوم 23 حزيران/ يونيو 1921 وعندما تأكد الخبر، بدأ القائد أحمد مريود يرسم خطة الهجوم على موكب غورو فجاءت على الشكل التالي:

1 - تشكّلت المجموعة الفدائية من المجاهدين خليل مريود ومحمد حسن من جباتا الخشب وشريف شاهين من جباتا الزيت وأبو دياب البرازي من دمشق ومحمد ضاهر من شبعا.

2 - يكون خط سير المجموعة على الطرق والمناطق التالية: كفر سوم - عقربا - نهر اليرموك - الزوية - جباتا الخشب - طرنجه - مفرق ماعص - موقع الكمين على الطريق إلى القنيطرة بمسافة تزيد عن 12 كم.

3 - يرتدي أفراد المجموعة اللباس العسكري المشابه تماماً لرجال حرس الجنرال غورو ويمتطون الخيول، وكانت

التعليمات تقتضي الانسحاب الفوري إلى شرقي الأردن بعد تنفيذ العملية مباشرة.

ولأن الروايات تعددت حول هذه الحادثة ونظراً لأهميتها، نكتفي برواية معاون غورو ورفيقه في الرحلة إلى القنيطرة أي بما ذكره الجنرال كاترو في مذكراته المعنونة «مهمتان في الشرق الأوسط» التي طبعت عام 1954. يقول كاترو: «كان من المستحيل الإبقاء على الزيارة سرية كما كنت آمل، وذلك لأسباب تتعلق بأمن المفوض السامي نفسه». ثم يحدد ممن يخشى على حياة الجنرال فيقول «فقد كانت حياته مهددة دون شك من قبل أولئك الذين لجأوا إلى مناطق في شرقي الأردن». ثم يشير إلى من يقصده بالتحديد فيقول «وقد كان الوطنيون السوريون بزعامة متطرف يدعى أحمد مريود، يلاحقون تحركات غورو منتظرين المناسبة لاغتياله». وبرغم الحراسة على طول الطريق فقد تمكن الثوار الأبطال الخمسة من التسلل إلى صفوف الدرك وبشكل مذهل بالتواطؤ مع بعض الدرك أنفسهم، وأخذوا أماكنهم وهم ينتظرون موكب الجنرال وصحبه. نعود إلى رواية كاترو لنتعرف على المواكب.

«استقل الجنرال غورو السيارة المكشوفة وكان معه إلى جانب السائق مترجمه الكولونيل بارنيت وخلف السائق الجنرال كاترو، وفي المقعد الخلفي جلس حقي العظم حاكم دولة دمشق وإلى يمينه جلس غورو وخلف سيارة غورو سيارة القائد العام للقوات العسكرية في دمشق ومساعد الأمين العام للمفوضية العليا وآخرين».

ـ تنفيذ العملية:

ثم يضيف كيفية تنفيذ الأبطال لهجومهم على الموكب قائلاً: «وما أن تخطى الموكب الطريق السهلة وابتدأ يتخذ طريق الجبل حتى بدا أربعة من رجال الدرك وهم يحملون بنادق الموزر وقد هرعوا إلى المكان الذي يفترض أنهم يحتلونه، لكن ما أن تخطى الموكب المنعطف الجبلي حتى فتح الفرسان الأربعة النار يدعمهم شريك خامس كان متخفياً وراء الصخور».

ـ المصابون في عملية الهجوم:

«في الطلقات الأولى أصيب الكولونيل بارنيت ـ الذي هب واقفاً ـ إصابة قاتلة وسقط على الطريق، وأصيب حقي بك العظم إصابة خفيفة. أما غورو فكانت حصته ثلاث طلقات».

ثم يضيف كاترو إن الذي دبر المحاولة كان أحمد مريود، ووصفه بالوطني المتطرف.

أما بالنسبة للثوار المهاجمين، فبعد نجاح العملية نزلوا إلى جثة الكولونيل بارنيت الملقاة على الطريق ظناً وأملاً منهم بأن تكون جثة غورو، وأخذوا معهم قبعة بارنيت كدليل على تنفيذهم المهمة ثم انسحبوا إلى قاعدتهم.

ـ موقف الشعب في سوريا من العملية:

استقبل الأهالي الخبر بالزهو والارتياح لنجاح العملية. وتقول المصادر أن الزعيم أحمد مريود أرسل القبعة إلى دمشق حيث

سلمت سراً لابنة يوسف العظمة شهيد ميسلون بمثابة هدية ثأرية مفرحة.

كان رد فعل الفرنسيين عنيفاً فقد سيروا حملة كبيرة بقيادة الكولونيل روكر للبطش بأهالي قرى جباتا الخشب وأفانية والشوكتلية وطرنجة وغيرها بزعم أنهم ساعدوا رجال المقاومة.

في شرقي الأردن، حضر الوجهاء ورجالات الأردن من الوطنيين الأحرار إلى حيث يقيم مدبر العملية المجاهد أحمد مريود للتهنئة، أما فرنسا فقد طالبت الحكومة الأردنية عن طريق المندوب السامي البريطاني بتسليم منفذي العملية، وكان جواب الحكومة الأردنية على المذكرة الفرنسية ما يلي:

1 ـ إن الجرم سياسي.

2 ـ إن بين الأشخاص المطلوبين أفراد ثبت وجودهم يوم الحادث في إربد.

3 ـ إن أغلب المطلوبين لا يعرف مقرهم.

ـ نتائج العملية:

1 ـ اضطر المفوض السامي غورو إلى إعادة النظر في تقسيم البلاد وإعادة توحيدها في إطار إتحادي مركزه دمشق.

2 ـ نبهت العالم كله إلى مظالم الإنتداب الفرنسي.

3 ـ علت الأصوات في عصبة الأمم ضد سياسة فرنسا في سوريا.

أنور باشا
(1881 ـ 1922)

في الوقت الذي كانت فيه شمس الدولة العثمانية مائلة نحو الغروب، وهي تمر في أسوأ مراحل ضعفها وأحلكها، حتى أُطلق عليها تسمية: «الرجل المريض»..! وُلِد في عاصمة الخلافة استانبول في عام 1881 م غلام اسمه أنور ولأب يُدعى أحمد أفندي، كان موظف في إدارة الطرق العثمانية، وترعرع هذا الغلام في إستانبول وكبر ثم التحق بالأكاديمية الحربية، وقد أبدى نجابة ونبوغاً، ودهاءً عسكرياً، وانضباطاً أخلاقياً أعجب الكثيرين، فترقّى في السلك العسكري حتى نال رتبة رفيعة وهي رتبة باشا، رغم حداثة سنه، ثم أبلى بلاءً حسناً في العديد من المعارك في البلقان وغيرها من المعارك التي خاضها دفاعاً عن الدولة العثمانية، مؤكداً بذلك مهارته.. وشدة مراسه في خوض الحروب.

ـ أنور باشا في جمعية «الإتحاد والترقي»:

كانت الدولة العثمانية حينذاك ـ وكما أسلفنا ـ تمر بمرحلة ضعف شديد وتخبط في الإدارة السياسية والإقتصادية والعسكرية، الأمر الذي حدا بالعديد من المثقفين وقياديي الجيش للانضمام إلى

جمعية «الإتحاد والترقي» منبهرين بشعاراتها البراقة والجذابة، مثل: إطلاق الحريات، وقيام الحياة النيابية، وإعلان الدستور، بيد أنها في واقع الأمر كانت تخفي وراء هذه الشعارات السم الزعاف، والحقد على الإسلام، ومحاولة اقتلاع جذوره من الأمة التركية! إذ كان أكثر المنتمين إلى هذه الجمعية ينتمون أصلاً إلى الجمعيات الماسونية اليهودية، ويعملون على تحقيق أهداف يهودية بحتة كما سنرى. . !

انخرط أنور باشا كغيره من الضباط في صفوف هذه الجمعية، ظناً منه ـ وهو الشاب المتحمس ـ أنها ستساهم في حل المشكلات التي تواجهها الدولة العثمانية، فتحمس لها، ولنشاطاتها، فغدا أحد أبرز ناشطيها على الإطلاق، حيث كان عضواً بارزاً في هيئة الإدارة المركزية في «سلانيك»، وضابط اتصال بين الهيئة، وباقي الفروع في المناطق الأخرى.

وعندما رفض السلطان عبد الحميد الثاني عام 1901م، عرض اليهود في مساعدة الدولة العثمانية مادياً لإنقاذ إقتصادها المتردي مقابل إنشاء وطن صغير لليهود في فلسطين، قام الإتحاديون جراء ذلك برفع نبرة الاعتراضات على سياسات السلطان عبد الحميد الثاني تحت العديد من الدعاوى المختلفة، وهي وإن كانت في بعضها صحيحة، إلا أن الغاية الحقيقية من هذه الدعاوى هو إزاحة هذه العقبة الكأداء ـ أي السلطان عبد الحميد ـ عن طريق اليهود، لتحقيق حلمهم التاريخي بإنشاء دولتهم في فلسطين. فحاولوا في تموز/ يوليو عام 1908م الانقلاب على السلطان، فأحدثوا فوضى

وهرجاً ومرجاً، عندما فتحوا السجون ليخرج منها المجرمون والقتلة وقطاع الطرق، ليعيثوا في الأرض فساداً، ولكن الجماهير المسلمة تعلقت بالسلطان، والتفت حوله كخليفة لهم، وأبدت له الولاء والطاعة، فلم ينجح الانقلاب هذه المرة. ولكن بعد عدة أشهر قامت فئة من كبار الضباط بالقيام بالانقلاب الثاني ليعزلوا السلطان عبد الحميد في آذار/مارس عام 1909 م، وقد كان على رأس هؤلاء الضباط أنور باشا، الأمر الذي مهد الطريق فيما بعد لمصطفى كمال أتاتورك، بدقّ آخر مسمار في نعش الخلافة الإسلامية، وإلغائها في العام 1924م.

- الإتحاديون والحرب العالمية الأولى:

بعد ذلك، تسلم الإتحاديون زمام الحكم رغم أنهم قد نصّبوا خليفةً صورياً لا يملك من الأمر شيئاً، فرزحت الدولة العثمانية تحت مغامرات تلك الفئة من الضباط ومن أبرزهم: طلعت باشا وهو الصدر الأعظم، وجمال باشا وهو قائد الجيش الرابع في الشام، وأنور باشا وزير الحربية الذي تقلّد هذا المنصب وهو لم يتجاوز الثلاثة والثلاثين عاماً. كان الثلاثة ممن يفتقدون الخبرة السياسية، خصوصاً في مجابهة دول لها باع طويل في اللعب على حبال السياسة، وفنون إخضاع الدول والشعوب، مثل: بريطانيا وفرنسا، وتجلى ذلك حينما كانت نُذُر الحرب العالمية الأولى تلوح في الأفق، فزجّ أولئك الضباط بالدولة العثمانية إلى أتون الحرب، وقوفاً إلى جانب حليفتهم ألمانيا التي كانت في أوج غبطتها لهذا التحالف ضد أعدائها التقليديين: فرنسا وبريطانيا وحلفائهما، التي

لم يكن العثمانيون في أي حال من الأحوال على استعداد لخوض أية حروب معها، وذلك لحجم الفارق الهائل بين الطرفين من حيث الجهوزية والأعداد والتسليح.

دارت رحى الحرب في العام 1914م، وتعاقبت الخسائر وترادفت الهزائم، وأخذت رقعة الدولة العثمانية تنقص تدريجياً من أطرافها، إلى أن انتهت الحرب في العام 1918 بهزيمة شنيعة للدولة العثمانية وألمانيا، بل قد احتلّ الحلفاء عاصمة الخلافة إستانبول، فرفع الإتحاديون راية الاستسلام البيضاء للحلفاء، وأقاموا حكومة انتقالية تدير شؤون الدولة، وقرر ثمانية من قياديي الدولة مغادرة الدولة خشية على أنفسهم من تداعيات الحرب، سواء من قِبَل الأعداء، أو من أفراد الشعب العثماني المفجوع بكرامته، فركبوا سفينة ألمانية تقلّهم إلى جزيرة القرم، ووصلوها وقد أعدت ألمانيا لهم قطاراً يحملهم إلى برلين إلى حيث منفاهم، ولكن أنور باشا فرّ خلسة من القطار وهم في طريقهم إلى برلين.

ـ أنور باشا إلى روسيا:

سافر أنور باشا إلى موسكو عاصمة البلاشفة الشيوعيين في روسيا الذين قاموا للتوّ بالانقلاب على الحكم القيصري عام 1917م، وأقاموا على أنقاضه حكومة شيوعية، وكان هؤلاء البلاشفة قد منحوا الوعود لأنور باشا بتقديم الدعم العسكري للعثمانيين ضد بريطانيا عدوّهم المشترك، وكان أنور باشا الذي يتوقّد حماساً. وإباءً للذل والهزيمة، يرى أن المعركة لم تنتهِ بعد، فمكث مع البلاشفة ردحاً من الزمن، يروح ويغدو عليهم

أملاً بإنجاز وعودهم. ولكنه لم يجد منهم غير الكلام والأماني العِراض والمماطلة.

اتضح لأنور باشا فيما بعد عمق الهوة بين ما يرمي إليه، وما يرمي إليه السوفيات، إذ هو يريد إعادة العزة للإسلام ممثلة بإرجاع الهيبة المفقودة للدولة العثمانية، وهؤلاء يرمون إلى تكريس هزيمة الإسلام في تركيا، لا سيما بعد أن اتضح أنهم كانوا على إتفاق مع كمال أتاتورك بعدم تقديم أي دعم لأنور باشا! وتأكّد له ذلك حينما أماط البلاشفة الشيوعيون اللثام عن وجوههم، فقاموا بعمليات وحشية لاجتثاث الإسلام من جذوره بمنجلهم الأحمر في بلاد التركستان الإسلامية. وقاموا فيها بارتكاب مجازر ضد المسلمين، وانتهكت فيها الأعراض، وأهدرت الحرمات.

وكشّرت الأنياب، وامتد مخلب وعوّت ذئاب البيد والفلوات ودوّت جيوش الغاب تسحق دونها دياراً وترمي شاهق الذروات تمزّق أوصال البلاد غنائماً تناهبها في جهرة وبيات، فما كان من أنور باشا إلا أن هبّ كالليث لنجدة إخوانه هناك، فالتحق بكتائب المجاهدين، موظّفاً كل خبراته العسكرية في القيادة والحرب في تنظيم كتائب المجاهدين، وقام بتحريض الأهالي للجهاد، ومعلياً لرايته ضد الروس، فنظم قوة عسكرية عصرية التشكيل، واهتم بترقية أحوال المسلمين هناك من كل النواحي العلمية، والصحية، والأدبية، والمادية، وأنشأ مصنعاً للذخيرة ليكون مدداً للقوات المجاهدة، فانضم إليه الأهالي من كل حدب وصوب، والتفّوا حوله حباً فيه لِما لمسوا فيه من صدق وعاطفة إسلامية متوهّجة.

وشرعت كتائب المجاهدين في العمليات الجهادية ضد الروس، فحققت إنتصارات أبهرت العالم بأسره، على الرغم من اتساع الفارق بين الجيشين سواء من ناحية التسليح، أو العدد، فاسترجعت كتائب المجاهدين خمس ولايات من أصل تسع ولايات اجتاحها البلاشفة، واستمر الجهاد وكتائب المجاهدين بتحقيق النصر تلو الآخر.

ولبث أنور باشا في جهاده ضد الروس أحد عشر شهراً ضرب فيه أروع الأمثلة من الصمود والشجاعة، الأمر الذي أرّق قادة البلاشفة وأقضّ مضاجعهم، فجرّدوا له حملة جديدة قوامها ثمانون ألفاً يقودهم جنرال روسي اسمه قامانييف، والتحم الجيشان عند بلد اسمه بالجوان، ولكن كتائب المجاهدين اضطرت بسبب نقص الذخيرة إلى التراجع، وهنا ظهرت مشكلة أخرى وهي قلة الضباط في كتائب المجاهدين حيث فقد أنور السيطرة على جناحي الجيش، فاستطاع العدو اختراق ميمنة المجاهدين، فجاء أنور ليقود الميمنة بنفسه، إلا أن الروس كانوا قد أعدوا له كميناً نصبوا فيه الرشاشات، فوقع أنور في الكمين وتم أسره واقتياده إلى سمرقند، وعلى إثر أسره انهزمت كتائب المجاهدين في تلك المعركة، وفي أول يوم من أيام عيد الأضحى المبارك أُعلن عن موت أنور باشا، وهو لم يتجاوز الأربعين عاماً، وكان ذلك في أول أيام عيد الأضحى لعام 1338 هـ، الموافق عام 1922م.

فاجتمع ثلاثون ألفاً من الأهالي وعملوا له جنازة هائلة لم تشهد لها تلك البلاد مثيلاً، وواروه التراب، ويقول الأمير شكيب

أرسلان: «وأحبه أهالي تلك البلاد حباً جماً، لما رأوه من تواضعه، ودماثة أخلاقه، وتوطئته كنفه لخاصتهم وعامتهم، وقد أحدثت ثورته هذه انتباهاً لا يوصف في تلك البلاد».

ويضيف الأمير بأن الشرقيين في الهند وغيرها لم يكونوا ـ لفرط حبهم لأنور باشا ـ يصدقون بخبر وفاته، إذ يقول: «ومع هذا فغرام الشرقيين بأنور كان يحدو جرائدهم على ترجيح خبر بقائه حياً، وما زالوا يلهجون بذلك حتى أعلن الأمير الالاي علي رضا بك نائب أنور بياناً في الجرائد الهندية يقول فيه: «مضى زمن على شهادة الغازي أنور باشا الذي كان يجاهد لتحرير تركستان فهو اليوم ليس في أفغانستان ولا في إيران، ولا على حدود الهند، بل قد انتقل إلى جوار ربه الذي جاهد لنيل مرضاته بماله ونفسه. . . فرجاؤنا من مسلمي الهند أن لا يجددوا أحزاننا بنشر الأخبار الكاذبة عنه، بل أن يسألوا الله تعالى له المغفرة والجنة».

سيد درويش
(1892 ـ 1923)

الحديث عن سيد درويش لا يكاد ينتهي إلا ويبدأ من جديد. إن الجو الذي خلقه سيد درويش بموسيقاه أثر بعمق في وجدان الناس واستمر أثره لعشرات السنين، ولا زالت موسيقاه تحدث نفس الأثر كلما سُمعت ولا يمل المرء من تكرار سماعها، إذ أنها تميزت تميزاً فريداً في الأصالة وحسن التعبير. والحقيقة هي أن فن سيد درويش جزء من تراث أمة تعتز بمبدعيها كما تعتز بأصالتها، وهو جزء من كفاح شعب متصل من أجل آمال تحققت وآمال لم تتحقق بعد.

كتب كثيرون عن سيد درويش وظهرت أعماله في الإذاعة والمسرح والسينما والتليفزيون بعد وفاته بسنوات طويلة، وهو هنا يختلف عن غيره من الفنانين الذين استمرت أعمالهم بعد وفاتهم، إذ أن موسيقاه قد ظهرت ثانية بعد فترة طويلة من التواري زادت على ثلاثين عاماً أعقبت وفاته المفاجئة عام 1923 والتي ما زالت لغزاً محيراً.

فكيف تعود وبقوة بعد هذا الانقطاع الطويل وتنتشر في أجيال لم تعاصر سيد درويش ولم تسمع أعماله قط. صدر أيضاً

عن سيد درويش العديد من الكتب والمقالات، ونحاول هنا التركيز على الجوانب الفنية في أعماله ومماته أكثر من أحداث حياته.

ـ رحلة فنان:

ولد سيد درويش مرتين، الأولى هي ولادته الجسدية لأمه وأبيه في الإسكندرية عام 1892، والثانية ولادته الفنية لوطنه وأمته في القاهرة عام 1917.

من أسرة بسيطة في أحد أحياء الإسكندرية العريقة وهو كوم الدكة ولد الطفل سيد درويش. وحي كوم الدكة هذا حي غريب في كل شيء، فهو على ربوة عالية في وسط المدينة تطل على أحياء الوسط الراقي بينما تفصله عن ذلك الوسط حواجز إجتماعية واضحة، كوم الدكة ليس فيه مدرسة، فقط كتاب صغير لتحفيظ القرآن الكريم وتعليم بسيط، بينما في الخارج مدارس أجنبية ومسارح وشركات وجمعيات خيرية دولية نشطة، والحي كما لو كان قرية في وسط المدينة.

انتمى سيد درويش مباشرة إلى الاثنين معاً، حيه الشعبي ومدينته التي جمعت ثقافة أوروبا كلها، وهكذا جاء فنه أيضاً، أصيلاً شعبياً لكنه التف في ثوب حضاري متقدم للغاية.

لم ينشأ سيد درويش في أسرة فنية ولم يجد أحداً يشجعه على السير في اتجاه الفن، بل على العكس لقي التعنت والتعنيف والإكراه على عمل أشياء لم يجد فيها إحساسه بذاته، وفي ظل

ظروف معيشية غاية في القسوة كان الفن بالنسبة لمثله ترفاً لا يمكن لمسه.

حمل الفتى الصغير مسؤوليات أكثر من طاقته فقد توفي والده وهو في السابعة، وحملته أسرته على الزواج المبكر في السادسة عشرة من عمره، واضطرته تلك المسؤوليات إلى العمل مبكراً من أجل الأسرة الجديدة وهو لم يكمل تعليمه بعد.

في هذه الظروف كان الفتى الصغير يبحث عن وسيلة للتعبير عما في نفسه من ضغوط وعن أحلامه في الحياة، فلم يجد أفضل من الموسيقى، وانجذب بحسه العالي إلى ما سمعه من أساتذته في المدرسة وبدأ يبحث بنفسه عن مصادر أخرى لهذا الفن فأخذ يتردد على الأماكن التي تقدم الفنون في مدينته الهادئة الإسكندرية، المحلّي منها والأجنبي، ثم بدأ يردد ما حفظه على أسماع أصدقائه.

كان سيد درويش طالباً بالمعهد الديني في مسجد أبي العباس المرسي الشهير، لكن أصدقاءه وجدوا في الشيخ الصغير موهبة تستحق الاستماع إليها فدعوه لإحياء حفلاتهم العائلية، وسرعان ما انتشر الأمر فطلبه آخرون وعرضوا عليه أجراً مقابل ذلك فقبل.

حاول الشيخ عندئذ العمل بالفن لكنه لم يفلح، ومن أعاجيب القدر أنه عندما استسلم لضغوط الحياة وبدأ يعمل كبنّاء لحساب أحد المقاولين فإذا بهذا العمل نفسه يقوده إلى أبواب الفن، فها هو المقاول يكتشف فيه موهبة ذات فائدة عظيمة عندما سمعه يغني وسط العمال وهم يرددون غناءه، لم يكن المقاول فناناً لكنه، تماماً

كشركات الإنتاج، ومن زاوية مصلحية بحتة، عرض على سيد درويش التفرغ للغناء للعمال بينما يحتفظ بنفس الأجر، ووجد أن غناءه أثناء العمل يزيد من حماس العمال ويجعلهم يعملون بلا كلل أو ملل، فاستراح الشيخ الصغير من عناء العمل وتفرغ للغناء.

في العام 1909 يتدخل القدر مرة أخرى فيسمع غناءه رجلان من الشام كانا يجلسان مصادفة على مقهى بجانب العمارة التي يعمل فيها الشيخ سيد وهما أمين وسليم عطا الله صاحبا فرقة مسرحية تعمل في الشام. عرض الرجلان عليه على الفور العمل بفرقتهما فقبل الشيخ سيد وسافر في أول رحلة له خارج مصر وكان عمره حينذاك 17 عاماً، لكنه لم يمكث غير عشرة شهور لم يوفق فيها مادياً لكنه جمع تراثاً موسيقياً قيماً خاصة بعد لقائه بالموسيقي المخضرم عثمان الموصلي.

في العام 1912 التقى سيد درويش بعثمان الموصلي مرة أخرى في رحلة ثانية إلى الشام مع نفس الفرقة وأكمل خلال تلك الرحلة ما كان يتوق إلى جمعه من مواد التراث وعاد بعد عامين وقد أحضر معه العديد مما عثر عليه هناك من الكتب الموسيقية.

في العام 1914 عاد سيد درويش للعمل في مقاهي الإسكندرية لكنه لم يكتف بتقديم ما حفظه عن الأقدمين كالشيخ سلامة حجازي، ولكنه بدأ يبدع ألحانه الخاصة فقدم أول أدواره يا فؤادي كما ظهرت أغانيه القصيرة السريعة إلى الوجود وغناها بنفسه كما غناها غيره من المطربين، وبدأ نجمه يعلو في المدينة حتى سمع عنه الشيخ سلامة حجازي وقرر أن يذهب لسماعه بنفسه.

ما أن سمعه الشيخ الكبير حتى أثنى عليه وعلى الفور، ومثلما حدث مع أمين وسليم عطا الله، عرض عليه العمل في فرقته بالقاهرة فقبل الشيخ سيد.

كان الشيخ سلامة حجازي هو الفنان الأول في مصر في ذلك الوقت وقد جابت شهرته الآفاق لما تمتع به من حنجرة ذهبية وأداء عال إلى جانب رقي مادته، وكان هو بطل عروض فرقته التي قدمت المسرح العالمي معرباً وغنى فيها الشيخ سلامة القصائد القوية، ولكن ما عرضه على الشيخ سيد لم يكن دوراً في إحدى رواياته بل غناء بين الفصول، وهو تقليد معروف في ذلك الوقت لطول الزمن بين الفقرات، وقد استفاد منه محمد عبد الوهاب لاحقاً.

وبدأ الشيخ الصغير يغني، لكنه تلقى استقبالاً فاتراً من الجمهور الذي تعود صوت سلامة حجازي، وأصيب الشيخ سلامة نفسه بصدمة جعلته يخرج إلى الجمهور ليقدم سيد درويش قائلاً: «هذا الفنان هو عبقري المستقبل»، لكن الشيخ سيد أصيب بإحباط كبير جعله يقفل عائداً إلى مدينته في اليوم التالي.

في العام 1917 عاد الشيخ سلامة ليكرر نصيحته للشيخ سيد بالذهاب إلى القاهرة ولكنه هذه المرة عرض عليه عرضاً آخر أقوى، فكان الشيخ سلامة مقتنعاً تماماً بموهبة الشيخ سيد، ولذلك طلب منه التلحين ولفرقة جورج أبيض ولرواية كاملة هي فيروز شاه.

كانت فيروز شاه تجربة خاصة من جورج أبيض الذي اعتاد المسرح الجاد وقرر أن يخفف شيئاً من مادته في هذا العرض كي

يجتذب جمهوراً أكبر مثل ذلك الذي يرتاد المسرح الكوميدي، ولم تنجح تجربته لكن الجمهور جذبه شيء جديد هو ألحان سيد درويش، لقد تركت انطباعاً بأن تياراً فنياً جديداً أتى وأنه أقوى من أن يعرض مرة واحدة.

لم يكن جمهور تلك الليلة فقط هو المتأثر ولكن تناثرت الأخبار إلى الفرق الأخرى المنافسة التي عزمت على استثمار الحدث لصالحها فتسابقت لاكتساب سيد درويش إلى جانبها وأغدقت عليه لاجتذابه.

في خلال شهور أصبح سيد درويش يلحن لجميع الفرق المسرحية في القاهرة وانضم لفرق: نجيب الريحاني، علي الكسار، منيرة المهدية، وكان عطاؤه غزيراً حتى قيل عنه أن باستطاعته تلحين خمس روايات في شهر واحد.

في العام 1919 اندلعت الثورة الشعبية بقيادة سعد زغلول وكان للشيخ سيد الفضل في تغذيتها بالأناشيد الوطنية والأغاني التي تعرضت لكل ما هو وطني، وفي طريق الثورة على القصر الفاسد والإحتلال الأجنبي قدمت روايات محلية احتوت على كثير من الرمز ضد الاستبداد وأعلت كثيراً من شأن القيم والرموز الوطنية والشعبية، وقام المسرح بدور كبير في هذا الاتجاه وكانت ألحان سيد درويش هي السبب في نجاح هذه المسارح والفرق بانتشارها العارم بين الناس وبسرعة فائقة.

غير أن طموحات سيد درويش لم تكن مسرحية ولم تكن مادية بل كانت موسيقية بالدرجة الأولى، هو يريد موسيقى أفضل، وإن

كان المسرح هو الوسط الملائم فليكن، لكنه اصطدم بإدارات تلك الفرق التي تريد من الهزل كما لا بأس به إلى جانب الجد، كما تريد تقليل النفقات ما أمكن، فعمل على إنشاء فرقته الخاصة ليستقل بنفسه.

في العام 1920 أنشأ سيد درويش فرقته الخاصة وقدم بها روايات العشرة الطيبة لمحمد تيمور وشهرزاد لبيرم التونسي والباروكة الإيطالية.

لم يكن سيد درويش وحده في الساحة الفنية وقتها، فقد كان هناك عملاقان عالمان هما داود حسني وكامل الخلعي، وهما مصريان أجادا التلحين خاصة للمسرح وقاما بتلحين أعقد النصوص حتى الأوبرا، وكان على سيد درويش، الذي لم يختلط بهما، منافستهما وأن يخرج من تلك المنافسة متفوقاً وبسلام! وقد كان له ذلك.

وربما كان سر ذلك في أن سيد درويش لم يعتبر نفسه محترفاً في أية لحظة، كان هاوياً إلى درجة العشق، عشق الفن والجمال والحرية والتعبير، ولم يكن الفن عنده مهنة كغيرها لكسب القوت، وإنما رسالة سامية وواجب وطني. ويذكر عنه رفيق دربه بديع خيري أنه عندما عانت فرقته من مصاعب مادية كان ينزل إلى وسط البلد وهو مفلس فيسمع ألحانه تقدمها الفرق الأخرى فيعود إليه إحساسه بالسعادة وينسى ما كان فيه من هم.

في العام 1921 قرر سيد درويش بعد نجاحه أن يكتب عن الموسيقى، فكتب للصحافة مقالات موسيقية كان يقصد بها توعية

الجمهور والتثقيف الموسيقي العام واعتبر هذا الميدان الذي لم يرتَدْه أحدٌ قبله أحدَ واجباته تجاه الرسالة الفنية التي حمل لواءها، وكان يختم مقالاته بتوقيع «خادم الموسيقى سيد درويش»، ثم قرر أن ينشر كتاباً يضم نوتات ألحانه واتفقت معه إحدى الصحف على نشر الكتاب في حلقات.

أصبح سيد درويش سيد درويش، ولم يكن هناك باب إلا وطرقه من أجل إيصال رسالته والمشاركة في المد الشعبي والقومي الصاعد حينذاك بكل ما يستطيع من طاقة.

وهو على تلك القمة تمنى سيد درويش أن يفعل شيئاً طالما حلم به، أن يذهب إلى أوروبا، وإيطاليا بالذات موطن الموسيقار فيردي محب مصر، كي يستزيد من العلوم الموسيقية ويقدم ألحانه في أفضل صورة.

في العام 1923 استعد سيد درويش للسفر لكن القدر لم يمهله ووافته المنية في الإسكندرية مسقط رأسه عندما ذهب إليها ذات فجر ليكون في استقبال الزعيم سعد زغلول العائد من المنفى، وبينما كان الشعب في فرحة غامرة بعودة زعيمه كانت أسرة سيد درويش تبكيه في هدوء حزين ولم يتنبه أحد في الخارج إلى وفاة روح الثورة سيد درويش.

- موت سيد درويش:

في اليوم الذي وصل فيه سيد درويش إلى الإسكندرية لاستقبال سعد زغلول كما أسلفنا دعاه أحد أصحابه وهو من عائلة الجريتلي

إلى العشاء معه، وكان سيد يشرف على تدريب إحدى المطربات على الغناء، وكانت فاتنة ويعشقها سيد درويش وكذلك صديقه، وقدم له كأساً من الشراب ودسّ له فيه كمية كبيرة من المورفين لم يتحملها قلب سيد درويش فتوقف عن الخفقان، ومات الرجل مسموماً[1].

ـ موسيقى سيد درويش:

كان سيد درويش يستلهم ألحانه من الألحان الشعبية البسيطة التي يرددها الناس في مناسبات مختلفة، وكان يستمع إلى كافة طوائف الشعب من باعة وحمّالين وسائقي العربات وسقايين وفلاحين وعمال وغيرهم، وكان له القدرة على تحويل تلك النغمات البسيطة إلى ألحان ذكية يستطيع كل الناس ترديدها بسهولة.

يحكي عنه صديقه الكاتب بديع خيري أنه كان يصطحبه إلى حي بولاق في القاهرة ليستمع إلى بائع عجوة ينادي في نغمات جميلة مردداً «على مال مكة.. على مال جدة.. مال المدينة يا شغل الحجاز»، وظهرت تلك النغمات في لحنه الشهير «مليحة قوي القلل القناوي».

ـ التعبير الموسيقي عند سيد درويش:

تتلخص مدرسة سيد درويش الفنية في مبادئ أساسية هي:

---

(1) «**موسوعة أشهر الاغتيالات السياسية في العالم**»، إعداد فهد الساكت، دار أسامة للنشر والتوزيع، عمان ـ الأردن، ط1، عام 2000، ص 176 ـ 177.

- اختيار الموضوع والكلمات.
- التعبير عن الموضوع والكلمة باللحن.
- اختيار النغمات ذات الجذور الشعبية المصرية.
- صياغة الجمل اللحنية في أبسط صورة.
- صياغة الألحان في تراكيب حديثة متطورة وإيقاعات شابة مليئة بالحيوية. واستطاع سيد درويش التعبير عن هموم وطنه وآماله في أصدق صورة، باللحن والكلمة.

ومن أهم أسباب انتشار موسيقى وألحان سيد درويش أنها بسيطة وسهلة مع عمق نغماتها وتأثيرها القوي في النفوس، ولم تكن ألحانه تحتاج إلى أصوات محترفة لترددها، وقد كانت الأغاني السائدة في ذلك الوقت من أصول تركية غير معبرة عن البيئة والمزاج المصري ومليئة بالتراكيب المعقدة والزخارف اللحنية وهو ما كان معروفاً بـ «موسيقى الصالونات» يسمعها فقط خاصة العائلات والطبقة الأرستقراطية من الأتراك، كما أن موضوعاتها اقتصرت على الحب والغرام والهجر والفراق، لكن سيد درويش استطاع أن يجعل الغناء للجميع، وأحس المصريون لأول مرة في العصر الحديث بأن لهم موسيقاهم المعبرة عنهم وعن جذورهم ومشاعرهم.

عمل سيد درويش كثيراً على إيقاظ الروح الوطنية بين المصريين بألحانه وبما يختار لها من كلمات معبرة، بعضها من نظمه هو، والبعض الآخر من تأليف الشعراء الوطنيين، وكان أحياناً يعجب بكلمات منشورة في إحدى الصحف فيقوم بتلحينها على الفور دون معرفة مسبقة بمؤلفها، ومنها لحن «قوم يا مصري» لبديع خيري فقد

كان الشعور الوطني يوحد بين الكتاب والفنانين في وقت ساد فيه الإحتلال وفسدت السلطة، ولم يتقاض أجراً عن تلحينه لأعظم ألحانه الوطنية.

ويكفي النظر إلى بعض مقاطع أغانيه لكي نعرف عن ماذا يتحدث سيد درويش وما الذي يعبِّر عنه، ولكي ندرك النقلة الكبيرة التي أحدثها.

ـ في أنشودة أنا المصري:

أنا المصري كريم العنصرين.. بنيت المجد بين الإهرامين.

جدودي أنشأوا العلم العجيب، ومجرى النيل في الوادي الخصيب.

لهم في الدنيا آلاف السنين.. ويفنى الكون وهم موجودين.

ـ وفي لحن سالمة يا سلامة:

صفر يا وابور واربط عندك نزلني في البلد دي.

بلا أميركا بلا أوروبا ما في شي أحسن من بلدي.

ـ وفي نشيد قوم يا مصري:

قوم يا مصري مصر دايماً بتناديك، خد بناصري نصري دين واجب عليك.

شوف جدودك في قبورهم ليل نهار.. من جمودك كل عضمة بتستجار.

صون آثارك يا للي ضيعت الآثار. . دول فاتوا لك مجد خوفو لك شعار.

ليه يا مصري كل أحوالك عجب. . تشكي فقرك وأنت ماشي فوق دهب.

مصر جنة طول ما فيها أنت يا نيل. . عمر ابنك لم يعش أبداً ذليل.

ـ وفي أغنية طلعت يا محلا نورها:

طلعت يا محلا نورها شمس الشموسة. . ياللا بنا نملا ونحلب لبن الجاموسة.

ـ وفي لحن الصنايعية:

الحلوة دي قامت تعجن في البدرية. . والديك بينده كوكو كوكو في الفجرية.

ياللا بنا على باب الله يا صنايعية. . يجعل صباحك صباح الخير يا اسطى عطية.

ـ والنشيد الوطني:

النشيد الوطني الذي وضع سيد درويش كلماته مستوحياً إياها من كلمات الزعيم الوطني مصطفى كامل.

بلادي بلادي. . لك حبي وفؤادي. وهو نشيد الشعب الذي غناه في ثورة 1919 وهو النشيد الوطني الحالي بعد أكثر من 80 عاماً.

والأغنية التي انتقدت تجنيد الشباب بالقوة لخدمة الجيش البريطاني.

يا عزيز عيني وانا بدي أروح بلدي.. بلدي يا بلدي والسلطة خدت ولدي.

ـ آثار مدرسة سيد درويش في الموسيقى:

يقول الموسيقيون في مصر، كبارهم وصغارهم: «كلنا خرجنا من عباءة سيد درويش».

وهم يعترفون بذلك لأنه كان المجدد الأول في العصر الحديث، ولأن التطور الذي أحدثه كيفما وكما كان كفيلاً بمد من جاؤوا بعده من الفنانين بمدد لم ينفد بعد وقد مضت أكثر من ثمانين سنة على وفاته، وتكفي هذه الشهادة لإثبات مدى أصالة هذا الفنان. وكانت الموسيقى قبله من عزف وغناء وتأليف وتلحين لمئات السنين تهتم بالقوالب الشكلية والزخرفة بصرف النظر عن الجوهر والمضمون، واتفق في ذلك الفن التركي مع بقايا الفن الأندلسي من الموشحات وانفصال كلاهما بالتالي عن واقع الحياة والناس، وقد توجه سيد درويش بالموسيقى نحو الأصول الشعبية والتحديث في آن واحد.

سار على نهج سيد درويش كبار الملحنين في القرن العشرين، والذين لم تقتصر ألحانهم على مصر بل ذاعت في جميع الأقطار العربية، وهم محمد القصبجي، زكريا أحمد، محمد عبد الوهاب ورياض السنباطي، وأحدثت تلك الألحان

ثورة جديدة في الذوق العربي الموسيقي، وساهمت في إثراء الحركة الثقافية القومية.

والواقع أن المتتبع لآثار فن سيد درويش في أعمال الآخرين لا يجدهم فقط قد ساروا على منهجه وإنما يجد أيضاً مقاطع كاملة من أعماله في أعمالهم، وهم لم يستطيعوا حتى تحويرها أو تغيير معالمها فظهرت كما هي.

كثيراً ما وصف سيد درويش بالعبقرية، ومن مظاهر عبقريته أن عمره الفني لم يتجاوز ست سنوات وتوفي عن عمر 31 عاماً، لكنه أحدث ثورة هائلة في الموسيقى الشرقية.

استطاع لأول مرة في تاريخ الموسيقى العربية التعبير باللحن عن الكلمات والمواقف الدرامية.

أول فنان جعل من الموسيقى الشعبية فناً قومياً راقياً، ووضع أسس المسرح الغنائي التعبيري، وألف أعظم الألحان المسرحية.

ألف عشرة أدوار غنائية من مقامات مختلفة هي كم صغير في عالم الأدوار لكنها أفضل عشرة على الإطلاق.

وضع مقاماً موسيقياً جديداً أسماه زنجران. جعل الغناء للجميع بعد ما كان مقصوراً على المطربين المحترفين.

ظهرت آثاره الفنية في كل ما جاء بعده من موسيقى، ولم يستطع أحد حتى الآن تقديم أعمال موسيقية ترقى إلى مستوى أعماله.

واستحق سيد درويش لقب «أبو الموسيقى المصرية» حيث كانت منزلته الفنية في الشرق كمنزلة بيتهوفن بالنسبة للموسيقى الأوروبية.

- من ألقاب سيد درويش:

1 - أبو الموسيقى المصرية.

2 - فنان الشعب.

3 - خالد الذكر.

4 - الفنان الخالد.

5 - الشيخ سيد.

6 - مؤسس الموسيقى المصرية الحديثة.

7 - الأستاذ الأكبر.

8 - الموسيقار الأول.

9 - الموسيقار الخالد.

10 - نابغة الموسيقى.

11 - إمام الملحنين.

يعقوب إسرائيل دي هان
(1924 ـ ...)

يقول شلومو هيلل: «كنت أضع عبوات ناسفة شديدة الانفجار في كنيس في بغداد، فتحدث أصواتاً رهيبة، لكنها لا تقتل أحداً، حيث إنها كانت عبوات صوتية فقط، وذلك بقصد إخافة اليهود العراقيين ودفعهم إلى الهجرة إلى فلسطين.

ونتيجة لخدمات هيلل، أحد اليهود العراقيين، أصبح مسؤولاً عن تهجير يهود العراق، وفيما بعد صار وزيراً في إحدى حكومات تل أبيب. وبعد نصف قرن على تهجير يهود ما بين النهرين، تعود إسرائيل لتطالب بأملاكهم هناك، بزعم أنهم غادروا العراق تحت الرعب والخوف والقتل، على الرغم من اعترافات قادة المنظمة الصهيونية العالمية، بأنهم كانوا وراء تهجير مائة وثلاثين ألفاً، أصبحوا الآن مليونان ونصف المليون يعيشون في إسرائيل، ولم يبق من يهود العراق إلا بضع مئات، معظمهم من العجائز والشيوخ الذين فضلوا البقاء في العراق على الهجرة إلى إسرائيل. وكان لافتاً للنظر أن معابد اليهود في مدن العراق ظلت كما هي، رغم تعاقب الحكومات والانقلابات العسكرية، وفي أثناء الهجوم الأميركي ـ

البريطاني على بغداد، ظل ما بقي من يهود العراق في حماية السكان المحليين، ثم حاولت قوات الإحتلال أن تجعلهم تحت حمايتها بعد سقوط النظام العراقي، وبالرغم من ذلك وجدت إسرائيل الفرصة سانحة أمامها لتطالب بلعب دور أكبر في عراق ما بعد البعث، نظراً لوجود جالية كبيرة من يهود العراق فيها، خاصة أن معظمهم عمل في جهاز الموساد الإسرائيلي، بحكم اتقانهم اللغة العربية ومعرفة الخريطة العراقية جيداً.

وتتذكر إسرائيل خدماتها للغرب في أثناء الحرب الباردة بين الشرق والغرب، عندما استطاعت في آب/ أغسطس عام 1966 أن تجند العراقي منير روفة الطيار في سلاح الجو العراقي، لتحصل على الطائرة ميغ السوفياتية، التي كان الغرب تواقاً لمعرفة إمكاناتها الحربية. وبالفعل استطاعت إسرائيل أن تحصل للغرب على هذه الطائرة بمليون دولار رشوة للجاسوس روفة، الذي يقال إنه لا يزال على قيد الحياة في إحدى المدن الأميركية، وينتقل بين تل أبيب وواشنطن، كما يقال أيضاً إنه ظل على علاقة بأحد المسؤولين السابقين في الحكومة العراقية المنهارة.

أما الآن، وبعد انتهاء الحرب، فإن إسرائيل تحاول استغلال الأوضاع الجديدة في العراق، لإعادة المطالبة بما تسميه حقوق اليهود العراقيين من أموال وممتلكات تركوها بعد أن اضطروا إلى مغادرة العراق. وتشير مصادر إسرائيلية إلى أن إسرائيل سوف تلعب الدور الأبرز في الفترة القادمة، في محاولة لإحياء خط أنابيب البترول بين حيفا والموصل، وبالتالي الضغط على العالم العربي

للإسراع بتطبيع العلاقات العربية ـ الإسرائيلية، وإخافة بقية الدول العربية التي توجد فيها جاليات يهودية كاليمن والمغرب وتونس للسماح لليهود في تلك البلدان بالهجرة إلى إسرائيل مع أملاكهم كاملة.

وبرغم زيف الإدعاءات الإسرائيلية عن تهجير اليهود قسرياً في العراق، فإن إسرائيل لا تزال مصرة على الثأر من بغداد، ولم تكن سرقة لوحة السبي البابلي بعيدة عن أياديها، كما لم يتم تخريب المتاحف العراقية إلا من خلال رجالها الذين تسللوا إلى الأراضي العراقية قبل الحرب.

ويشير تاريخ اليهود العراقيين إلى أنهم بعد صدمتهم نتيجة السبي البابلي على يد نبوخذ نصر سرعان ما تأقلموا مع حياة الترف في بابل وأداروا ظهورهم لأورشليم. نصحهم نبيهم وقائدهم أرميا بأن يستقروا في وطنهم الجديد وأن يتزوجوا وينجبوا ويبنوا ويزرعوا ويدعوا لسلام المدينة لأن في سلامها سلامهم، وهو ما كان فاحتلوا المراكز المرموقة، وهناك زودوا أنفسهم بالتراث البابلي الذي قدر له أن يصبح أساس التراث اليهودي. وهناك كتبوا الكثير من أجزاء العهد القديم والتلمود البابلي الذي تأثروا فيه بشريعة حمورابي التي أصبحت مبادؤها أساس الشريعة الموسوية.

أما في القرن السادس قبل الميلاد فقد اتخذوا ذلك القرار الخطير في معارضتهم لفكرة الصهيونية عندما سقطت بابل بيد الفرس ومنحهم قورش حق الرجوع إلى فلسطين. ورغم كل ما بذله عزرا من مناورات وضغوط لحملهم على العودة، لم تستجب لندائه

غير أقلية صغيرة وآثر الآخرون البقاء في بابل، وصاغوا المبدأ الذي تمسك به اليهود عبر العصور وهو أن إعادة الدولة اليهودية يجب أن تتم بإرادة الله فقط وليس بسعي الإنسان.

وعندما ظهرت الحركة الصهيونية لم تلق أفكارها في الإمبراطورية العثمانية غير الازدراء والرفض.

ويروي الصهاينة أن الحاخام باشي في اسطنبول كان يبصق على الأرض كلما ذكر اسم هرتزل أمامه. حاول الصهاينة بمساندة الإنجليز ترويج أفكارهم في العراق في العشرينيات تنفيذاً لوعد بلفور فلم يلقوا أي تشجيع يذكر. وبدلاً من ذلك لعب قادة اليهود دوراً كبيراً في بناء صرح الدولة الجديدة. كان منهم ساسون الذي أسهم في صياغة الدستور العراقي كعضو في المجلس التأسيسي ثم كسب للعراق ملايين الدنانير من تعامله بالذهب خلال عمله وزيراً للمالية.

وتؤكد الموسوعة اليهودية الرئيسة على أن أزهى الفترات التي عاشوا فيها كانت في الأربعينيات حيث كان المجتمع العراقي يمر بمرحلة انتقالية، وكانت هناك صعوبات تكتنف حياة جميع الأقليات الدينية والعرقية وضمنها الأقلية اليهودية. وفي العام 1941 قامت مظاهرات معادية للجماعة اليهودية ولكنها كانت الأولى من نوعها.

وفي كانون الأول/ديسمبر عام 1934 أرسل السير ف. همفري السفير البريطاني في بغداد برقية سرية إلى وزارة الخارجية البريطانية قال فيها إن الجماعة اليهودية في العراق تتمتع بوضع أفضل من أية أقلية أخرى في البلاد وأوضح أنه ليس هناك عداء طبيعي بين اليهود

والعرب في العراق. ويبدو أن تقرير السفير البريطاني كان دقيقاً بصفة عامة، فيهود العراق كانوا مؤمنين بأنهم عراقيون أساساً يرجع نسبهم إلى أيام السبي البابلي. .

وكانت نسبة قيد يهود العراق في المدارس والكليات أعلى كثيراً من النسبة على المستوى القومي. فقد أوضح رافي نيسان اليهودي العراقي الذي هاجر إلى إسرائيل واستوطن فيها أنه على الرغم من أن اليهود العراقيين تركوا ممتلكاتهم خلفهم في العراق فإنهم أتوا معهم بشيء أكثر أهمية من المال وهو خبرتنا وعلمنا، على حد تعبيره. فثلث المهاجرين من يهود العراق تلقوا تعليماً لمدة أحد عشر عاماً على الأقل، وهي نسبة تعلو حتى على النسبة المقابلة بين أولئك القادمين الجدد إلى إسرائيل من أوروبا وأميركا.

وتوضح الموسوعة أن أكثر من 80 في المائة من أرباب الأسر المهاجرة كانوا من الحرفيين المهرة وأصحاب المحال التجارية والمديرين والمحامين والموظفين والمعلمين. وفيما يتعلق بمقدار المشاركة في الحكومة والسلطة فقد أعلنت الحكومة العراقية حرية الدين والتعليم والتوظف ليهود بغداد الذين لعبوا دوراً مهماً جداً في تحقيق رخاء المدينة وتطورها. وكان هناك ستة أعضاء يهود في البرلمان العراقي.

ورغم السلام والاستقرار اللذين كانت تتمتع بهما الجماعة اليهودية، فقد قرر الإسرائيليون جعل العراق هدفاً لنشاطهم. والعراق ـ مثلها في هذا مثل ليبيا ومصر وفلسطين ـ كان مطروحاً في وقت من الأوقات هدفاً محتملاً لخطة الاستيطان الإسرائيلي،

الأمر الذي كان كافياً في حد ذاته لإثارة التوتر بين أغلبية السكان والجماعة اليهودية. وعندما اقتصرت المخططات الصهيونية على فلسطين وتخومها، وتحولت الأنشطة الصهيونية عن أرض العراق وتركزت على يهود العراق، أسس أهارون ساسون جمعية في بغداد تدعى «اللجنة الصهيونية».

وأنشأت هذه المنظمة فروعاً لها في عدة مدن عراقية بلغت نحو 16 فرعاً وأرسلت وفوداً تمثلها إلى المؤتمرات الصهيونية، كما قامت بتنظيم جماعات شبابية لإعداد الشباب المهاجرين وطبع عدة نشرات شهرية بالعبرية والعربية وأسست مكتبات يهودية.

وكان اليهود المتشددون يقومون أحياناً - بغرض تسميم العلاقات بين يهود العراق وباقي الشعب العراقي - بتوزيع منشورات في المعابد تحتوي على شعارات استفزازية مثل «لا تشتروا من المسلمين»، متعمدين أن تصل هذه المنشورات إلى أيدي المسلمين. ونجحت الدعاية الصهيونية إلى حد ما في بذر الشقاق والمرارة، كما ألمح السفير البريطاني في برقيته عام 1934 لبيان أن منع النشرات الصهيونية من الصدور قد يكون في صالح اليهود أنفسهم.

ويبدو أنه برغم الجهود الصهيونية وبرغم تشاؤم السفير البريطاني فإن يهود العراق لم يكونوا منعزلين تماماً عن وطنهم. فبعد النشاط الصهيوني الطويل في العراق وبعد مظاهرات 1941 استأنف اليهود العراقيون حياتهم الطبيعية فأقاموا حياً يهودياً، واستثمروا مبالغ ضخمة في مجال البناء والمقاولات.

ورغم النشاط الصهيوني المكثف داخل العراق ورغم تورط بعض يهود العراق البارزين في هذا النشاط، لم تنشأ حالة هستيرية شعبية من ذلك النوع الذي يجتاح الرأي العام عادة في زمن الحرب وبصفة خاصة في أعقاب الهزيمة. وقد قال كبير حاخامات العراق للحاخام بيرجر عام 1955 «إننا نسمع أنكم في الولايات المتحدة لم تعاملوا مواطنيكم اليابانيين معاملة طيبة أثناء موجة الانفعال العاطفي التي أعقبت بيرل هاربر»، وكان يشير بذلك إلى اعتقال آلاف من الأميركيين اليابانيين خلال الحرب العالمية الثانية ووضعهم في معسكرات خاصة وقد لقي كثيرون حتفهم بسبب الظروف القاسية داخل هذه المعسكرات.

وهناك عدد من الحركات الصهيونية السرية قد تأسست في العراق سنة 1941، مثل «حركة الرواد البابليين» التي بدأت في تعليم الشبان اليهود كيفية استخدام الأسلحة النارية وتصنيع المتفجرات. وكونت الحركة جيشاً شبه مستقل داخل العراق كانت له أسلحته ومجندوه، بهدف تشجيع كل أشكال الهجرة.

بعدها شهدت بغداد عدداً من الحوادث فقد ألقيت شحنة ناسفة داخل مقهى اعتاد المثقفون اليهود الإجتماع فيه، ثم انفجرت قنبلة في المركز الإعلامي للولايات المتحدة. ومرة أخرى نجد أن هذا المركز كان مكاناً اعتاد الشباب اليهودي أن يجلسوا فيه ويقرأوا. وعندما انفجرت قنبلة ثالثة في معبد ماسودا شيمتوف، أودى الحادث بحياة صبي يهودي كما فقد رجل يهودي إحدى عينيه.

والغريب أن المؤرخين الإسرائيليين كانوا يصورون هذه الفترة

على أنها مذبحة جماعية أخرى ضد اليهود وهو ما أنكره عدد كبير من اليهود من ذوي الأصول العراقية بعد ذلك.

ويعترف شاؤول يهودا وهو رئيس الطائفة العراقية الأسبق في إسرائيل أنه في عام 1951 شاهد ذات مرة أحد اللاجئين الفلسطينيين ممن كان يعمل في أحد المحال الكبيرة في بغداد أحد رواد المتجر وعرف أنه ضابط إسرائيلي فأبلغ اللاجئ الشرطة العراقية عن وجود الضابط الإسرائيلي الذي قبض عليه ومعه شالومك تزلاه وخمسة عشر آخرين من أعضاء المنظمة السرية الصهيونية. وكشف تزلاه أثناء التحقيق عن حقيقة المخطط الصهيوني وأرشد الشرطة العراقية إلى مخابئ الأسلحة في المعابد. وقد حوكم العملاء من أعضاء المنظمة الصهيونية السرية بتهمة محاولة إثارة ذعر اليهود العراقيين لدفعهم للهجرة إلى إسرائيل وصدر الحكم بالإعدام على اثنين من هؤلاء العملاء وبالسجن لمدد طويلة على الباقين. وقال محاكم عراقي من سكان تل أبيب الآن: لقد كانت الأدلة من القوة بحيث لم يكن شيء ليمنع صدور الأحكام. والآن يحاول قدوري سليم ـ المواطن الإسرائيلي اليهودي العراقي الذي فقد إحدى عينيه في حادث معبد شيمتوف ـ الحصول على تعويض من الحكومة الإسرائيلية.

وقد أثارت مواقفه المتوالية ضد الصهيونية ونشاطه الفعال ضد الاستيطان الصهيوني استياء المؤسسة الصهيونية. فبدأت الصحف الصهيونية مثل «هآرتس» في مهاجمته بعنف ودعته بالخائن وأعلنت أنه عنصر خطر ينبغي التخلص منه. بيد أن هذا الهجوم المادي والمعنوي لم يثنه عن عزمه وعن كراهيته وعدائه للصهيونية التي كان

يراها الخطر الأكبر على اليهودية بل على القيم الإنسانية كلها. ونظم الصهاينة مقاطعة شاملة لمحاضراته في الجامعة الأمر الذي دعا دي هان إلى الاستقالة. وكان رد دي هان على هذه الاعتداءات قوياً وحكيماً، فقد نظم إجتماعاً شديد الأهمية بين الشريف حسين ملك الحجاز والأمير عبد الله أمير إمارة شرق الأردن والملك فيصل ملك العراق وبين كبار الحاخامات اليهود الأرثوذكس. وقد صعد هذا الهجوم الصهيوني ضد اليهود الأرثوذكس عامة ودي هان على وجه الخصوص. وقد تلقى دي هان العديد من التهديدات بالقتل ما لم يترك فلسطين فوراً. بل إنه تنبأ بموته حين قال لمراسلين صحفيين فرنسيين: «سوف ترون. سيقتلني الصهاينة، فهذا دينهم».

وفي29 حزيران/ يونيو عام 1924 كتبت إحدى الصحف الصهيونية محذرة: أن الخائن دي هان سيرحل إلى لندن ليخطب أمام مجلس العموم البريطاني ويحطم طموحات اليهود القومية.

وفي 30 حزيران/ يونيو عام 1924 تم اغتياله بالفعل وثبت تقاعس المستشفى التي نقل إليها عن إنقاذه، كذلك فقد تغاضت قوات الشرطة المكلفة بحمايته عن القيام بواجبها. وكان الصهاينة من الوقاحة بحيث إنهم اتهموا العرب بقتله وأرجعوا اغتياله إلى علاقة جنسية شاذة بينه وبين أحد العرب.

وقد اعترف قتلته بارتكاب الحادث في الثمانينيات بعد ما يزيد على نصف قرن من الإنكار، وبعد التلميح لعدة سنوات بأن يعقوب دي هان كانت تربطه علاقة شاذة مع أحد الشبان العرب، وأن هذا هو الذي تسبب في مصرعه.

السردار لي ستاك
(... ـ 1924)

غادر السير لي ستاك قائد الجيش الإنكليزي في السودان وزارة الحربية في القاهرة في الساعة الثانية بعد ظهر يوم 19 تشرين الثاني/ نوفمبر عام 1924، واستقل سيارته ومعه مرافقه العسكري السيد كامبل، ولما وصلت السيارة إلى تقاطع شارع الطرقة الغربي بشارع قصر النيل، خفف السائق السرعة بسبب مرور أحد القطارات، وفجأة انقض على السيارة بعض الشبان وفي أيديهم المسدسات، وأطلقوا الرصاص على السردار ستاك ومرافقه العسكري، وكانت إصابة السردار ستاك قاتلة، فمات يوم 20 تشرين الثاني/ نوفمبر 1924.

وتمكن البوليس من اعتقال ثمانية متهمين، وتقديمهم إلى المحاكمة، فقضى بإعدامهم، ثم خفض الحكم على عبد الفتاح عنايت بالأشغال الشاقة المؤبدة. وحدد يوم 23 آب/ أغسطس سنة 1925 لتنفيذ حكم الإعدام في المحكوم عليهم، وكانوا سبعة أشخاص وقد نفذ فيهم الحكم الواحد بعد الآخر.

جيء بالمحكوم الأول، وهو عبد الحميد عنايت ـ شقيق الأستاذ

عبد الفتاح عنايت ـ في تمام الساعة السابعة صباحاً، وكان في العشرين من عمره، ثابت الخطوات، يجيل على الحاضرين بنظرات حادة.. وتلي عليه الحكم.. وسئل هل يطلب شيئاً؟ فقال:

«لأ. مش عاوز حاجة.. بس عاوز أقول إني سأموت فداء مصر».

ومضت نصف ساعة قبل إحضار المحكوم الثاني المحامي شفيق منصور.. وكان في السابعة والثلاثين من عمره، ويبدو عليه الضعف والهزال.. وعندما سئل إذا كان يريد شيئاً قال:

«عندي كلام كثير عاوز أقوله.. أزاي تنفذوا حكم الإعدام قبل ما تسمعوني؟ دي مش أصول أبداً».

ولما قيل له أنه سمحت له فرص كثيرة للكلام.. قال: «إذن خلاص.. اعملوا اللي عايزين تعملوه».

وأحضر الثالث إبراهيم مولى، وهو خراط بعنابر السكة الحديدية، وعمره 31 سنة، وكان بادي الاضطراب، وبعد تلاوة الحكم سُئل ماذا يريد؟ فقال:

«أطلب الستر من الله.. ربنا عارف إني مظلوم».. ولما تعجله الجلاد إلى غرفة المشنقة صرخ إبراهيم بوجه الجلاد:

«على مهلك شويه يا سيدنا.. أنت خايف يغيروا فكرهم ويعفوا عني تقوم تضيع عليك المكافأة؟»

وكانت الساعة قد تجاوزت العاشرة، حينما جيء بالمحكوم عليه الرابع، علي إبراهيم محمد، أحد عمال السكة الحديدية،

وعمره 22 سنة. وعندما أخذ أركان حرب مصلحة السجون في تلاوة الحكم قاطعهم قائلاً:

«ما في لزوم تتعب نفسك في قراءة الحكم.. مش عايز إعدام زي بعضه»!

بعدها أحضر راغب حسن، وهو نجار بمصلحة الهاتف، وعمره 23 سنة.. ولما سئل عما يشتهيه! قال:

«ما عنديش حاجة غير أهلي.. ولما قيل له أن أهله زاروه أمس، قال: طيب اتفضلوا اشنقوني.. مستنين إيه؟»..

بعدها جيء بمحمود راشد المهندس بمصلحه التنظيم، وكان في الثالثة والثلاثين من عمره، وكان رابط الجأش، واثق الخطوات، بادي الثبات، وقبل تلاوة الحكم قال وهو يخاطب هيئة التنفيذ: «أنا لم أتفق على قتل مخلوق. وعلى كل حال أنا قاصد وجه ربي الكريم»..

ولما سئل عن رغبته الأخيرة قال:

«أريد تصحيح ورقة زواجي.. وعايز أدفن مع والدي في نفس مقبرته».. ولما وضع الجلاد الحبل في عنقه قال:

«إذا كنت أسأت إلى واحد منكم فالمسامح كريم»..

وجاء دور المتهم الأخير واسمه محمود إسماعيل، الموظف بوزارة الأوقاف وعمره 28 سنة، وكان أشجع المحكوم عليهم وأكثرهم ثباتاً، ولم تفارق الابتسامة شفتيه وهو يسمع تلاوة الحكم. وبعد تلاوته قال للحراس:

«لماذا تقيدونني بالأغلال؟ أنا قوي وشديد.. وأقدر أن أصعد للمشنقة لوحدي»..

ولما سئل هل يطلب شيئاً قال:

«دمي على رأس الذين ظلموني. أنا مش عايز أطلب حاجة أحسن تقولوا إني عاوز أطول عمري شوية».. ولما وضع الجلاد الحبل في عنقه قال:

«أنا وعائلتي فداء لمصر.. أستودعكم الله يا إخواني».

وتجدر الإشارة إلى أن أحمد ماهر، ومحمود فهمي النقراشي ـ وقد ماتا اغتيالاً فيما بعد ـ اتهما بالتخطيط لاغتيال السردار غير أن القضاء لم يثبت إدانتهما.

فوزي الغزي
(1891 ـ 1929)

من ثورة سوريا عام 1925 إلى
اغتيال المحامي فوزي الغزي
عام 1929.

ـ ثورة عام 1925 في حماه:

استمرت حالات التوتر وأجواء الثورة وحملات الفرنسيين التأديبية حتى سنة 1925. وكان فوزي القاوقجي ضابطاً برتبة كابتن في القوات الفرنسية بحماه. وكان الناس يتعجبون كيف أن ضابطاً مسلماً يتطوع في الجيش الفرنسي ويشترك في حملات إخماد الثورات. وكانوا يعتبرون ذهابه إلى جامع المسعود أيام الجمع وفي رمضان رياءً وكذباً ووسيلة من وسائل التغرير بالناس وخداعهم والتجسس عليهم.

ويقول أكرم الحوراني في مذكراته، الجزء الأول: بعد عشاء يوم الأحد، الرابع من تشرين الأول/أكتوبر عام 1925 سمعنا ونحن في البيت أصوات الرصاص والقنابل وعندما خرجنا نستطلع الخبر قيل لنا: لقد اشتعلت الثورة، والمجاهدون يهاجمون سرايا الحكومة

والثكنات العسكرية في قلب المدينة. فصعدنا على السطح المطل على المدينة نشاهد ما يحدث فيها وقلبي يطير فرحاً. . . وبعد ساعات شاهدنا قوة من الجيش المختلط[1] تدخل المدينة من الناحية الجنوبية، من حي المحالبة، فلم يعترضها أحد، بينما كان أزيز الرصاص يسمع حول السرايا. واستمر إطلاق النار طيلة تلك الليلة ونحن ساهرون قلقون، فتمكن الثوار من إحتلال السرايا، فنهبت وأحرقت وضاعت من جراء إحراقها وثائق وسجلات وحقوق كثيرة للمواطنين.

تحرقت كثيراً وأنا واقف على سطح المنزل في تلك الليلة، وتمنيت لو كنت كبيراً لأتصدى لهؤلاء الجنود، وكنت أقدِّر أن كميناً من بضع ثوار في تلك الأزقة الضيقة كان يستطيع أن يقضي عليهم ويمنع وصولهم لثكنة خان الشعبة التي تحصنوا فيها.

استمرت المعركة حتى اليوم الثاني، وأرسل الفرنسيون بعض الطائرات فقصفت المدينة قصفاً مريعاً، فتهدمت بعض البيوت والمنازل، وذهب من جراء ذلك أكثر من خمسمائة قتيل وجريح من الأهلين. وقد اشترك شباب عائلة الحريري بالثورة مع بعض الفلاحين والبدو، وكانوا يطلقون النار على الطائرات المغيرة من

---

(1) غزت فرنسا سورية بجيش مؤلف في معظمه من الفرقة الأجنبية ومن أبناء مستعمراتها (سنغال، مراكشيون، جزائريون) بقيادة فرنسية، وبعد إحتلالها سورية أنشأت ما سمي بالجيش المختلط الذي تكون من أبناء سورية مع من تبقى من العناصر السابقة، وقد حاولت فرنسا أن يكون الجيش من الأقليات الطائفية والمذهبية والعنصرية والقبلية، ثم أطلق على هذا الجيش اسم جيش الشرق.

الزاوية الحريرية المشرفة على المدينة، فقصفتهم الطائرات وهدمت بعض جوانب الزاوية وقتلت وجرحت عدداً منهم فاضطرت عائلة عز الدين الحريري أن تلجأ إلى بيتنا وكانت فرحتي شديدة باستضافة نعسان الحريري رفيقي في مدرسة دار العلم.

ـ القاوقجي يتحدث عن ثورة حماه[1]:

ويضيف أكرم الحوراني: قرأت فيما بعد في مذكرات الشهيد الدكتور عبد الرحمن الشهبندر عن ثورة حماه 1925 ما يلي:

«غني عن البيان أن حركة حماه كانت فريدة في بابها بين جميع الحركات التي حدثت في هذه الثورة السورية من حيث تعيين الوقت وإتفاق كلمة الزعماء وتطوع موظف كبير مثل الكابتن فوزي بك القاوقجي للعمل، وقد كتب إلي الكابتن فوزي بك عن ثورة حماه ما خلاصته:

تقرر نهائياً أن تكون الثورة مساء الأحد الواقع في 4 تشرين الأول/أكتوبر سنة 1925 وقت العشاء، فطلبت إلى القومندان كوستليه، المستشار الإداري لحماه، أن أخرج لتفتيش البدو بحجة منع أضرارهم عن القرى فلبى طلبي، وخرجت مع مفرزة

---

(1) فوزي القاوقجي من أبناء طرابلس في لبنان، انتسب إلى الجيش المختلط، بعد دخول الجيش الفرنسي إلى سورية برتبة كابتن أي رئيس، كان القاوقجي ذا كفاءة عسكرية نادرة في حرب العصابات التي اشترك فيها بسورية والعراق وفلسطين. ولمزيد من المعلومات عن فوزي القاوقجي يمكن الرجوع إلى مذكراته التي كتبتها له الدكتورة خيرية قاسمية، وقد نشرت هذه المذكرات في الثمانينات.

خيالة الاسكادرون الذي كان تحت قيادتي وطفقت أطوف بين هذه العشائر وأبث فيهم روح الكفاح بصورة علنية، فاتفقت مع المشايخ، وقد تخصص لكل منهم راتب ووظيفة يقوم بها ثاني يوم الثورة في حماه. وفي مدة خمسة أيام كانت جميع الاستعدادات تامة. فلما أزفت ساعة العمل أعطيت التعليمات المفصلة لجميع الزعماء.

وفي نحو الساعة الثامنة مساءً دخلنا حماه وهاجمنا جميع المخافر وتسلمنا أسلحتها وقبضنا على الدرك والشرطة، ثم سرنا إلى دار الحكومة حيث فيها كل قوة الدرك وفرقة من الجيش المختلط فهاجمناها أيضاً. وبعد معركة دامت حتى الساعة الثانية بعد منتصف الليل استولينا عليها عنوة وأحرقناها وقتلنا من فيها من الجنود ثم أخذنا نستعد لمهاجمة المواقع العسكرية الحصينة. وفي الصباح خرج فرسان البدو من الثكنات لملاقاتنا فرددناهم بخسارة عظيمة بعد معركة دامت نصف ساعة على جسر السرايا. ثم إننا طوقنا الثكنات فبدأت المعركة تشتد والنجاح حليفنا حتى تكبد العدو خسائر فادحة، وفقد أكثر من ثلثي جنده، واستسلم بعض المحافظين خارج الثكنات مع رشاشاتهم ولم يعد في طاقة المحاصرين الدفاع.. ثم وصلت طائرات العدو فأخذت تلقي قنابلها على المدينة فأسقطنا منها طائرتين، وقبيل الظهر وصلت نجدات قوية تمكنت من إنقاذ المحاصرين بعد معارك دامية. وقد ازداد في آخر الأمر عدد الأعداء زيادة عظيمة أدت إلى امتناع الكثيرين من وجوه حماه الذين جبنوا وحافظوا على الحياد، عن القيام بوعودهم وعهودهم. ولما أصبح الاستيلاء على الأماكن العسكرية المملوءة

جنوداً متعذراً قررنا الانسحاب إلى خارج المدينة لنقوم بالحركات الثورية مشتركين مع البدو. وكانت خسائر العدو لا تقل عن أربعمائة بين قتيل وجريح، في حين كانت خسارتنا خمسة وثلاثين[1].

وفي ليل السابع من الشهر انسحبنا إلى جهة الشمال وحملنا عربان الموالي على مهاجمة الفرسان الفرنسيين المتحصنين في مركز قضاء المعرة، وبعد معركة دامت أربع ساعات قهرنا العدو وغنمنا منه 35 رأساً من الخيل و42 بندقية وغير ذلك. وقد خسر العدو في هذه المعركة ثلاثة ضباط فرنسيين وسبعين جندياً وخسارتنا بدوي واحد».

ثم يعلق الدكتور الشهبندر على ذلك بقوله:

«إن السبب الجوهري في فشل ثورة حماه فشلاً ذريعاً هو إحجام الزعماء الأعيان الذين تآمروا على تنفيذها فلما ظهرت إلى حيز الوجود اختبأوا في بيوتهم ليروا ما يكون من أمرها. فإن نجحت فهم المؤسسون لها وأصحاب الشأن فيها، وإن فشلت فهم عنها معرضون.

على أن ذلك لا يعني أبداً أن ثورة حماه لم تأت بثمرة، بل على العكس كانت ثمرتها من أطيب الثمار لأنها ما أن هبت ريحها حتى صدمت أشرعة غاملان المنشورة في جبل الدروز فأقلعت بها

---

(1) يلاحظ أن القاوقجي يشير إلى عدد الخسائر في صفوف المجاهدين فقط. بينما سقط من السكان الآمنين أكثر من خمسمائة ضحية في مختلف أحياء حماه.

عنه. وتفصيل ذلك أن الجنرال سراي على أثر هبوب ثورة حماه طلب نصف القوى الموجودة مع غاملان على جناح السرعة، فأبى هذا، وطلب إما الانسحاب كاملاً أو البقاء كاملاً. لكن الجنرال سراي أصر فاضطر غاملان إلى الرجوع عن الجبل بقضه وقضيضه. ثم إن هذه الثورة سببت تجزئة الجيش الفرنسي وأرغمته على اتخاذ خطة الدفاع بعد ما كان مهاجماً، ومكنت الثوار فيما بعد من العمل في المرج والغوطة، والدخول إلى دمشق بذلك الظفر الذي كاد يقضي على فرنسا في سورية[1]».

ـ الفجيعة الكبرى باستشهاد الدكتور صالح قنباز:

كان أشد ما آلمنا في ذلك اليوم الأسود نبأ استشهاد الدكتور صالح قنباز بينما كان خارجاً من منزله ليحمل من الطريق أحد الجرحى لإسعافه فعاجله الجنود السنغال بإطلاق النار عليه، واحتلوا منزله ونهبوا محتوياته ومكتبته القيمة، فكانت خسارة المدينة به من أكبر ما منيت به، فبكيناه في البيت جميعاً، صغاراً وكباراً.

أما ذوات حماه فإن تخليهم عن الثورة بعد اشتعالها، وتهديدهم للقاوقجي بتسليمه للفرنسيين بعد إخفاقها، لم ينجهم من انتقام الفرنسيين، فقد اعتقل معظمهم ووضعوا في معسكر الشرفة، وشكل الفرنسيون مجلساً عسكرياً كان يعقد جلساته في مقهى الصالون، وهو صالة تحيط بها حديقة واسعة مطلة على العاصي».

---

(1) «مذكرات الشهبندر»، ص 81 ـ 84.

ـ عثمان الحوراني يتحدث عن ثورة حماه:

في عام 1946 عندما حقق الشعب جلاء القوات الأجنبية عن البلاد نشر الأستاذ عثمان الحوراني أحد قادة الثورة مقالاً ضمنه ذكرياته عن ثورة حماه عام 1925 ورد فيه ما يلي[1]:

«نحن الآن ليلة الخامس من تشرين الأول ما بين الأذانين، المغرب والعشاء والناس منتشرون على ضفاف العاصي وفي مقاهي الصيف، غافلون عما ستفاجئهم به الأقدار بعد حين مع الأذان. وكان نذير الثورة أذان العشاء، وشعار الثورة: الله أكبر.

علا صوت المؤذنين على المنارات، الله أكبر، وعلا صوت المظلومين من كل جانب: الله أكبر، وعلا أزيز الرصاص وهاجم المجاهدون في وقت واحد جميع المخافر والثكنات، أما المخافر فاستسلمت راضية، وأما الثكنات فصبت على المدينة ناراً حامية.

وتدفق المجاهدون من كل صوب إلى دار الحكومة، ففيها مستودع للسلاح وجنود ونفر من الدرك، فاستقبلوا المجاهدين بالرصاص، وكانت معركة حامية انتهت باقتحام الباب ودخولها عنوة ثم بإحراقها على الجنود الذين تحصنوا بالطابق العلوي منها، وظلت النيران تلتهب فيها إلى الصباح حتى أتت عليها برمتها مع مدرسة التجهيز القديمة الملاصقة لها.

سكن أزيز الرصاص حيناً، ومرت فترة قصيرة من الهدوء وظن

(1) احتفظت طويلاً بهذا المقال مقصوصاً، ومن المؤسف أنني لم أسجل اسم ولا تاريخ الجريدة التي نشرته، وهي على الأغلب جريدة محلية حموية.

جنود الاستعمار أن الثورة قد انتهت فخرجوا من ثكناتهم قبيل شروق الشمس، وأخذوا يقبضون على كل من يلقونه في الشارع. فهاجمهم فوزي الغزي ورجاله مع الشمس، وعلى جسر العاصي، فولوا الأدبار بعد معركة قصيرة، واعتصموا بالثكنات، وشدد عليهم فوزي الحصار فكانت المعركة الكبرى. وقد اشتركت فيها مدفعية الشرطة والطائرات، وارتفعت أعمدة الدخان وأكلت النيران عدداً كبيراً من المخازن والبيوت، وأتت في منطقة واحدة ـ هي منطقة الموقف المجاورة للثكنة ـ على نحو 120 دكاناً ومخزناً بما فيها من بضائع وأموال.

اشتدت المعركة وصمت الأذان من قصف المدافع وقذف الطائرات والقنابل اليدوية، ورصاص الرشاشات والبنادق، وعظم الهول، وكثر الضحايا من الفريقين.

أما فوزي فقد كان بطل المعركة، يقاتل وينظم خطط الهجوم. رأيته واقفاً مقابل الثكنة! ووراء الرشاش غير واجل ولا هياب، والفرنسيون يصبون عليه النار صباً. أرأيت المجاهدين يلقون بالحطب والعشب والبترول على باب الثكنة ليحرقوه ويلجوه، غير مبالين بالقنابل والرصاص المنهمر كالمطر! أرأيت مدينة الثورة يتهافت رجالها إلى ميدان الشرف والاستشهاد!.

أرأيت الشباب والشيوخ والنساء والأطفال يتساقطون كورق الخريف صرعى! أرأيت الأطباء يتعرضون للتهلكة في سبيل إنقاذ الجرحى! بل أرأيت إلى وحدة القلوب وقد أصبح الناس كلهم إخواناً!.

إنك لو حضرت تلك المعركة، وشهدت تلك الساعة لرأيت عجباً، ولملئت إعجاباً.

ودامت المعركة على عنفها وهولها إلى الظهيرة، فخف إطلاق النار من الثكنات، وأوشك أن تستسلم حاميتها، وغدا أكثر رجالها ما بين قتيل أو جريح.

وما راع الأهلين إلا نجدات المستعمرين تتدفق على المدينة، وتدخلها بمدافعها ورشاشاتها لتنقذ المحصورين، وهي تطلق نارها الحامية ذات اليمين وذات الشمال، على غير هدى من الهلع والفزع. وبعد قتال دام استبسل فيه الحمويون حتى نفد عتادهم، انسحبوا من المدينة في المساء. فأسرعت القوات الفرنسية ـ وأكثرها من السنغال ـ إلى إحتلال المرتفعات، وأخذت ترمي برصاصها على الشوارع والطرقات والمنازل والنوافذ، وعلى الذين يدفنون القتلى في المقابر، فاستشهد عدد من المسالمين أكثرهم من النساء والعجزة والأطفال.

ثم تغيب شمس ذلك النهار على كارثة كبرى هزت المدينة هزاً عنيفاً، وأدمت قلوب أهلها. فقد سقط علاّمة حماة وزعيم نهضتها الدكتور صالح قنباز صريعاً في ميدان الشرف والشهادة وهو يؤدي واجبه الإنساني والوطني. فكان الخطب جسيماً والمصاب عظيماً.

وكانت خسائر حماة يومئذ تفوق خسائرها في ثورة أيار/مايو 1945 في الأنفس والأموال والمباني، لأن الفرنسيين كانوا يطلقون نيرانهم عليهم من داخل المدينة ومن خارجها، ولأن الحكومة

بدركها وشرطتها وموظفيها كانت تأتمر بأوامرهم، ولم تكن في سورية قوات بريطانية تتدخل حين يروق لها التدخل فتوقف طغيان الفرنسيين.

وعلى كل حال فلن يضير حماة أن تكون سريعة الغضب جسيمة التضحية، إذا كانت بثورتها قد أسدت للوطن يداً بيضاء وأطالت سنتين في أجل الثورة السورية، وصيرتها في مصاف أعظم ثورات الدنيا، وجعلت ريح الثورة تهب على جميع البلاد فتشعلها ناراً على المستعمر الغاشم.

ولما سيطر الفرنسيون على المدينة اعتقلوا عدداً كبيراً من أهلها، ولا تسل عن تفننهم في تعذيب هؤلاء المعتقلين، ولا عما اقترفوه في المدينة من الجرائم والفظائع، فاللسان والقلم يعجزان عن وصفها.

أما الثائرون فقد تمزقوا أيدي سبأ تحت ظلام الليل، لأنهم لم يقرروا من قبل مكاناً يجتمعون فيه بعد المعركة.

فالقائد فوزي نجا من مخالب الفرنسيين، وكانوا جد حريصين على الانتقام منه والفتك به، فاجتاز الصحراء إلى العراق مع بعض إخوانه، وكنت من مرافقيه في رحلته. وخاطر فريق فسلكوا طريق الجنوب، ونجحوا في الوصول إلى الجبل العربي ومنهم السادة سعيد الترمانيني ومصطفى عاشور وعبد القادر مليشو وعبد الرحمن المط والدكتور خالد الخطيب وسواهم، وأوى كثيرون إلى مضارب الأعراب في الصحراء، وتوارى آخرون ينتظرون ما تأتي به الأقدار».

ويتحدث عثمان الحوراني عن دواعي الثورة والأيام القليلة السابقة لانفجارها:

«يزداد الاستعداد، وتكثر المؤتمرات والمؤامرات، والخلوات والمفاوضات. هنا وهناك، في الجبل والغوطة ودمشق، وفي حماة وحمص... ويتعاهد قادة الدروز وزعماء دمشق ويتواثقون. ويبعث فوزي برسله إلى شتى الجهات: فسعيد الترمانيني - وقد كان ساعده الأيمن - إلى دمشق وحمص وقرى الجراكسة، والدكتور الخطيب ومنير الريس ومظهر الدروبي (وكاتب هذه السطور) إلى دمشق والجبل، للاتصال بالقادة والزعماء ومتقاعدي الضباط. ويعود إليه رسله بكتاب من القائد العام سلطان باشا الأطرش، والزعيم الدكتور الشهبندر، وقد تم الإتفاق على ألا يعقد صلح منفرد، وعلى أن تثور دمشق وحماة وحمص وبعلبك في ليلة واحدة وهي ليلة المولد النبوي 12 ربيع الأول 1344 الموافق في 2 تشرين الأول/ أكتوبر 1925.

يعرض الأمر على الوطنيين في حماة، فيتحمس للثورة المتطرفون قائلين: نلبي نداء عبد الكريم، وننصر إخواننا بني معروف، ونرغم الفرنج على توزيع جيوشهم.

وينظر جماعة بمنظار العقل والحكمة فيقولون: إن شعبنا لم يبلغ من الوعي القومي والتنظيم والقوة المبلغ الذي يجعله أهلاً للثورة. فلنهيئ الشعب ولنكمل العدة، حتى إذا ضربنا نكون واثقين من حسن العاقبة.

ويشك فريق بإخلاص فوزي قائلين: كيف نطمئن ونسير تحت

قيادة رجل نجهل حقيقته وغايته؟ ألا يخشى أن تكون هناك خدعة؟ ولكن حماسة المتطرفين غلبت حكمة العقلاء وتردد المتشككين. وثارت حماة».

ـ فظائع الفرنسيين في حماه:

أعلن الفرنسيون، بعد انسحاب القاوقجي، السماح للناس برفع جثث القتلى من الشوارع والأزقة، وفرضوا على المدينة خمسة آلاف ليرة ذهبية وعدداً كبيراً من البنادق، وحددوا يوم 8 تشرين الأول/ أكتوبر 1925 موعداً لتسليم هذه الغرامة. ولما تأخرت المدينة عن تسليم الغرامة في الموعد المحدد أرسل الفرنسيون طائراتهم لقصف المدينة وخاصة حي الحاضر، فدمرت بعض المنازل، وسارع وفد من الأهالي يستمهل لجمع المال والسلاح، فأمهلته السلطة ثلاثة أيام سلمت في نهايتها الغرامة وجميع الأسلحة المفروضة.

ـ الفرنسيون ينكلون بأساتذة مدرستنا:

كنت حريصاً أنا ورفاقي التلاميذ على تتبع أخبار المحاكمات في المجلس العدلي، لا سيما وأن أستاذنا أحمد الوتار كان من المسجونين الذين تجري محاكمتهم.

وكان بعض أساتذتنا الآخرين قد فروا إلى خارج البلاد، كالأستاذ عثمان الحوارني الذي تولى أخي محيي الدين، بمساعدة قريبنا حسين الشقفة ـ الذي استشهد في ثورة عام 1945 ـ أمر تهريبه إلى العراق عن طريق البادية حيث التقى بالقاوقجي بعد أن اختبأ في

بيتنا عدة أيام، وكنت لا أنام الليل قلقاً وخوفاً على أستاذنا عثمان. ولما وصل الخبر باجتيازه الحدود تنفست الصعداء.

كان معظم أساتذتنا من خريجي المدرسة الصلاحية التي أنشأها الأتراك في القدس أثناء الحرب، وكان أحبهم إلى قلوبنا عمر يحيى وعثمان الحوراني وعبد الرحمن القات.

وقد سمعنا فيما بعد أن عثمان الحوراني عين في البحرين مديراً للمعارف، فاشتعلت أولى المظاهرات الوطنية في تلك الجزيرة العربية، فنفاه الانكليز على أثرها إلى الهند.. ثم عفي عنه فعاد إلى سوريا في الثلاثينات.

كان تأثرنا كبيراً على فراق أساتذتنا، وعلى الذين يحاكمون أمام المجلس العدلي، وكنت أتقصى أخبار الثورة يومياً، في جبل العرب والغوطة والقلمون وجبل الزاوية وشمال لبنان وجنوبه، كما كنت أجمع من الصحف المصرية المهربة سراً إلى سوريا كل ما يكتب من أنباء وتعليقات عن الثورة السورية، حتى تكونت لدي مجموعة فريدة ظلت في مكتبتي إلى ما بعد العام 1959 حيث ذهبت مع كثير من أوراقي الأخرى ضحية هجمات التفتيش المتتالية التي كانت تشنها على منزلي المباحث والمخابرات.

ـ دمع لا يكفكف يا دمشق:

بعد أن انطلقت الثورة من جبل العرب بقيادة سلطان الأطرش في حزيران/ يونيو 1925 وسجلت أروع صفحات البطولة، وتبعتها ثورة حماه بقيادة فوزي القاوقجي، امتد لهيب الثورة إلى غوطة

دمشق بزعامة البطل الشعبي الأسطوري حسن الخراط.

ويذكر الدكتور عبد الرحمن شهبندر في مذكراته التي قرأتها فيما بعد أن مجموع عدد المجاهدين الذين دخلوا دمشق في 18/10/1925 بعد أن بدأت المناوشات في الغوطة لا يزيد عن 400 ثائر من قرى المرج والغوطة وجبل الدروز الذين انضمت إليهم أحياء المدينة لا سيما أهل حي الشاغور وبوابة السلام، وقد بقي المجاهدون أربعة أيام في دمشق سحقوا فيها جميع الجنود المعتصمين بالمتاريس في حي الشاغور وحي الميدان، بينما لجأ عدد منهم مع أسرهم ونسائهم إلى قلعة دمشق واحتموا بأبراجها، ففقد الجنرال سراي توازنه واختلط عليه الأمر فقرر ضرب الشام بالمدافع من القلاع، وقد انطلقت المدافع تقصف بيوت دمشق على أهلها فالتهمت النيران والتدمير ما يربو على ستمائة دار من أجمل الدور الدمشقية، وخرج الفرنسيون ينهبون ويسلبون المدينة بصورة لم يعهد لها مثيل، ولا سيما الحوانيت والمخازن المملوءة بالبضائع. وقد استمر إطلاق المدافع من منتصف يوم الأحد إلى مساء الثلاثاء. فانسحب الثوار على أثر ذلك إلى الغوطة خوفاً من تدمير دمشق بكاملها.

ومنذ ذلك اليوم انطلقت البطولات الأسطورية لحسن الخراط الذي يصفه الدكتور شهبندر بأنه رآه للمرة الأولى في قرية أم ضبيت من قرى جبل الدروز في أوائل شهر أيلول/سبتمبر عام 1925 فإذا هو رجل ربعة في نحو الخمسين من العمر، بوجه عربي مستطيل، وجبهة بارزة وعينين شهلاوين تشعان ذكاء. وقد خط الشيب شاربيه

ورأسه، وكانت الخفة ظاهرة كل الظهور في حركاته، ولعل ذلك ناشئ عن تمرنه على لعبة العصي، وهو دمشقي يعتمر بالعمامة الأغباني ويلبس القنباز وفوقه العباءة.

وكان حسن الخراط أمياً، وقد صرف شطراً من حياته حارساً في الأسواق وناطوراً في البساتين، واشتهر عنه في وقائعه مع الفرنسيين أنه لم يحتم بمتراس ولا شجرة بل كان يقف منهم على أبعاد قد لا تتجاوز المائة متر، وقد ظهرت عليه ميزات التنظيم والقيادة بحيث كانت مجموعته مترابطة تأتمر بأمره وتنتهي بنواهيه، إشتراكي المبدأ، لو تناول تفاحة لعض منها عضة واحدة وفرق ما بقي منها على رفاقه. على أنه كان بطاشاً بالخونة لا يرحمهم، وقد علق بعضهم على أبواب دمشق.. وقد استشهد اغتيالاً من قبل الشركس في قرية يلده في 21/ 12/ 1925.

كانت حماه تعيش يوماً بيوم، وبقلق وتأثر وحزن بالغ، أنباء نكبة دمشق. وقد أصبحت قصيدة أحمد شوقي فيما بعد «سلام من صبا بردى أرق... ودمع لا يكفكف يا دمشق» قصيدة شعبية تجري على ألسنة الناس جميعاً.

كنا نجتمع نحن الصغار في الصباح الباكر قبل موعد الدرس، وكل منا يحمل خبراً ساراً عن أخبار الثوار: عدية ومصطفى البشري ورزوق النصر الذين تمترسوا في حي الحاضر، وكنا نطرب أي طرب عندما نسمع أزيز الرصاص أحياناً ونحن داخل الصفوف نتلقى الدروس، وأبلغ فرحة كانت عندما اغتال رزوق النصر الخائن عبد الله الشركس في وضح النهار.

كان عبد الله شركسياً من قرى حمص ارتكب جريمة قتل فحكم عليه بالسجن المؤبد، ولكن القومندان كوتسلبير وهو يبحث عن قائد للدرك طاغية شرير ليسلطه على أهل حماه، ذكر له عبد الله الشركس، فذهب بنفسه إلى حمص، وأخرجه من السجن بعفو من المفوض السامي وعينه ضابطاً برتبة نقيب في الدرك، وولاه قيادة حماه، فكان هذا الضابط أشد العملاء إيذاء للناس، وخاصة من كان من عامة الشعب منهم، فقد كان دأبه أن يمر كل يوم بالسجن، ويضرب بسوطه عدداً من المعتقلين ضرباً مبرحاً، كوجبة يومية يقدمها تزلفاً لأسياده المستعمرين، وكان رزوق النصر بين المعتقلين يتحمل التعذيب اليومي برجولة، حتى إذا انتهى قائد الدرك من تعذيبه في كل مرة كان يقول له:

- عذب يا عبد الله عذب. . يوماً ما سيكون لي موقف معك.

فيعود عبد الله الشركس لضربه وتعذيبه حتى تهن يداه.

وكانت مدة السجن التي حكم بها رزوق من قبل المجلس العدلي قد انقضت، فخرج من السجن وأخذ يترقب غريمه حتى علم بأنه مدعو لإفطار رمضان عند آل السقاف بحي الحاضر، فتقلد بندقيته تحت عباءته وجلس على كرسي بجانب دكان في سوق الحاضر ينتظره، وحين قدم عبد الله نهض رزوق وتمشى حتى أصبح أمامه فمد بندقيته من مسافة لا تزيد عن المتر، مصوباً فوهتها إلى رأسه وصاح به:

خذها يا عبد الله من يد رزوق نصر ولا تقول غدرتك غدر.

كانت الطلقة محكمة فأصابت عبد الله الشركس في دماغه فسقط على الأرض ثم انطرح لا حراك به، وخطا رزوق مبتعداً عن المكان، ولكنه خشي أن تكون طلقته غير مميتة، فرجع، ونظر إلى وجه المجرم فوجد العين لا أثر لها، والجمجمة محطمة عندئذ أسرع متغلغلاً في الأزقة.

وفي الحوادث البطولية التالية، من العام ذاته سقط رزوق نصر شهيداً.

- أولئك الشرفاء الذين أغنوا طفولتنا:

كنت أتتبع كل ما يكتب في الصحف والمجلات العربية عن أخبار الثورة وتطوراتها، وكانت تصل إلى حماه وتباع بثمن باهظ لأنها مهربة. وكان الشعب في المدينة يغلي كالبركان متتبعاً أخبار المعارك في جبل الدروز والغوطة وحي الميدان بدمشق، خطوة خطوة، وكانت أحب الأغاني التي كنا نرددها دوماً:

يا أمي ليه تبكي علي   أنا المسافر عالجهادية
صوت المدافع في الميدان   زي الكمنجه والعيدان

وهي أغنية مصرية ولا أدري إن كانت من تأليف وتلحين الشيخ سيد درويش.

وقد تكونت في أذهاننا صور البطولات متجسدة بحسن الخراط وسعيد العاص وفوزي القاوقجي وسلطان الأطرش ومصطفى عاشور وأمثالهم.

كانت ذكريات ثورة عام 1925 من أنصع وأجمل ما مر

بحياتي من ذكريات. ولا أزال أذكر كيف أنني كنت أشتري كل ما تقع عليه يدي من دواوين الثورة وأستظهر القصائد عن أبطالها ومعاركها ورثاء شهدائها كشهيد قرية حجيرة في الغوطة، وهو مختار القرية الذي ظل يدافع عنها وحيداً بعد أن انسحب منها الثوار، ومصرع الشهيد أحمد مريود في جباتا الزيت، والنكدي والعسلي وشهداء جبل العرب، وكنا نود لو كنا كباراً لنلحق بهؤلاء الثوار ونساهم بالمعارك، ونتعرف إلى القادة الأبطال، ولم يكتب في ذلك الوقت شيء عن الثورة إلا طالعناه، ولم ينظم فيها شعر إلا حفظناه وتدارسناه مع الرفاق في المدرسة وتبارينا في تلاوته واستظهاره، وقد جمعت قصائد الثورة في كتاب صدر آنذاك تحت عنوان «ديوان الثورة». وخيل إلى أنني سأكون شاعراً.

كان الدروز قبل الثورة عالماً مجهولاً بالنسبة إلينا. وكنت أسمع من الكبار وأنا صغير أن رشيد طليع الذي عينه الملك فيصل متصرفاً لحماه هو من الدروز. وأنه رجل إداري حكيم. ولم أكن أعي آنذاك ما تعنيه هذه الكلمة. ولكن بعد أن تفجرت الثورة صرت أفتش عما كتب عن جبل الدروز فلم أعثر إلا على كتاب واحد ألفه عبد الله النجار مدير معارف الجبل في ذلك الوقت بعنوان «تاريخ بني معروف» فقرأته بنهم وشغف وتغيبت قسماً هاماً عن أشعار شبلي الأطرش الذي أعدمه الأتراك.

كانت الثورة بداية الاهتمام بمعرفة منشأ هذه الطائفة العربية اهتماماً لم ينقض بانقضاء الثورة.

- بدء تفتح الوعي السياسي للقضية الوطنية:

انفجرت الثورة في عهد حكومة صبحي بركات، فاضطر في 21 كانون الأول/ ديسمبر عام 1925 لتقديم استقالته للمفوض السامي دوجوفينل، بكتاب يحدد فيه لأول مرة، رغم أنه كان متعاوناً مع الفرنسيين، المطالب الوطنية بالنقاط التالية:

أولاً: تأليف مجلس تأسيسي يضع قانون البلاد الأساسي على أساس السيادة القومية.

ثانياً: إنشاء حكومة دستورية تعتبر وحدها مسؤولة عن سياسة البلاد وإدارتها.

ثالثاً: إعلان عفو عام بدون استثناء.

رابعاً: قبول سوريا عضواً في عصبة الأمم.

خامساً: تحقيق الوحدة السورية بضم جبل الدروز والعلويين والأقضية الأربعة. . لأن الوطنيين السوريين يعتبرون أن بلادهم تجمعها وحدة حقيقية في العادات والتقاليد والآمال والآلام والعنصر واللغة وعوامل إقتصادية وجغرافية.

فأمر المفوض السامي بتشكيل حكومة برئاسة فرنسي هو (بيير أليب) في 21 شباط/ فبراير لكن هذه الحكومة استقالت في 26 نيسان/ أبريل 1926. فعين المفوض السامي الداماد أحمد نامي رئيساً للدولة ورئيساً للوزراء فألف ثلاث وزارات متتالية من 26 نيسان/ أبريل 1926 إلى 8 شباط/ فبراير 1928، إلى أن تشكّلت وزارة جديدة برئاسة الشيخ تاج الدين الحسني بتاريخ 15 شباط/ فبراير 1928.

أما وزارة الداماد الأولى فقد تألفت على النحو التالي:

- الداماد أحمد نامي رئيساً للدولة والحكومة.
- حسني البرازي وزيراً للداخلية.
- شاكر نعمت الشعباني وزيراً للمالية.
- فارس الخوري وزيراً للمعارف.
- لطفي الحفار وزيراً للأشغال العامة والتجارة.
- واثق المؤيد العظم وزيراً للزراعة والإقتصاد.

ألف المفوض السامي دوجوفنيل، هذه الحكومة والثورة السورية لم تزل مشتعلة. واعتبر فارس الخوري ولطفي الحفار وحسني البرازي ممثلين فيها للجانب الوطني.

وقد روى عارف النكدي فيما بعد: «استدعتنا المندوبية بعد تكليف الداماد أحمد نامي برئاسة الحكومة إلى دارها في محلة الشهداء ـ للمباحثة في تأليف الوزارة. وكان المدعوون: فارس الخوري وحسني البرازي ولطفي الحفار من الكتلة الوطنية، وفوزي الغزي أستاذ معهد الحقوق، ورشيد الحسامي المدعي العام في التمييز وعارف النكدي مدير العدلية من الموظفين وشاكر الشعباني من جماعة السلطة، وكان مجلس المندوبين مؤلفاً من المندوب بيير أليب والجنرال كاترو ومن القائم بضبط وقائع الجلسة، وبعد أن طلب بعضنا معرفة الأسس التي تتألف الوزارة عليها ورآها عقيمة غير متفقة مع مطالب البلاد المشروعة، وكاد الإجتماع ينتهي، عاد أحدنا، لطفي الحفار يقول للمندوب إني قابل بهذه الشروط. ووجد المندوب الفرصة مواتية لاستئناف

البحث. وكان الوضع من الحراجة بحيث لا بد من تأليف وزارة يموه بها على الشعب. فعاد يسأل المجتمعين فرداً فرداً عما يقول كل منهم. فرفض فوزي الغزي ورشيد الحسامي وعارف النكدي أن يدخلوا الوزارة. فتألفت من ستة وزراء منهم الخوري والحفار والبرازي. وقبول هؤلاء الثلاثة بالوزارة في تلك الأيام العصيبة كان معناه المجازفة وإن رأى غيرهم فيه إضعافاً معنوياً للثورة القائمة.

قرأت باهتمام البيان الوزاري المطبوع الذي وزع على الأهلين في جميع المدن بعنوان «بيان الحكومة السورية المؤقتة إلى الشعب السوري الكريم» ومن الرجوع إلى صحف تلك الفترة نجد أن الحكومة حددت المطالب الوطنية بعد مقدمة طويلة، بالنقاط التالية:

إن حكومتنا قد اتخذت لأعمالها البرنامج الآتي الذي تسعى لتحقيقه:

1 - دعوة الجمعية التأسيسية لتتولى سن دستور البلاد على قاعدة السيادة القومية.

2 - تحويل الإنتداب إلى معاهدة تعقد بين فرنسا وسوريا لمدة ثلاثين سنة تعين فيها الحقوق والواجبات والعلائق المتقابلة بين الاثنين، مماثلة للمعاهدة المعقودة بين بريطانيا والعراق، ولا تكون هذه المعاهدة نافذة إلا بعد تصديقها من البرلمان السوري، ويحتفظ فيها لفرنسا بالنفوذ السياسي والرجحان الإقتصادي فقط على شرط عدم الإخلال بالسيادة القومية.

3 ـ تحقيق الوحدة السورية بالوسائل التي باشرنا بإجرائها منذ الآن، وستظهر للأمة نتائجها المثمرة في القريب العاجل إن شاء الله.

4 ـ توحيد النظام القضائي على قاعدة السيادة القومية بصورة تصون حقوق الوطنيين والأجانب معاً.

5 ـ تأليف جيش وطني بحيث تتمكن القوات الفرنسية من الجلاء التدريجي عن البلاد.

6 ـ طلب إدخال سوريا في عصبة الأمم وإعطائها حق التمثيل الخارجي أسوة بالعراق.

7 ـ درس إصلاح النظام النقدي الحالي وإعادة الأساس الذهبي في عملة البلاد الرسمية بصورة تدريجية.

8 ـ استحصال العفو العام عن جميع أصحاب الجرائم السياسية مع الاحتفاظ بالحقوق الشخصية.

9 ـ استحصال قرار بإلغاء الغرامات الحربية عن دمشق وغيرها.

10 ـ إيجاد طريقة للتعويض على منكوبي الثورة.

وبعد ستة أسابيع أقال المفوض السامي الوزراء الوطنيين الثلاثة من الحكومة، وأودعهم قيد الإقامة الإجبارية، فألف الداماد أحمد نامي وزارته الثانية فالثالثة...

ـ التعرف على الشعراء والزعماء الوطنيين في دمشق:

كان عمي مصطفى شاباً وطنياً صادقاً، ومرشداً لي أثناء إقامتي معه في دمشق، وكنت على صغر سني صديقاً له، فتعرفت بواسطته

على رفيقه في مدرسة الحقوق الشاعر أمين نخلة، والشاعر محمد البزم، وغيرهما من أصدقائه ومعارفه. وكنت أستمع إلى أحاديثهم، وأتقصد الذهاب إلى الحفلات السياسية والمناسبات الوطنية لأرى فوزي الغزي وهاشم الأتاسي وإبراهيم هنانو والزعماء الآخرين. . . وكنا نتابع باهتمام نضالهم السياسي ضد فرنسا. وكانت تلك الحفلات الوطنية بمثابة المعهد الذي تعرفنا فيه، من أفواه الزعماء، على تاريخ القضية الوطنية وتطوراتها.

إنني ما أزال أذكر ذلك الاحتفال الذي أقيم في بيت الوجيه الدمشقي توفيق القباني، واستمعت فيه لأول مرة إلى المرحوم فوزي الغزي. . ومن الرجوع إلى مجموعة عام 1928 لصحيفة القبس نجد في العدد الصادر بتاريخ الحادي والعشرين من حزيران/ يونيو الوصف التالي لذلك الاحتفال:

«أخذت جموع الوطنيين من أعيان وعلماء ومحامين وصحفيين وتجار وطلاب وعمال يحتلون المقاعد المصفوفة في ساحة الدار الكبرى، يستقبلهم الشباب الناهض. وكان النواب يستقبلون بالتصفيق عند وصولهم، وخصوصاً هاشم الأتاسي رئيس المجلس. . . ثم افتتح الشبان الحفلة بالنشيد الوطني المعروف «سورية يا ذات المجد» ثم وقف ثابت أفندي القباني فحيا المجلس وأعضاءه ورئيسه الكريم هاشم بك الأتاسي وزعيمه الجليل إبراهيم بك هنانو، ثم ألقى الأستاذ أديب أفندي الصفدي صاحب جريدة «الشعب» خطاباً بليغاً استعرض فيه القضية الوطنية. ثم وقف سعادة النائب المحترم الأستاذ فوزي بك الغزي فألقى خطاباً خطيراً

هو عبارة عن أطروحة سياسية حوت جميع أدوار القضية السورية والحركة الوطنية، وتحدث بعده سعادة النائب المحترم الأستاذ فائز بك الخوري فقال: إن مصيبتنا من التفاهم نفسه لأننا عالمون ما يراد بنا وهم عالمون ما نريد، ثم ألقى الشاعر اللبناني الرقيق السيد إدوار صعب الطالب في معهد الحقوق، قصيدة وطنية مؤثرة. وفي الختام كانت كلمة حضرة النائب السيد فخري بك البارودي المرحة واختتمت الحفلة بالنشيد الوطني المعروف «أنت سورية بلادي».

إنني لا أزال أتذكر بوضوح ودقة كل لحظة من لحظات ذلك الاحتفال الكبير، كما لا أزال أحمل بين جوانحي ذلك الإعجاب بخطاب المرحوم فوزي الغزي وبلاغته ووعيه للقضية الوطنية.

كانت الكتلة الوطنية مؤلفة من اندماج عدة أحزاب، أبرزها حزب الإستقلال وحزب الشعب الذي أسسه الدكتور عبد الرحمن شهبندر. وكان رجال الكتلة الوطنية في تنافس يجري في الخفاء بين الدكتور شهبندر والفريق الآخر. على أن ذلك الخلاف أو الانقسام لم يظهر علنياً. وكان عمي مصطفى من أنصار الكتلة بينما كنت من أنصار الدكتور شهبندر، فكنت أقرأ ما يكتبه في مجلات «المصور» و«المقتطف» والصحف المصرية وأتتبع نشاطه العربي والوطني.

وبعد أن حضرت ذلك الاحتفال واستمعت إلى خطاب فوزي الغزي، أصبحت أرى فيه رجلاً لا يقل عن الدكتور شهبندر ثقافة واطلاعاً. ويبدو أن تقييمي هذا، رغم صغر سني آنذاك، كان تقييماً صائباً، ولقد ازداد إعجابي بفوزي الغزي عندما أصبحت نائباً في المجلس عام 1943، واضطررت أن أعود إلى محاضر الجمعية

التأسيسية التي وضعت دستور عام 1928، وكان فوزي الغزي مقررها، لذلك لقب بأبي الدستور، وإنني إذ أثبت فيما يلي القسم الأخير من خطابه الطويل الذي أصغيت إليه باهتمام فلأنه يستعرض فترة هامة من تاريخ سورية كما يستعرض مقالب السياسة الاستعمارية للحركة الوطنية وقيادتها، مما جعلهم يتخبطون في أحابيلها بعد إخفاق الثورة، بدلاً من أن يعدوا العدة لثورة أخرى فيهيئوا جميع الوسائل لإنجاحها، وقد تمكن الاستعمار الفرنسي، مع الزمن أن يرسخ روح المساومة على السيادة لدى تلك القيادات.

كان خطاب فوزي الغزي عن العملية الدستورية وأنها موضوع أمر داخلي بحت لا علاقة للسلطة المنتدبة به إحدى القضايا التي تمحور حولها نضال الشعب السوري سنوات طويلة، كما كان موضوع أول خطاب ألقيته في أول جلسة حضرتها عام 1943 عندما انتخبت نائباً لأول مرة وذلك عندما طالبت بإلغاء المادة 116 التي أضافها المندوب السامي الفرنسي على دستور 1928.

قال المرحوم فوزي الغزي في ذلك الإجتماع:

«حل المسيو بونسو محل المسيو دوجوفنيل سنة 1926، وعكف على درس القضية السورية طويلاً، ثم زار باريس وعاد منها فنشر على إثر عودته في تموز/ يوليو 1927 بياناً صرح في البند الثالث منه أنه سيبقى متمسكاً بالسياسة التي حددها المسيو دوجوفنيل، فلم يتأخر الوطنيون عن مد أيديهم إلى المسيو بونسو هذه المرة أيضاً برغم ما حل في بلادهم من نكبات وما أصاب مدنهم من خراب

ودمار، وبرغم وجود كثير من الزعماء النافذين خارج البلاد وفي المنافي والسجون، وبرغم وجود كثرة القائلين بعدم إمكان التفاهم على أساس يضمن صالح البلاد.

لقد عقدوا مؤتمراً في بيروت في 25 تشرين الأول/ أكتوبر 1927، ووضعوا بياناً أذاعوه في الصحف وأبلغوه إلى المفوضية فحبذته الصحف الفرنسية والسورية على السواء، ومن جملة ما جاء في هذا البيان قول واضعيه طلبتم منا الصبر فصبرنا، وحسن الثقة فوثقنا، فهل يا ترى يرضيكم بقاؤنا منفيين وشاكين مقيدي الحرية مفككي الأجزاء؟ إننا لا نصدق ذلك ولا نريد أن نصدقه، إننا عندما نطلب منكم النظر في قضيتنا بإنصاف، وعندما نسألكم تعديل ما هو ضروري تعديله، وإصلاح ما هو واجب إصلاحه من الأحوال والتدابير غير المرضية تتهموننا بأننا أعداؤكم، هذا هو لسان حال الأمة نعيده على مسامع فخامتكم ونزيد عليه بأننا لسنا أعداء فرنسا التي عرفناها بعلمها وحريتها ومدنيتها وتفانيها في خدمة المبادئ الإنسانية، ولذلك قصدنا بهذا الإجتماع أن نذكركم بأن الأمة السورية مستعدة لمد يد الصداقة والمصافحة ونسيان الماضي المؤلم كلما وجدت لتحقيق أمانيها وسيادتها القومية سبيلاً».

أصدر المؤتمر هذا البيان فلم يمض عليه قليل حتى دعت المفوضية العليا اثنين من زعماء الوطنيين وفاوضتهما بأمور ذات بال تتعلق بمصير البلاد، فأعربا عن رغبتهما الحسنة واستعداد الوطنيين للتعاون النزيه مع الحكومة الفرنسية على أسس تضمن إستقلال سوريا ومصالح فرنسا الحقيقية، وبينما كان الوطنيون ينتظرون تحقيق

أماني الأمة ببرنامج واضح صريح وعفو تام شامل عن جميع المحكومين والمبعدين، اكتفت المفوضية حينئذ بإذاعة بيان دعت فيه الأمة السورية إلى الإشتراك في الانتخابات لتأليف جمعية تأسيسية تضع دستور البلاد على أساس قانون الانتخاب القديم المملوء بالنقائص والعيوب، واقتصرت في العفو على إعادة حرية بعض المعتقلين والسماح لبعض المحكومين بالعودة لبلادهم، ولم تعالج قضية الوحدة ولم تبحث بقية مطالب الأمة السورية.

على أن الوطنيين الذين يتهمهم البعض بالغلو والإغراق قرروا هذه المرة الثالثة أيضاً في مؤتمر عقدوه في دمشق في آذار/مارس عام 1928 دخول معركة الانتخابات. . وخاضوا المعركة فعلاً دون أن يجابوا على مطلب واحد من مطالبهم أو يعدل حرف واحد من قانون الانتخاب في مصلحتهم، كل ذلك ليبرهنوا للعالم أجمع على أنهم حريصون على تثمير سياسة التعاون النزيه، صادقون في تصريحاتهم، مقدرون موقف بلادهم السياسي حق قدره.

اجتمعت الجمعية التأسيسية في مثل هذا اليوم من السنة الفائتة بحضور المفوض السامي المسيو بونسو الذي ألقى خطاباً قابله عليه الأعضاء بالتصفيق. وقد قال في خطابه ما نصه بالحرف الواحد: «وعندما تنتهون من مهمتكم هذه ويكون قد حان الأجل لتشييد العلاقات بين فرنسا وسوريا على دعائم متينة تتفق مع ما تصبو إليه نفوسكم ونتوق إليه نحن أيضاً، من إجراء المفاوضات اللازمة لإبرام معاهدة تفسح لنا مجالاً لاستنباط طرق الحل لكافة المسائل التي تشغلنا سوية».

ثم تولت لجنة انتخبتها الجمعية التأسيسية وضع مشروع الدستور، وبعد بحث استغرق أربعين يوماً عرض المشروع على الجمعية التأسيسية فأقرته بمجموعة، ثم وقع خلاف بين السلطة والجمعية بسبب ست مواد وردت في صلب الدستور، فتأجلت الجمعية ثلاثة أشهر ثم تكرر التأجيل ثلاثة أشهر أخرى. . . لم تخرج الجمعية التأسيسية في كل إجتماعاتها ومذكراتها عن التقاليد البرلمانية، ولم تشذ في موقف من مواقفها عن القواعد النيابية المألوفة في العالم المتمدن، وقد صرح غير واحد من رجال فرنسا الأحرار الذين تتبعوا خطوات الجمعية التأسيسية خطوة خطوة وقرأوا محاضر جلساتها وتصفحوا أقوال خطبائها، أخص بالذكر منهم المستشرق المعروف المسيو ماسنيون: إن هذه الجمعية لم تكن أقل ثقافة وخبرة من مثيلاتها في البلاد المتمدنة الحديثة العهد في حياتها النيابية.

إن الوطنيين المقدرين وضع البلاد السياسي حق قدره لم يتجاهلوا موقف فرنسا الحاضر في سوريا ولم يقدموا على سياسة التعاون النزيه إلا للتوفيق بين إستقلال سوريا المنشود ومصالح فرنسا الحقيقة من جهة، ولإنقاذ البلاد من هذا الموقف المتبلبل الذي أضر بمصالحها الإقتصادية والعمرانية من جهة ثانية، حتى يسود السكون وتطمئن النفوس وتستقر المسؤوليات على أصحابها فتسير البلاد وبخطوات واسعة نحو الرقي المطلوب والإستقلال الكامل المرغوب فيه، ويرى الوطنيون أن الدستور عمل داخلي بحت وقانون ذو طرف واحد يقر سيادة الأمة ويحدد السلطات الوطنية ويبين شكل الحكومة وما يترتب على رجالها من واجبات ويضمن للأفراد

والجماعات حريتها وحقوقها. وإن المعاهدة التي ستعقد بين فرنسا وسوريا هي التي يجب أن تتولى تحديد العلاقات بين الفريقين، وليس هذا الرأي ابن يومه، فالوطنيون في الوزارة المؤلفة سنة 1926 ذكروا في بيانهم الذي أقره المسيو دوجوفنيل أن الحقوق والواجبات والعلاقات المتقابلة بين الأمتين يجب أن تحدد في معاهدة، وليس في هذا الرأي أي شطط ولا شذوذ، فالدساتير تثبت الحقوق عادة وتدونها، والمعاهدات تقيدها وتحددها، فهذا دستور العراق، وهو مؤلف من 123 مادة وموضوع في آذار (مارس) سنة 1925 بعد عقد المعاهدة الانكليزية العراقية وليس فيه كلمة واحدة تشير إلى حقوق وواجبات الفريقين، وهذا دستور مصر وهو مؤلف من 170 مادة وموضوع في 19 نيسان (ابريل) 1933 بعد تصريح 28 شباط (فبراير) 1922 ولم يحتو شيئا من تحفظات هذا التصريح، فكما أن دستوري العراق ومصر لم يبطلا المعاهدات والتحفظات التي سبقتاه، كذلك الدستور السوري لا يعقل ان يغير شيئا في أوضاع البلاد الخارجية، ولا عبرة لتقدم المعاهدة على الدستور أو تأخرها، فالمعاهدات أشد تاثيراً وأقوى مفعولاً من الدساتير.

ثم تحدث الغزي بالتفصيل عن المواد الست من الدستور التي وقع عليها الخلاف بين الجمعية التأسيسية والسلطة الفرنسية فقال:

طلبت المفوضية العليا في جلسة 9 آب/أغسطس 1928 حذف المواد الخمس من صلب الدستور وتعديل المادة الثانية منه فلم تشاطرها الجمعية التأسيسية الرأي، فأبلغتها في 11 آب/أغسطس قرار تأجيل جلساتها إلى ثلاثة أشهر.

ـ فوزي الغزي في سطور:

ولد فوزي الغزي في العام 1891 في دمشق، وهو سياسي وواضع الدستور السوري الأول. . درس في دمشق والمعهد الملكي العالي في الآستانة اسطنبول. كان ضابطاً في الجيش العثماني خلال الحرب العالمية الأولى. عمل أميناً لسر وزارة الداخلية في الحكومة العربية في دمشق 1920. عمل بالتدريس في كلية الحقوق. وكان معارضاً للفرنسيين، فسجن ونفي إلى جزيرة أرواد. انتخب نائباً عن دمشق في العام 1928، واختير رئيساً للجمعية التأسيسية المكلفة بوضع دستور البلاد. أتم وضع الدستور خلال أسبوعين، وأقره مجلس النواب في 4 تموز/ يوليو عام 1928. توفي في العام 1929 مسموماً من قبل زوجته لأسباب شخصية وغامضة.

عمر المختار

(1862 ـ 1931)

في حوالي الساعة التاسعة من صباح يوم الأربعاء الواقع في السادس عشر من شهر أيلول/سبتمبر عام 1931م، طويت صفحة من صفحات النضال ضد المحتل، باعتلاء الشيخ عمر المختار شيخ المجاهدين الذي جاوز عقده السابع، أعواد المشنقة بعد جهاد مرير يربو على الثلاثين سنة، لم يكن له فيها وطن ولا حدود ولا إقليم ولم يكن قائداً قومياً، بل كان زعيماً ومجاهداً عالمياً حيث دك معاقل الفرنسيين في مملكة كانم في نيجيريا ووداي في تشاد والسودان، ونشر الإسلام في ربوع الصحراء، ثم دخل في حروب طاحنة مع الإنكليز في مصر، وبعدها ولج ميدان التاريخ بجهاده ضد الفاشستية الإيطالية.

ـ نشأته:

ولد الشيخ عمر المختار بن عمر بن فرحات من عائلة غيث، المنتمية إلى قبيلة المنفة في منطقة البطنان في برقة/ليبيا عام 1862م، وكانت نشأته في بيت عز وكرم، تحيط به شهامة العرب وحرية البادية. توفي والده وهو في طريقه إلى الحج فأوصى إلى الشيخ

حسين الغرياني برعاية ابنه عمر، وكان الشيخ حينها في السادسة عشرة من عمره.

بدأ تعليمه المبكر في زاوية جنزور ثم انتقل إلى الجغبوب التي كانت معقل قيادة الحركة السنوسية، فتخرج الشيخ عمر المختار من مدرسة الزوايا السنوسية التي جمعت منهاج الدين في الحياة، وكان حجر الأساس فيها هو التعليم ونشر الإسلام على أساس التوحيد الخالص، وهي دعوة دينية هادئة سبيلها الحكمة والموعظة الحسنة، تأمر بالمعروف وتنهي عن المنكر، لا تتجاوز حد التبليغ، فمن قبِل منها فلنفسه، ومن لم يقبل فشأنه وما اختار. وتأثر بفضلاء عباد زهاد علماء من الحركة السنوسية وعلى رأسهم شيخها أحمد الشريف السنوسي، وكان الشيخ عمر المختار حسنة من حسنات السنوسية الجمّة.

وقد ظهرت على الشيخ علامات النباهة ورجاحة العقل منذ الصغر، وظل محل إعجاب وثناء كل من عرفه حتى لقي ربه عز وجل مقبلاً غير مدبر، فكان ذلك أكبر دليل على صدقه في التعامل مع الناس وفي إقباله على الله.

وقد عيَّنه الشيخ السيد المهدي السنوسي شيخاً على زاوية القصور في الجبل الأخضر فقام بأعباء المهمة خير قيام، من تعليم ودعوة وإصلاح، وسار في الناس سيرة العقلاء، وزادت من مهابته عند غيرهم. ومما تجدر الإشارة إليه هنا أن اختياره للقيام على أمور هذه الزاوية كان مقصوداً من قبل الشيخ المهدي السنوسي، حيث أن هذه الزاوية كانت في أرض قبيلة العبيد التي عرفت بشدة

الشكيمة وصعوبة المراس، فوفقه الله في سياسة هذه القبيلة، ونجح في ترويضها بما أودع فيه من صفات القيادة والحكمة.

ثم كلِّف بأمر الجهاد في واداي، فقارع الاستعمار الفرنسي الذي كان قد بدأ زحفه إلى وسط أفريقيا، فبذل كل ما لديه حتى لفت الأنظار بقوة عزيمته وحزمه وفراسته. قال عنه الشيخ المهدي السنوسي: «لو كان لدينا عشرة مثل المختار لاكتفينا». وبقي في واداي يعمل على نشر الإسلام ودعوة الناس وتربيتهم. إلى جانب قتال الفرنسيين وحماية بلاد المسلمين. وكانت المناطق التي يتولى المختار قيادتها وحراستها أمنع من عرين الأسد ولا يخفى ما في ذلك من إدراك القيادي لواجبه تجاه دينه ووطنه.

وفي عام 1906م رجع إلى الجبل الأخضر ليستأنف عمله في زاوية القصور، لكن ذلك لم يستمر طويلاً، إذ كانت المعارك قد بدأت بين الحركة السنوسية والبريطانيين في منطقة البردى والمساعد والسلوم على الحدود الليبية ـ المصرية. وقد شهد عام 1908م أشد المعارك ضراوة، انتهت بضم منطقة السلوم إلى الأراضي المصرية تحت ضغوط بريطانيا على الدولة العثمانية.

بعدها عاد الشيخ إلى زاوية القصور يدير شؤونها مرة أخرى حتى امتدت يد الفاشستية على التراب الليبي في مطلع تشرين الأول/أكتوبر 1911م، فهب الشيخ عمر المختار كعادته ليكون في طليعة من لبى نداء الجهاد، وليقود حركة وقفت في مواجهة الغزاة عشرين عاماً، سطَّر فيها الشيخ عمر المختار ومن معه من ملاحم أسطورية تحدث عن عظمتها وقوتها الأعداء قبل الأصدقاء، وقد

تناولها الجنرال رودلفو غراستياني في كتابه الذي سماه «برقة الهادئة»، يقصد أنها هادئة بعد إعدام الشيخ عمر المختار والقضاء على حركة الجهاد فيها. وقد نشبت بينه وبين المختار 263 معركة ومواجهة في مدة عشرين شهراً فقط.

كان المختار قد جاوز الستين من عمره حين قررت إيطاليا وجنرالاتها أن يخوضوا حرباً لا هوادة فيها استمرت ثمانية أعوام أخرى، كانت أصعب وأطول سني الحرب كلها، جنَّدت إيطاليا كل ما تملك من جنود ومدافع ودبابات وطائرات وضباط وقادة تخرجوا من الكليات العسكرية المتقدمة، التي كان يفخر بها الغرب. لكن الذي لم يدركه الإيطاليون وأدركه الشيخ عمر المختار أن المقاييس في مثل هذه الأحوال لا تخضع دائماً للتقديرات المادية.

لم يبق بعد تلك الصور المزرية أمام إيطاليا إلا خيار واحد، وهو أن تقطع عن المجاهدين كل إمكانية للإمداد، فجمعوا كل الليبيين في برقة في معسكرات اعتقال جماعية مع ماشيتهم وأغنامهم، وأحرقوا بعد ذلك الأخضر واليابس، ومدوا الأسلاك الشائكة على طول الحدود الليبية ـ المصرية من البحر إلى ما بعد الجغبوب على امتداد ثلاثمائة كيلومتر وبعرض ستة أمتار وارتفاع مترين تقريباً، وقد استغرق العمل في مد هذا السور ستة أشهر تقريباً وكلف مبالغ طائلة.

وكانت تقوم بحراسة هذا الجدار الهائل ومراقبته السيارات المسلحة والطائرات، وكانت هناك أوامر ثابتة بإطلاق النار على من يحاول عبور السياج، لكن ذلك لم يكن لينقص من عزيمة

المجاهدين الذين وطنوا أنفسهم على إحدى الحسنيين، فاستمروا في قتالهم شهوراً عديدة حتى كان يوم الجمعة 11 أيلول/ سبتمبر 1931م إذ فاجأتهم كتيبة من الجيش الإيطالي من الرتل السابع من الخيالة في جنوب قرية سلنطة، ودارت بين الطرفين معركة سقط فيها أكثر المجاهدين، وقتل جواد الشيخ فوقع به على الأرض جريحاً، وقاتل حتى نفدت ذخيرته فأسره بعض الجنود الذين تعرفوا عليه، وكان ذلك إيذاناً بانتهاء الجهاد والمقاومة.

انعقدت بسرعة محكمة صورية لمحاكمته في 15 أيلول/ سبتمبر 1931م، وصدر حكم المحكمة بإعدام الشيخ عمر المختار شنقاً، وعند سماعه لنطق الحكم قال الشيخ عمر المختار: «الحكم حكم الله لا حكمكم المزيف. إنّا لله وإنّا إليه راجعون».

ـ لحظة تاريخية:

في يوم الأربعاء 16 أيلول/ سبتمبر 1931م وفي مدينة سلوق في ساحة بنغازي، تم إعدامه على مرأى من الجماهير التي حشدت بالقوة.

لقد كان جهاد الشيخ المختار ورفاقه ضد الإيطاليين درساً من الدروس العظيمة لرفض الظلم والاستعباد والمضي في ثبات على طريق الجهاد مهما كانت الظروف والإمكانيات. ولعل من المفيد هنا أن أستعرض بإيجاز بعضاً من السمات والخصال التي كونت شخصية عمر المختار، فتوحدت خلفه صفوف الليبيين وأصبح علماً على جهادهم، وانتشرت أخبار بطولاته فأيقظت الرأي العام الإسلامي والعالمي فصارت الصحافة تعنى عناية جادة بمصير ليبيا،

وكان قد تناقص اهتمامها بعد انسحاب الأتراك من الحرب عام 1912م.

إن أوضح سمات المختار ولا شك هي قوة إيمانه بالله، وصدق توكله عليه، ومع هذا الإيمان الراسخ كان الشيخ عمر المختار واسع الأفق، عالماً بواقعه، مدركاً لما يجري حوله متابعاً له، وقد كان ذلك أكبر عون له على مواقفه وقوتها قبل أصدقائه، وما أعظم أن يجتمع الإيمان والفقه بالواقع، وما أقبح أن يتفرقا. ويتجسد ذلك عندما اقترح عليه البعض السفر للحج قال: «لن أذهب، ولن أبرح هذه البقعة حتى يأتي رسل ربي، إن ثواب الحج لا يفوق ثواب دفاعنا عن الوطن والدين والعقيدة».

تميز الشيخ بشخصيته القيادية وإعانته على تأليف قلوب من حوله وتوجيههم، كما أثبت ذلك في إدارته لشؤون زاوية القصور وفي نجاحه في قيادة الجهاد بمراحله ومتطلباته المختلفة، من التخطيط للمعارك وقيادتها إلى متابعة أصداء الجهاد في الداخل والخارج والتفاعل معها.

ومن السمات الجلية التي عززت من مكانته في قلوب العالمين، خياره الاستراتيجي الجهاد لا الاستسلام، فقد حاول الإيطاليون معه بكل المحاولات بإغراقه بالمال تارة ومنحه الجاه والأوسمة والألقاب، وبنشر الشائعات عنه حيناً، فقال قولته «إنني لم أكن لقمة طائبة يسهل بلعها على من يريد، ومهما حاول أحد أن يغير من عقيدتي ورأيي واتجاهي فإن الله سيخيبه». وقال فيه آسره القائد غراتسياني: «كان عمر المختار حريصاً على عقيدته، يواجه كل من

يتعرض لها بسوء متصلباً ومتعصباً لدينه، وأخيراً كان فقيراً لا يملك من حطام الدنيا إلا حبه لدينه ووطنه».

هذا بالإضافة إلى الخبرة الطويلة التي اكتسبها من ميادين القتال حتى أصبح ذا كفاءة عالية في استخدام المتوافر من القدرات، وفي استغلال طبيعة ميدان المعركة، وذلك بشهادة القادة من أعدائه، كما يذكر غراتسياني عنه أنه ترك المواجهة في الصحراء واتخذ من الجبال مقراً له، فكان ذلك من أكبر العوائق أمام الإيطاليين في صراعهم مع المجاهدين.

سيزار أوغستو ساندينو
(1895 ـ 1934)

قائد ثوري وبطل شعبي في نيكاراغوا، حملت اسمه «الجبهة الساندينية للتحرير الوطني» التي مارست الكفاح المسلح ضد حكم عائلة سوموزا الدكتاتورية الفاسدة.

ولد سيزار عام 1895، وبعد أن تلقى العلم اضطر إلى مغادرة بلاده على أثر شجار عنيف مع سياسي متنفذ، فعمل في مناجم البلاد المجاورة حيث تعرف على مشاكل العمال وتطلعاتهم. فتكونت لديه بعض الأفكار الإشتراكية. وعلى أثر نشوب الحرب الأهلية في نيكاراغوا عام 1926، ضد حكم أدولفو دياز الدكتاتوري، عاد ساندينو إلى بلاده، ولم يمض طويل وقت حتى توصل إلى الاقتناع بأن العنف المسلح هو الطريق الوحيد للتحرر من الاستغلال. فأقدم على تشكيل مجموعة من المقاتلين اشترى لها الأسلحة من أمواله الخاصة، وباشر إلى ممارسة النشاط المسلح ضد الحكم الدكتاتوري والوجود العسكري والسيطرة الإقتصادية الأميركية.

وفي النصف الأول من عام 1927، بلغت قوات ساندينو عدة آلاف من الثوار، واستطاع بالتحالف مع قوات مونكادا وساكاسا إلحاق هزائم عسكرية بالقوات الحكومية، وإجبارها على التقوقع حول العاصمة. وقد تمكنت الولايات المتحدة من إجراء المصالحة بين حلفاء ساندينو والحكومة، إلا أن ساندينو أعلن أنه لن يلقي السلاح إلا بعد أن تكف واشنطن عن التدخل في شؤون نيكاراغوا الداخلية، بل وفي شؤون باقي شعوب أميركا الوسطى. واضطر ساندينو، أمام تزايد القوات الأميركية المدعومة بالطيران، إلى التحول من أسلوب الحرب التقليدية، إلى أساليب حرب العصابات، فقسم جيشه إلى وحدات صغيرة، استقطبت تعاطف جماهير نيكاراغوا، وبعض التعاطف داخل الولايات المتحدة الأميركية نفسها.

وبناءً على إيعاز من السلطات الأميركية، حاولت حكومة المكسيك التآمر على ساندينو، فقامت باحتجازه بعد أن وعدته بتسليمه أسلحة وأموالاً، إلا أنه تمكن من الهرب ومن متابعة هجماته على المراكز الحكومية والقواعد الأميركية. ولم يوقف ساندينو القتال إلا بعد انسحاب القوات الأميركية في مطلع العام 1934، وعندها قَبِل بتوقيع إتفاق مع رئيس الجمهورية الليبرالي وحليفه السابق ساكاسا. إلا أن الجنرال سوموزا رئيس الحرس الوطني الموالي لأميركا تمكن من اختطاف ساندينو واغتياله في العام نفسه أثناء زيارة للعاصمة قام بها القائد الثائر للإجتماع برئيس الجمهورية. وكان ذلك الاغتيال بمثابة تمهيد لانقلاب سوموزا على رئيس الجمهورية نفسه. ولعل أكبر شاهد

على الأثر العميق الذي تركه ساندينو هو نجاح الحركة الساندينية في شن حرب عصابات تمكنت بها من إحراز الإنتصار على حكم العائلة الدكتاتورية، التي كانت تحظى بالمساندة الأميركية بعد ما يقرب من مضي نصف قرن على اغتيال القائد الثوري النيكاراغوي.

سيرغي كيروف
(1886 ـ 1934)

ـ نضال البيروقراطية ضد العدو الطبقي:

لقد كان الحزب الشيوعي في الأيام الأولى من النظام السوفياتي بمثابة الموازن للبيروقراطية. فقد كانت البيروقراطية تدير الدولة، فيما الحزب يشرف عليها ويراقبها. وكان الحزب، على الدوام، يخوض معركة سافرة أو خفية ضد البيروقراطية حيث سهر بتيقظ وحماس حتى لا يتجاوز ـ عدم المساواة ـ الحدود المعقولة. وكان الدور التاريخي للمجموعة الستالينية هو تدمير هذه الازدواجية عبر إخضاع الحزب إلى مكاتبها الخاصة ودمج مكاتب الحزب بمكاتب الدولة. وبهذا الشكل خلق النظام الكلياني، وقد ضمن ستالين إنتصاره النهائي بفضل الخدمات الحاسمة التي قدمها للبيروقراطية. وخلال الأعوام العشرة الأولى كانت المعارضة اليسارية في الحزب تفكر في تحقيق إنتصار إيديولوجي لأفكارها داخل الحزب دون أن تدخل في صراع للسيطرة على السلطة. وكان شعارها المطروح: إصلاح لا ثورة. ومع ذلك كانت البيوروقراطية منذ ذلك الحين مستعدة للقيام بأي انقلاب للدفاع عن نفسها ضد أي إصلاح

ديمقراطي. وعندما اشتد الخلاف في عام 1927 التفت ستالين في اللجنة المركزية نحو المعارضة وصاح قائلاً: «لن تستطيعوا أن تعزلوا هذه الكادرات القيادية إلا بالحرب الأهلية!» وقد حولت هزائم البروليتاريا العالمية هذا التهديد إلى حقيقة تاريخية. وهكذا أضحى طريق الإصلاح هو طريق الثورة.

وكان الهدف من عمليات التطهير المستمرة في الحزب وفي المنظمات السوفياتية هو منع استياء الجماهير من أن يجد لنفسه تعبيراً سياسياً واضحاً. إلا أن عمليات الردع والقهر تعجز عن تدمير الأفكار نهائياً ولكنها لا تعجز عن كبتها. ولدى الشيوعيين والمواطنين غير الحزبيين قناعتان: قناعة رسمية واقتناع داخلي سري. إن الوشاية والتفتيش يلتهمان المجتمع وتصف البيروقراطية خصومها بأنهم أعداء الإشتراكية. وهي إذ تستخدم ضدهم تزويرات قضائية لدرجة دخلت معها هذه التزويرات في العادات، تنسب إليهم، كما تشاء، أحط الجرائم. وهي تنتزع من الضعفاء، تحت التهديد بالإعدام، اعترافات تمليها عليهم بنفسها، ثم تستغل هذه الاعترافات بعدئذ لتتهم من هم أعظم صموداً.

أما «البرافدا»، وهي تحاول تفسير أكثر دساتير العالم ديمقراطية، فقد كتبت في 5 حزيران/ يونيو عام 1936 تقول: «إن من الحماقة التي لا يمكن غفرانها أن نؤمن بالرغم من القضاء على الطبقات بأن القوى الطبقية المعادية للإشتراكية قد ركنت إلى هزيمتها. . . فالمعركة مستمرة». فما هي إذن هذه القوى الطبقية المضادة؟ وتجيب البرافدا بقولها: «إنها بقايا التجمعات المضادة

للثورة والحرس الأبيض على اختلاف أجناسهم ولاسيما التروتسكيين ـ الزينوفيوفيين»... وبعد أن تلصق البرافدا التهم اللازمة والتي تتهم التروتسكيين والزينوفيوفيين بالتجسس والأعمال الإرهابية والتدميرية، تضيف هذه الصحيفة الناطقة باسم ستالين قائلة: سنستمر في القضاء على أعداء الشعب بيد ثابتة، وعلى الزواحف والأرواح الشريرة التروتسكية مهما حاولت التمويه والخداع. وكانت هذه التهديدات المستمرة يومياً في الصحافة تواكب عمل البوليس السياسي.

إن بتروف، وهو عضو في الحزب منذ 1918، قاتل في الحرب الأهلية، ثم أضحى خبيراً زراعياً سوفياتياً ومعارضاً يمينياً، كتب عندما فر من المعتقل في العام 1936، واستطاع عبور الحدود إلى الخارج، كتب في صحيفة ليبرالية عن التروتسكيين ما يلي: العناصر اليسارية من الناحية النفسية هؤلاء هم آخر من تبقى من الثوريين، إنهم الثوريون الأصليون، المتأججون. لا أدنى روح تجارية لديهم ولا مكان للحلول الوسط في تفكيرهم... إنهم رجال جديرون بالإعجاب رغم أن لهم بعض الأفكار الحمقاء... من مثل الحريق الكوني وما يشبه ذلك من الرؤى... فلندع مسالة الأفكار. إن الحكم الأخلاقي على عناصر اليسار من قبل خصومهم اليمينيين حكم يتميز ببلاغة عفوية. إنهم حقاً آخر الثوريين الأصليين والمتأججين، الذين يتهمهم جنرالات وعقداء البوليس السياسي بتهم مختلفة... منها تهمة الثورة المضادة لصالح الإمبريالية.

وفي حين ترفع القيود التي فرضت سابقاً على الأشخاص من أصل برجوازي نجد الهستيريا البيروقراطية الحاقدة على المعارضة البلشفية تكتسب معنى سياسياً صارخاً. إن المراسيم المتسامحة التي تسهل لأولئك الأشخاص إيجاد العمل ومتابعة الدراسات العليا، تنطلق من فكرة توقف مقاومة الطبقات المسيطرة قديماً، وصيرورة النظام الجديد ثابتاً لا يتزعزع. وقد فسر مولوتوف للمجلس التنفيذي في كانون الثاني/يناير 1936، هذا الموقف بقوله: لم تعد هذه القيود ذات جدوى. ويبدو في الوقت ذاته إن أسوأ الأعداء الطبقيين يؤخذون من بين الرجال الذين كرسوا كل حياتهم للنضال من أجل الإشتراكية، بدءاً من أقرب المتعاونين مع لينين كزينوفييف وكامينيف. إن التروتسكيين، إذا أردنا أن نصدق البرافدا يزدادون سخطاً كلما ارتسمت منحنيات المجتمع الإشتراكي اللاطبقي وازدادت ملامحه وضوحاً. هذه الفلسفة الهاذية التي ولدت من ضرورة تبرير مواقف جديدة بالاعتماد على صيغ قديمة، لا تستطيع بالطبع أن تخدع أحداً حول التحويل الحقيقي للتناقضات الإجتماعية. فمن جهة نجد أن خلق الوجهاء يفتح كل مجالات الحياة إلى أكثر أحفاد البرجوازيين طموحاً لأنهم لا يخشون شيئاً من منحهم المساواة في الحقوق. ومن جهة أخرى فإن هذا العمل ذاته يستثير استياء الجماهير الخطر والحاد، وبخاصة الشبيبة العمالية. كل هذا يفسر الحملة ضد الزواحف والأرواح الشريرة التروتسكية.

إن سيف الديكتاتورية، الذي كان يضرب في السابق أعناق أنصار إعادة البرجوازية، يهوي الآن على أعناق الذين يتمردون ضد البيروقراطية. إن هذا السيف يضرب الطليعة البروليتارية لا أعداء

البروليتاريا الطبقيين. والبوليس السياسي الذي تشكل في الماضي من أكثر العناصر البلشفية إخلاصاً وأكثرها استعداداً للتضحية والفداء، أضحى بعد تعديل رئيسي في وظائفه أكثر أجهزة البيروقراطية تعفناً. ويقتص الترميدوريون من الثوريين بحقد لا مثيل له، حقداً ضد رجال يذكّرونهم بالماضي ويجعلونهم يرتعدون خوفاً من المستقبل. إن أكثر البلاشفة أمانة وصلابة، بل إن زهرة الحزب البلشفي هم في السجون وفي المناطق النائية من سيبيريا وآسيا الوسطى وفي معسكرات الاعتقال الموجودة في كل مكان. إن المعارضين للحكم الحالي القابعين في السجون والمنافي معرضون للتفتيش وللحصار البري والجوع. إن النساء ينتزعن من أزواجهن والهدف من ذلك هو تحطيم الطرفين وإكراههما على الارتداد. ولكن الارتداد لا يعني الخلاص، فعند أول بادرة شك أو عند أول وشاية يتعرض القادم لعقاب مضاعف. أما المعونة التي تبذل للمنفيين، حتى ولو كانت هذه المعونة من أقرب المقربين إليهم، فإنها تعتبر جريمة. أما التعاون والتضامن فيما بين المنفيين فإنه يعني المؤامرة.

إن الإضراب عن الطعام في مثل هذه الشروط هو الوسيلة الوحيدة الباقية للمضطهَدين. ويرد عليها البوليس السياسي بالتغذية الإجبارية، إلا إذا ترك لأسراه حرية الموت جوعاً. لقد دُفع مئات الثوريين الروس والأجانب، خلال الأعوام الأخيرة إلى إضرابات مميتة عن الطعام أو أعدموا رمياً بالرصاص أو اضطروا إلى الانتحار. وفي خلال اثني عشر عاماً أعلنت الحكومة عدة مرات أنها اقتلعت المعارضة نهائياً. ولكن خلال عمليات التطهير التي جرت في الأشهر الأخيرة من عام 1935 وفي النصف الأول من

عام 1936 طُرد من صفوف الحزب مجدداً مئات الألوف من الشيوعيين، ومن أصل هذا العدد، عشرات الألوف من التروتسكيين. أما أكثر الأعضاء نشاطاً وفعالية فأوقفوا حالاً وألقي بهم في السجون أو أرسلوا إلى معسكرات الاعتقال. أما ما يتعلق بالباقين فقد أوعز ستالين بواسطة البرافدا إلى السلطات المحلية كي لا تؤمِّن لهم عملاً. وفي بلد تكون فيه الدولة المصدر الوحيد للعمل فإن إجراء من هذا النوع يساوي حكماً بالموت من الجوع. وقد استبدل المبدأ القديم القائل: «من لا يعمل لا يأكل» بالمبدأ التالي: «من لا يخضع لا يأكل». فكم طرد من البلاشفة وكم أوقف منهم ونفي وأبيد، إعتباراً من العام 1923، هذا العام الذي افتتح فيه العهد البونابرتي؟ فنحن لن نعرف إلا في اليوم الذي تفتح فيه ملفات البوليس السياسي الستاليني، ترى كم هو عدد من يبقون في وضع غير قانوني؟ إننا لن نعرف ذلك إلا في اليوم الذي ينهار فيه النظام البيروقراطي.

ما هي أهمية عشرين أو ثلاثين ألفاً من المعارضين في حزب يضم مليونين من الأعضاء؟ إن المقارنة البسيطة للأرقام لا تدل على شيء في مثل هذه الحالة. فيكفي وجود عشرة من الثوريين في لواء من الألوية كي ينتقل هذا اللواء إلى جانب الشعب في ملتهب. ولذلك فإن هيئات الأركان على حق في هلعها من المجموعات السرية الصغيرة وحتى من المناضلين المعزولين. إن هذا الخوف الذي يجعل البيروقراطية الستالينية ترتعد يفسر قسوة القصاص الذي فرضته على معارضيها وجور افتراءاتها.

إن فيكتور سيرج الذي مر في الإتحاد السوفياتي بكل مراحل القهر والعنف، حمل إلى الغرب الرسالة المخيفة لأولئك الذين عذبوا من أجل إخلاصهم للثورة ومقاومتهم لحفاري قبورها. وقد كتب سيرج يقول: «إني لا أبالغ فأنا أزن مقاطع الكلام وبإمكاني أن أدعم كل حادثة من الأحداث بأدلة مؤلمة وبأسماء... فمن بين تلك المجموعة من الضحايا المعارضين الذين خلد معظمهم إلى الصمت، أقلية بطولية أقرب إلى نفسي من كل المجموعات الأخرى. إن هذه المجموعة النادرة في نشاطها وحيويتها وبعد نظرها وعزيمتها التي لا تلين وتعلقها ببلشفية العصر البطولي، هذه المجموعة هي بضعة آلاف، شيوعيون منذ الساعة الأولى، إنهم رفاق لينين وتروتسكي بناة الجمهوريات السوفياتية عندما كانت هنالك مجالس سوفيات، وهم يردون على الانحطاط الداخلي للنظام بمبادئ الإشتراكية، ويدافعون قدر مستطاعهم عن حقوق الطبقة العاملة ـ وهم لا يستطيعون إلا القبول بكل التضحيات الممكنة ـ»...

إن المعتقلين في سجون الإتحاد السوفياتي سيصبرون وسيصمدون إلى النهاية وحتى لو لم يشرق على الثورة فجر جديد. وبإمكان الثوريين الغربيين أن يعتمدوا عليهم، فستبقى شعلة الثورة في أيديهم حتى ولو في السجون. إنهم يعتمدون عليكم أيضاً. فعليكم وعلينا الدفاع عنهم، وذلك من أجل الدفاع عن الديمقراطية العمالية في العالم، ومن أجل أن نعيد لديكتاتورية البروليتاريا وجهها المحرّر، ولكي نعيد في يوم من الأيام للإتحاد السوفياتي مجده الأخلاقي وثقة العمال به.

ـ حتمية ثورة جديدة:

لقد كتب لينين في موضوعه زوال الدولة وضرورة تلاشيها أن الاعتياد على اتباع قوانين الجماعة قادر على استبعاد كل ضرورة للعنف إذا لم يكن هناك شيء يثير السخط والاحتجاج والتمرد ويستدعي القمع بالتالي. وهذه الـ«إذا» تشمل كل شيء. فالنظام الحالي للإتحاد السوفياتي يثير لدى كل خطوة من خطواته احتجاجات تزداد مرارتها بقدر ما يتم خنقها. والبيروقراطية ليست أداة قهر وإكراه فحسب بل إنها المصدر الدائم لكل استفزاز. كما أن وجود فئة من السادة الشرهين والكذابين والوقحين لابد من أن يثير تمرداً خفياً. إن تحسين أوضاع العمال لا يصالحهم مع السلطة، بل على العكس فإن إعلاء مكانتهم في المجتمع، وتفتيح أفكارهم على المسائل السياسية العامة، ورفع مستواهم الفكري من شأنه أن يصنع منهم قوة مستعدة لخوض الصراع ضد المسؤولين.

إن القادة الذين لا يمكن عزلهم يتسلون في ترداد شعارات ضرورة التعلم وتمثل التقنية وضرورة التثقف، وكذلك في ترداد أشياء جميلة أخرى. ولكن القادة أنفسهم جاهلون ضعيفو الثقافة، وهم لا يتعلمون شيئاً بصورة جدية، ويظلون على حالهم من عدم الإخلاص والفظاظة والخشونة. فادعاؤهم الوصاية الكاملة على المجتمع، سواء بتوجيه الأوامر لمديري التعاونيات أو مؤلفي الموسيقى، أضحى أمراً غير محمول. ولن يتمكن الشعب من الحصول على ثقافة أعلى إذا لم يحطم خضوعه الذليل لهذه الفئة من الغاصبين.

هل سينتهي الموظف بالتهام الدولة العمالية، أم هل تتوصل الطبقة العاملة إلى تقليص نفوذ الموظف لتجعله في وضع غير قادر على الأذى؟ تلك هي المعضلة التي يتوقف عليها مصير الإتحاد السوفياتي. فالأكثرية الهائلة من العمال هي منذ الآن معادية للبيروقراطية، كما أن جماهير الفلاحين تضمر لتلك البيروقراطية حقداً شعبياً شديداً. وإذا لم يبدأ العمال المعركة، على نقيض الفلاحين، وتركوا الأرياف لتخبطاتها وعجزها فإنهم لا يفعلون ذلك خوفاً من عنف الدولة، بل خوفاً من فتح طريق أمام عودة النظام الرأسمالي. فالعلاقات المتبادلة بين الدولة والطبقة العاملة هي أكثر تعقيداً عما يظنه الديمقراطيون المبتذلون. فبدون إقتصاد مخطط يتأخر الإتحاد السوفياتي عشرات الأعوام إلى الوراء. والبيروقراطية، بحفاظها على هذا الإقتصاد، تستمر في القيام بوظيفة ضرورية. لكنها تقوم بها بشكل يجعلها تهيئ في الوقت ذاته نسف النظام وتهدد كل مكاسب الثورة. إن العمال واقعيون، وفي حين ليست لديهم أوهام حول الفئة الحاكمة، أو حول شرائحها التي عرفوها عن كثب، على الأقل، يرون فيها في الوقت الحاضر حارسة لجزء معين من مكاسبهم الخاصة، وهم لن يترددوا في طرد هذه الحارسة غير الشريفة والوقحة والمشبوهة، عندما يصبحون قادرين على الاستغناء عنها. وينبغي من أجل ذلك أن يكون هناك انقشاع ثوري في الشرق كما في الغرب.

إن عملاء الكرملين وأصدقاءه يتحدثون عن توقف الصراعات السياسية المرئية كما لو كان استقراراً للنظام. والحق أنه لا يعني إلا استقراراً مؤقتاً للبيروقراطية، على أساس أنه تم كبت استياء

الشعب. ويعاني الجيل الجديد بصورة خاصة من نير الحكم المطلق المستنير وهو أكثر إطلاقية مما هو مستنير... فحذر البيروقراطية الذي يستفحل أكثر فأكثر حيال كل وميض فكر، والمديح الذي لا يطاق للقائد الذي أرسلته العناية الإلهية، كل هذا يؤكد الطلاق بين الدولة والمجتمع وازدياد حدة التناقضات الداخلية التي تضغط على صمامات الدولة ساعية عن منفذ لا بد أن تجده حتماً في يوم من الأيام.

لقد كان للاعتداءات ضد ممثلي السلطة في غالب الأحيان أهمية كبرى ذات معنى تجعل المرء قادراً على أن يحكم على الوضع الراهن للبلاد. وقد كان أكثرها صدى حادثة اغتيال سيرغي كيروف الأمين العام للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي في العام 1934 والذي أدى إلى حملة تطهير واسعة النطاق داخل الحزب.

وكان سيرغي كيروف ميرونوفيتش 1886 ـ 1934 سياسياً سوفياتياً مخضرماً وصديقاً لستالين. وغدا سكرتير الحزب في لينينغراد عام 1926. وكان مكروهاً من أعداء النظام فتم اغتياله عام 1934 واتهم بذلك التروتسكيون مما أدى إلى عمليات تطهير عنيفة ذهب ضحيتها الآلاف من المعارضين للنظام.

وكان كيروف ديكتاتور لينغراد الحاذق، وهو شخصية نموذجية للفئة التي ينتمي إليها. إن الأعمال الإرهابية غير قادرة بنفسها على قلب الأوليغارشية البيروقراطية. فالبيروقراطي، يخشى على نفسه، على المستوى الفردي، من المسدس، إلا أن البيروقراطية في

مجموعها تستغل الإرهاب بنجاح لتبرر عنفها ولتبرر اتهامها خصومها السياسيين ـ حادثة زينوفييف وكامينييف وآخرين ـ.

فالإرهاب الفردي هو سلاح الأفراد المنعزلين الذين نفذ صبرهم أو اليائسين، وهم في غالب الأحيان من الجيل البيروقراطي الشاب. ولكن الجرائم السياسية، كما في ظل الحكم الفردي الأوتوقراطي تؤكد وجود توتر في الجو ووجود أزمة داخلية. وقد أظهرت البيروقراطية بإعلانها الدستور الجديد أنها تشم رائحة الخطر وتريد أن تمنع وقوعه. ولكن حدث أكثر من مرة أن الديكتاتورية البيروقراطية وهي تبحث عن الخلاص باتخاذها إجراءات تدعي أنها ليبرالية لم تفعل شيئاً سوى أنها أضعفت نفسها. فالدستور الجديد البونابرتي يحفر بين مواده خندقاً قانونياً يمكن للمرء أن يتمركز فيه ويعلن الحرب على هذا الدستور. ومن الممكن أن يصبح الصراع الانتخابي بين الكتل نقطة إنطلاق لمعارك سياسية. أما المهماز الموجه ضد أجهزة السلطة التي تعمل بصورة سيئة، فمن الممكن أن يصبح مهمازاً ضد البونابرتية. وكل الدلائل تحملنا على الاعتقاد أن الأحداث سوف تحمل حتماً صراعاً بين القوى الشعبية المتزايدة نتيجة تطور الثقافة والأوليغارشية البيروقراطية. ولا تشتمل هذه الأزمة على حل سلمي إذ أننا لم نشاهد الشيطان يقضم مخالبه بنفسه بمحض إرادته. فالبيروقراطية السوفياتية لن تتخلى عن مواقعها دون قتال والبلاد تسير بوضوح نحو الثورة.

وفي مواجهة الضغط العنيف للجماهير وبوجود تمايزات إجتماعية بين الموظفين، فإنه من الممكن أن تقوم المقاومة من

جانب الحكام أكثر ضعفاً مما ينبغي أن تكون. ومما لا شك فيه أنه لا يمكن أن نعتمد في هذا الموضوع إلا على مجرد التخمين. ومهما يكن الأمر فإنه لا يمكن إبعاد البيروقراطية إلا بالعمل الثوري، وذلك عن طريق تقديم تضحيات يقل ما هو مطلوب منها بمقدار ما يكون هناك المزيد من القوة والجرأة في النضال. إن تحضير هذا العمل الثوري وقيادة الجماهير في وضع تاريخي ملائم هما مهمتا الفرع السوفياتي في الأممية الرابعة الذي مازال ضعيفاً اليوم ومضطراً للعمل السري. ولكن لا شرعية حزب من الأحزاب لا تلغي وجوده: إنها شكل عسير من أشكال وجوده. يمكن للقمع أن يكون فعالاً ضد طبقة تغادر المسرح، وقد برهنت الديكتاتورية الثورية لأعوام 1917 ـ 1923 عن صحة ذلك. إلا أن الالتجاء إلى العنف ضد الطليعة الثورية لا ينقذ فئة مغلقة تعيش على أنقاض نفسها بمقدار ما يكون هناك طبعاً مستقبل للإتحاد السوفياتي.

إن الثورة التي تهيئها البيروقراطية ضد نفسها لن تكون ثورة إجتماعية كثورة عام 1917 فلن يكون الهدف من هذه الثورة تبديل القواعد الإقتصادية للمجتمع السوفياتي وإحلال شكل للملكية محل شكل آخر. فلقد عرف التاريخ، عدا الثورات الإجتماعية التي قضت على النظام الإقطاعي واستبدلته بنظام برجوازي، عرف ثورات سياسية قلبت كل التشكيلات الحاكمة القديمة دون المساس بالأسس الإقتصادية للمجتمع 1830 و1848 في فرنسا، وفي شباط/فبراير 1917 في روسيا. إن قلب الفئة البونابرتية سيكون له نتائج إجتماعية عميقة الأثر ولكنها ستكون داخل إطار التطور السياسي.

إن دولة منبثقة من الثورة العمالية برزت لأول مرة في التاريخ. ولا يستطيع أحد معرفة المراحل التي ستتخطاها. لقد كان بناة الإتحاد السوفياتي ومنظروه يأملون حقاً في أن يسمح نظام السوفيات الواضح والمرن للدولة بأن تتحول سلمياً وأن تتلاشى وأن تزول كلما حقق المجتمع تطوره الإقتصادي والثقافي. ولكن ظهر أن الحياة معقدة من الناحية العملية أكثر من الناحية النظرية. لقد اضطلعت بروليتاريا بلد متخلف بأول ثورة إشتراكية، لذا فسوف يكون عليها أن تدفع ثمن هذا الإمتياز التاريخي بثورة ثانية ضد السلطة البيروقراطية المطلقة. ويتوقف برنامج هذه الثورة على الوقت الذي ستنفجر فيه والمستوى الذي تكون بلغته البلاد، كما أنه سيتأثر إلى حد بعيد بالوضع الدولي.

حسن كامل الصبّاح
(1894 ـ 1935)

مِن حسن كامل الصبّاح إلى أحمد زويل مسار قافلة طويلة كُتِبَ فيها على أرحام الشرق أن تقذف لتُقطف الثمار هناك في الغرب، ونكتفي نحن هنا بالفخر والاحتفاء!!

وإذا كنا جميعاً نعرف من هو أحمد زويل، فالكثيرون منا لا يعرفون العالم اللبناني حسن كامل الصبّاح (1894 ـ 1935) الذي قدم للبشرية حوالي 176 اختراعاً رغم عمره القصير 41 عاماً، بالإضافة إلى العديد من النظريات الرياضية في مجال الهندسة الكهربائية حتى أطلقت عليه الصحف الأميركية لقب «خليفة أديسون» أو «أديسون الشرق»، وكان العربي الوحيد الذي منحه معهد المهندسين الكهربائيين الأميركيين لقب فتى العلم الكهربائي.

ـ بيت علم:

ولد الصبّاح في 16 آب/أغسطس عام 1894 في بلدة النبطية جنوب لبنان، ونشأ في بيت علم وفكر، فتوجهت اهتماماته نحو الاطلاع والثقافة والتعرف على ما في الطبيعة من قوى، وشجعه على ذلك خاله الشيخ أحمد رضا الذي كان شغوفاً

بالبحث والتعرف على الحقائق الطبيعية والإجتماعية والروحية.

وقد ظهرت علامات الذكاء والنبوغ على حسن وهو في السابعة من عمره عندما ألحقه والده بالمدرسة الإبتدائية فنال إعجاب معلميه، ثم التحق بالمدرسة السلطانية في بيروت سنة 1908 فظهر نبوغه في الرياضيات والطبيعيات، وفى نهاية السنة الأولى له فيها أدرك الصبّاح عدم صلاحية الكتب الدراسية المقررة عليه مع طموحاته العلمية، فبدأ في دراسة اللغة الفرنسية للاطلاع على العلوم التي لم يكن يجدها في الكتب العربية آنذاك.

ثم التحق الصبّاح بالجامعة الأميركية في بيروت، وأتقن اللغة الإنجليزية في مدة قصيرة، واستطاع حل مسائل رياضية وفيزيائية معقدة ببراعة وهو في السنة الجامعية الأولى، وشهد له أساتذته بقدراته، وتردد اسمه بين طلاب الجامعات اللبنانية، ووصفه الدكتور فؤاد صروف ـ أحد أساتذته ـ في مجلة المقتطف بأنه شيطان من شياطين الرياضيات.

ـ مدرس للرياضيات:

التحق الصبّاح بقسم الهندسة في الجامعة الأميركية، وأبدى اهتماماً خاصاً نحو الهندسة الكهربائية ونتيجة لما ظهر عليه من نبوغ في استيعاب نظرياتها وتطبيقاتها تبرع له أحد الأساتذة الأميركيين البارزين بتسديد أقساط المصروفات الجامعية تقديراً منه لهذا التفوق حين عرف أن ظروف أسرة الصبّاح المادية لا تسمح له بمواصلة الدراسة الجامعية.

وعندما بلغ سن تأدية الخدمة العسكرية اضطر حسن كامل الصبّاح إلى التوقف عن الدراسة عام 1916 والتحق بسرية التلغراف اللاسلكي. وفي عام 1918 توجه إلى العاصمة السورية دمشق، حيث عمل مدرساً للرياضيات بالإضافة إلى متابعته دراسة الهندسة الكهربائية والميكانيكا والرياضيات، كما وجه اهتماماً للاطلاع على نظريات العلماء في مجال الذرة والنسبية، وكان من القلائل الذين استوعبوا هذه النظرية الشديدة التعقيد، وكتب حولها المقالات فشرح موضوع الزمان النسبي والمكان النسبي والأبعاد الزمانية والمكانية والكتلة والطاقة وقال عنه العالم إستون فيما بعد: «كان الوحيد الذي تجرأ على مناقشة آراء أينشتاين الرياضية وانتقادها والتحدث عن النسبية كأينشتاين نفسه».

وفي العام 1921 غادر دمشق وعاد إلى الجامعة الأميركية مرة أخرى لتدريس الرياضيات، وكان حريصاً على شراء المؤلفات الألمانية الحديثة في هذا المجال، ولكن في الوقت نفسه كان الصبّاح تواقاً إلى التخصص في مجال الهندسة الكهربائية.

- إلى أميركا:

وفى العام 1927 توجه حسن كامل الصبّاح إلى أميركا، والتحق بمدرسة «الهندسة الكبرى» المسماة مؤسسة «ماسانشوستش الفنية»، لكنه لم يتواءم مع التعليم الميكانيكي في هذه المؤسسة، كما عجز عن دفع رسومها فتركها بعد عام، وانتقل إلى «جامعة إلينوي». ولمع نبوغ الصبّاح قبل نهاية العام الدراسي الأول في هذه الجامعة، فقدم أستاذ الفلسفة الطبيعية فيها اقتراحاً للعميد بمنح الصبّاح شهادة

معلم علوم (M.A) إلا أن العميد لم يوافق على الاقتراح، حيث كان يجب على الطالب أن يقضي عامين على الأقل في الجامعة قبل منحه أي شهادة.

وفكر الصبّاح في بدء حياته العملية، فالتحق بـ «شركة الكهرباء العامة» في ولاية نيويورك، وكانت تعتبر أعظم شركات الكهرباء في العالم، وفيها ظهرت عبقريته وتفوقه على المئات من المهندسين العاملين بالشركة، ولم تمضِ سنة واحدة على عمله بها حتى بدأت سلسلة اختراعاته التي نالت إعجاب رؤسائه فخصصوا له مختبراً ومكتباً وعينوا عدداً من المهندسين الذين يعملون تحت إدارته.

ووضع الصبّاح نظريات وأصولاً جديدة لهندسة الكهرباء، فشهد له العلماء بالعبقرية ومن بينهم العالم الفرنسي الشهير موريس لوبلان، وبعث إليه الرئيس الأميركي آنذاك بخطاب يؤكد فيه إعجابه بنبوغه واختراعاته، وأرسلت إليه شركات الكهرباء الكبرى شهادات تعترف بصحة اختراعاته، ومنها شركة «وستنكهاوس» في شيكاغو وثلاث شركات ألمانية أخرى.

وفي العام 1932 منحه مجمع مؤسسة الكهرباء الأميركي لقب «فتى مؤسسة مهندسي الكهرباء الأميركية»، وهو لقب علمي لا يُعطى إلا إلى من اخترع وابتكر في الكهرباء، ولم ينل هذا اللقب إلا عشرة مهندسين في الشركة.

ـ «فتى العلم الكهربائي»:

في مطلع العام 1933 تمت ترقيته في الشركة، ومنح لقب «فتى

العلم الكهربائي» وذلك بعد انتخابه من جمعية المهندسين الكهربائيين الأميركيين في نيويورك. واستطاع الصبّاح اكتشاف طرائق الانشطار والدمج النووي المستخدمة في صنع القنابل الهيدروجينية والنووية والنيترونية.

وقد شملت علوم الصبّاح نواحي معرفية عديدة في مجالات الرياضيات البحتة والإحصائيات والمنطق والفيزياء وهندسة الطيران والكهرباء والإلكترونيات والتلفزة، وتحدث عن مادة «الهيدرولية» وما ينتج عنها من مصادر للطاقة، واستشهد بشلالات نبع الصفا في جنوب لبنان ونهر الليطاني، كما كانت له آراؤه في المجالات السياسة والإقتصادية والإجتماعية والحرية والاستعمار والمرأة والوطنية والقومية العربية، وكان ذواقاً للأدب ويجيد أربع لغات هي: التركية والفرنسية والإنجليزية والألمانية.

ـ اختراعات الصبّاح:

يصل عدد ما اخترعه حسن كامل الصبّاح من أجهزة وآلات في مجالات الهندسة الكهربائية والتلفزة وهندسة الطيران والطاقة إلى أكثر من 76 اختراعاً سجلت في 13 دولة منها: الولايات المتحدة الأميركية، وبلجيكا، وكندا، وبريطانيا، وفرنسا، وإيطاليا، وأستراليا، والهند، واليابان، وأسبانيا، وإتحاد دول أفريقيا الجنوبية. وبدأ اختراعاته عام 1927 بجهاز ضبط الضغط الذي يعين مقدار القوة الكهربائية اللازمة لتشغيل مختلف الآلات ومقدار الضغط الكهربائي الواقع عليها.

وفي العام 1928 اخترع جهازاً للتلفزة يستخدم تأثير انعكاس

الإلكترونيات من فيلم مشع رقيق في أنبوب الأشعة المهبطية الكاثودية، وهو جهاز إلكتروني يمكّن من سماع الصوت في الراديو والتليفزيون ورؤية صاحبه في آن واحد.

كما اخترع جهازاً لنقل الصورة عام 1930، ويستخدم اليوم في التصوير الكهروضوئي، وهو الأساس الذي ترتكز عليه السينما الحديثة، وخاصة السينما سكوب بالإضافة إلى التليفزيون.

وفي العام نفسه اخترع جهازاً لتحويل الطاقة الشمسية إلى طاقة كهربائية مستمرة، وهو عبارة عن بطارية ثانوية يتولد بها حمل كهربائي بمجرد تعرضها لأشعة الشمس، وإذا وُضع عدد منها يغطي مساحة ميل مربع في الصحراء، فإن القوة الكهربائية التي يمكن استصدارها من الشمس عندئذ تكون 200 مليون كيلو وات، وقد عرض الصبّاح اختراعه هذا على الملك فيصل الأول ملك العراق ليتبناه، لكن الملك وافاه الأجل قبل أن يفعل، ثم عرضه على الملك عبد العزيز بن سعود لاستخدامه في صحراء الربع الخالي، ولكن الصبّاح توفي بعد فترة وجيزة.

ـ نهاية الطريق:

وفي العام 1935 وقبل يومين من وفاته بعث العالم حسن كامل الصبّاح برسالته الأخيرة إلى الأهل في النبطية، وجاء في أحد مقاطعها: «إنني أجتاز الآن مرحلة صعبة خطيرة، أسأل الله أن ينجيني منها، فادعوا لي لأن دعاءكم ورضاكم قد يخلصاني من أعداء ألداء يكيدون لي دائماً ويسعون لزحزتي من طريقهم».

وقبل تاريخ هذه الرسالة بيوم كان قد سُجل إسم الصبّاح في قسم الطيران التجاري الأميركي كتلميذ طيار بدأ بالانتساب في 25 حزيران 1934 وفي 29 منه أعطي شهادة رسمية بالانتساب.

وإذا عرفنا أن الصبّاح سجل باسمه 37 اختراعاً في مجال الطاقة والكهرباء و15 اختراعاً مع علماء آخرين، واكتشافات علمية أخرى عديدة لم تُسجل رسمياً، يتضح حجم موقعه العلمي ودوره في مجال تطوير هذه العلوم، برغم تضييق الخناق عليه في الشركة التي يعمل فيها وهي «جنرال الكتريك» بحيث إن هذا الرجل العربي الطموح، لا يجد غير إتقان فن الطيران، وصنع الطائرات كوسيلة للعودة إلى الأرض العربية، وتنشق عبير صحرائها، وبناء المصانع فيها، وهو يقول: «إني سأقتصد المقدار الكافي من المال لإتقان فن الطيران، وعمل الطائرات، وأتوجه إلى المملكة العربية السعودية أو العراق وأؤسس هناك معملاً للطائرات، وهذا يستغرق مقدار سنة أو سنتين، وبهذا أتمكن من تحطيم نير الظلم والاستبداد الذي يكبّلني به القوم هنا، وإني سأضطر إلى صرف كل راتبي أجرة تمرين على الطيران وثمن طائرة أتمرن عليها من ذاتي بعد أن أجيد استعمالها».

وإذا علمنا أيضاً، أن الصبّاح عمل على تحويل نور الشمس إلى كهرباء وطاقة محرقة، يتضح حجم العداء الذي واجهته به شركات البترول العالمية.

وإذا علمنا أنه كان هناك اتصال مع المغفور له الملك عبد العزيز آل سعود بشأن مجيئه إلى السعودية لاستخدام نور الشمس

لتسيير الآلات والمصانع، يتضح أيضاً حجم عداء شركات النفط.

وإذا علمنا أن هذه الفترة كانت تشهد نشاطاً صهيونياً متزايداً من أجل تطبيق وعد بلفور في فلسطين، يتضح حجم العداء لحسن كامل الصبّاح، ومن هنا لا يمكن إلا طرح علامات الاستفهام حول المصير المأساوي الذي وصل إليه الصبّاح، بعد شرائه الطائرة، حيث كان مع رفيقين له هما استر فوجل وزوجته في منطقة تدعى بلانسبورغ، حينما اتفقا على تبادل السيارتين التي يقودانها. وحدث ذلك فعلاً، وابتعد فوجل وزوجته عن الصبّاح فانتظراه لحظة، لكنه لم يطل، فرجعا فوجدا السيارة التي يقودها الصبّاح متدهورة إلى هوة بعمق 15 قدماً، والصبّاح في مقعده يعاني من الرمق الأخير وتوفي فعلاً.

الشيخ عز الدين القسّام
(1882 ـ 1935)

ولد عز الدين القسَّام في بلدة جبلة التابعة لقضاء اللاذقية في سورية عام 1882، نشأ في أسرة ريفية عرفت بالعلم والتقوى. أبوه الشيخ عبد القادر مصطفى القسَّام من المشتغلين بعلوم الشريعة الإسلامية، وأمه حليمة قصاب من عائلة علم الدين.

كان أبوه من المهتمين بنشر العلم، حيث درّس القرآن الكريم والعربية والخط والحساب في مدرسة القرية، وبث روح الجهاد بتعليم الأناشيد الدينية والحماسية، ثم عمل لفترة مستنطقاً في المحكمة الشرعية.

تعلم عز الدين القراءة والكتابة وتلاوة القرآن الكريم في كُتَّاب البلدة، وتميز بنبوغه وتفوقه على أقرانه وامتاز بميله للتأمل وطول التفكير.

بعد تفوقه في دراسته، التحق عز الدين للدراسة في الأزهر في مصر، فقد كان الأزهر في ذلك الوقت منارة كبرى لنشر علوم الشريعة والعربية، فحضر دروس الشيخ محمد عبده، وارتوت نفسه من علمه وفهمه. كما تتلمذ على معظم حلقات الأزهر، واعتكف

في أروقة مكتباته، وكان يرافق اهتمامه بدروس العلم اهتمام آخر بحركات التحرر التي كان يغذيها رجال الأزهر، ففهم عز الدين أن الإسلام دين عز وقوة وتحرر وجهاد.

تعرف القسَّام في مصر على الاستعمار الغربي وجهاً لوجه، حيث كانت مصر خاضعة للإحتلال البريطاني المباشر بعد ثورة عرابي عام 1882، وكان تيار المقاومة الإسلامي للإحتلال قوياً، كما رأى القسَّام هجوم المفكرين المتغربين على الإسلام فكراً وحضارة وتاريخاً، وعايش بنفسه الصراع الدائر بين هؤلاء وبين المفكرين الإسلاميين، كما تعرف في مصر على المشروع الصهيوني بأبعاده، وأدرك خطره على الأمة الإسلامية، وأنه وليد الاستعمار الغربي، وسمع عن تطلعات الصهاينة وأطماعهم في فلسطين. وبين مدرسة الشيخ محمد عبده ومدرسة الشيخ رشيد رضا الشامي المقيم في مصر اتضح أمام عيني الشيخ عز الدين القسَّام أن الجهاد وسيلة للدفاع عن حقوق الأمة وللعودة بها إلى سابق مجدها.

عاد القسَّام إلى جبلة عام 1906 بعد أن قضى عشر سنوات في الدراسة في الأزهر، بعدها حصل على شهادة الأهلية، ومن ثم قام برحلة إلى تركيا للإطلاع على طرق التدريس في جوامعها، وبعد عودته عكف على التدريس في زاوية والده، في جامع السلطان بن أدهم قطب الزاهدين. كما أخذ القسَّام دور والده في تدريس أطفال البلدة قواعد القراءة والكتابة وتحفيظ القرآن الكريم، وبعض العلوم الحديثة، وتولى خطبة الجمعة في مسجد المنصوري الذي يتوسط البلدة، وغدا بخطبه ودروسه وسلوكه موضع احترام الناس، وامتدت

شهرته وسمعته الحسنة إلى المناطق المجاورة، فقدم الإسلام بفهمه الواسع الطلق، وربطته بكثير من المواطنين صداقات متينة، فكثر أتباعه، وعظم شأنه، وذاع صيته.

لمّا دخلت القوات الإيطالية طرابلس الغرب ـ ليبيا عام 1911، قاد القسّام مظاهرة طافت شوارع جبلة تأييداً للمسلمين هناك، ودعا الناس إلى التطوع لقتال الطليان، وجمع التبرعات للأسر المنكوبة، إلا أن السلطات التركية منعته ورفاقه المتطوعين من السفر إلى ليبيا، فعادوا بعد أربعين يوماً من الانتظار، وبنوا مدرسة بمال المتبرعين لتعليم الأمّيين.

وعندما دخلت القوات الفرنسية سورية عام 1920، رفع القسّام راية المقاومة ضد المستعمرين الفرنسيين في الساحل الشمالي لسورية، وكان في طليعة المجاهدين الذين حملوا السلاح في الثورة 1919 ـ 1920 مع عمر البيطار، فقد ترك قريته على الساحل، وباع بيته ـ وهو كل ما يملك ـ واشترى أربعاً وعشرين بندقية، وانتقل بأسرته إلى قرية جبلية ذات موقع حصين.

حاول الفرنسيون إقناع الشيخ القسّام بترك الثورة والرجوع إلى بيته وإغرائه بالمناصب، إلاّ أنه رفض عرضهم، ونتيجة لإصراره على خط الجهاد حكم عليه الديوان العرفي الفرنسي في اللاذقية وعلى مجموعة من أتباعه بالإعدام، وطارده الفرنسيون فقصد دمشق ومنها إلى فلسطين.

عاش القسّام ورفاقه في حيفا، ونزلت عائلاتهم في بيت واحد في الحي القديم من المدينة، وهو الحي الذي يجمع فقراء الفلاحين

النازحين من قراهم بعد الاستيلاء عليها وتوطين اليهود المهاجرين إلى فلسطين.

أبدى القسَّام اهتماماً حقيقياً بتحسين أحوال معيشة هؤلاء الفلاحين، وبدأ يكافح الأميَّة في صفوفهم من خلال إعطاء دروس ليلية، وسرعان ما أصبح فلاحو المنطقة الشمالية وعمالها يكنّون له المودة والاحترام بفضل زياراته المتكررة لهم وبما يتسم به من أصالة في الخلق والتقوى.

عمل القسَّام مدرِّساً في المدرسة الإسلامية بحيفا، وكان يحرص على لفت أنظار الطلاب إلى الدور المستقبلي الذي ينتظرهم في ظل وجود الاستعمار، ثم عمل إماماً وخطيباً في جامع الإستقلال بموافقة من مفتي القدس وزعيم الحركة الوطنية الحاج محمد أمين الحسيني، واتجه القسَّام في أسلوبه إلى توعية الشعب الفلسطيني على الأخطار الماثلة أمامه، وكان يكثر من القول: بأن «اليهود ينتظرون الفرصة لإفناء شعب فلسطين، والسيطرة على البلد وتأسيس دولتهم».

كما كان للشيخ القسَّام دروس في المسجد تقام عادة بين الصلوات المفروضة، وقد جعل منها وسيلة لإعداد المجاهدين وصقل نفوسهم وتهيئتها للقتال، معتمداً اختيار الكيفية دون الكمية.

عمل على تأسيس «جمعية الشبان المسلمين» عندما استفحل الخطر البريطاني في فلسطين وانتشرت الجمعيات التبشيرية التي تدعو إلى تنصير المسلمين، وقام القسَّام من خلال نشاطه في الجمعية بتربية جيل من الشباب المسلم، الذين أنقذهم من دائرة

الانحراف والضياع بسبب قسوة الظروف الإقتصادية والسياسية، وأدخلهم في دائرة العمل الجاد لصالح الوطن. كما أنه وثّق اتصالاته بقيادات المدن الفلسطينية الأخرى، وكسب عدداً من شباب المناطق المختلفة للانضمام إلى تنظيم الجهاد. وقد واظب القسّام خلال وجوده في الجمعية على إعطاء محاضرة دينية مساء كل يوم جمعة، وكان يذهب كل أسبوع بمجموعة من الأعضاء إلى القرى، ينصح ويرشد ويعود إلى مقره. كما تمكن من إنشاء عدة فروع للجمعية في أكثر قرى اللواء الشمالي من فلسطين، وواتته الفرصة للّقاء بالقرويين وإعدادهم للدفاع عن أراضيهم.

عمل القسّام مأذوناً شرعياً لدى محكمة حيفا الشرعية سنة 1930، وقد كانت هذه الوظيفة للقسام وسيلة من الوسائل التي اتصل عن طريقها بمختلف فئات المواطنين من شباب وشيوخ، وعمال وفلاحين، وطلاب وموظفين، وتجار وحرفيين، وتحدث إليهم وأقام معهم علاقات قوية كان لها أثر كبير في اتساع دائرة حركته الجهادية.

يعتبر القسّام صاحب دعوة مستقلة وأسلوب متميز وحركة جهادية رائدة سبقت جميع الاتجاهات في ميدان الجهاد المعاصر في فلسطين.

ويتلخص هذا الأسلوب في تربية جيل من المجاهدين، فكان يعقد إجتماعات سرية مكتومة في بيته وفي بيوت بعض أصدقائه، يحضرها عدد من الأشخاص المغمورين غير البارزين أو المعروفين في ميدان الحركة الوطنية، وكان يختارهم من الذين يحضرون

دروسه ومواعظه، ويقوم بتهيئتهم وإعدادهم للجهاد، ويكوّن منهم خلايا جهادية، تقتصر عضويتها على نفر من المؤمنين الصادقين الذين لديهم الاستعداد الكامل للتضحية والفداء.

وعندما تم إنشاء القوة المجاهدة بشكل متكامل، كانت مقسمة إلى وحدات مختلفة المهام، حيث لكل وحدة دور خاص بها تتولاه، وهذه الوحدات هي:

الأولى: وحدة خاصة بشراء السلاح.

الثانية: وحدة خاصة للاستخبارات ومراقبة تحركات العدوين البريطاني واليهودي.

الثالثة: وحدة خاصة بالتدريب العسكري.

الرابعة: وحدة خاصة للدعاية في المساجد والمجتمعات، وأبرز أعمالها الدعوة إلى الجهاد.

الخامسة: وحدة العمل الجماهيري والاتصالات السياسية.

السادسة: وحدة جمع المال من الأعضاء والأنصار، ورعاية أسر المعتقلين والشهداء.

ولماّ قطعت الحركة شوطاً من الإعداد تمت فيه تهيئة المقاتلين للجهاد، ابتدأ رجال القسّام بتنفيذ عمليات فدائية ضد المستوطنات اليهودية عن طريق إعداد كمائن والهجوم على أفراد محددين ومستوطنات معينة، بهدف دفع اليهود في الخارج إلى وقف الهجرة إلى فلسطين.

ولم تكن أعمال القسّام مهاجمة المستعمرات فحسب، وإنما

قاموا بمجموعة أعمال أخرى ذكرها الأستاذ إميل الخوري في كتابه «فلسطين عبر ستين عاماً»، فقال: «أمّا الأعمال التي قام بها القسّاميون فكانت من أروع ما قام به المجاهد في فلسطين، وعلى الرغم من كثرتها وتعدد أشكالها ومظاهرها، فإنها ظلت محاطة بالسرية والكتمان إلى مدى كان معه أكثر الناس يجهلون مصدر هذه الأعمال، بل كانوا لا يعرفون إطلاقاً بوجود حركة القسّاميين، وكان من هذه الأعمال: ملاحقة وتأديب الذين يخرجون عن الشعب ومصالحه، مثل التعاون مع الحكومة ضد الحركة الوطنية، والتجسس لحساب المخابرات البريطانية، أو بيع الأراضي لليهود أو السمسرة عليها للأعداء. وكان من أعمال القساميين العديدة الواسعة النطاق، التصدي لدوريات الجيش والشرطة، وقطع طرق المواصلات والإغارة على ثكنات الجيش ومراكز الشرطة، ومهاجمة حرس المستعمرات اليهودية، وزرع الألغام والمتفجرات فيها».

وفي الوقت الذي اعتبرت فيه أعمال القسّام بمثابة الروح التي سرت في أوصال الأمة، فحركت الهمم وشدت العزائم، وحفّزت الناس إلى العمل، كانت الحكومة البريطانية تعلن عن مكافآت ضخمة لمن يدلي بأية معلومات عن منفذي هذه الأعمال، لأنها فعلاً ألقت الرعب في قلوب اليهود الذين رأوا ولأول مرة عملاً جديداً من حديد ونار، مما لم يتعود عليه اليهود في فلسطين من قبل. وازدادت الحكومة البريطانية واليهود ذعراً وبثوا الأرصاد، ونشروا الجواسيس في الليل والنهار، وصار الاعتقال لمجرد الشبهة.

لذا أصبحت تحركات جماعة القسّام تلاقي صعوبة شديدة، إذ استطاعت الشرطة الإنكليزية الحصول على معلومات بشأن عدد أفراد الجماعة وأسمائهم وأسلحتهم، نتيجة التحقيقات المكثفة التي قامت بها، وكذلك استطاعت الحصول على معلومات تساعدهم أكثر وأكثر على تحديد مكانهم.

وأخيراً، وفي أحراش يعبد في منطقة جنين يوم 20 تشرين الثاني/نوفمبر عام 1935، حددت الشرطة البريطانية مكانهم وهاجمتهم بقوات عسكرية كبيرة ودارت معركة رهيبة بين المجاهدين والشرطة، صمد فيها رجال القسام، وقاتل شيخهم قتال الأبطال، وظل يكافح حتى خرَّ صريعاً في ميدان الجهاد شهيداً كريماً في سبيل إعلاء كلمة الله فوق أرض فلسطين، واستشهد معه بعض إخوانه المجاهدين، وجرح آخرون وتم أسرهم.

نقل الشهداء إلى حيفا، وتمت الصلاة عليهم في جامع الإستقلال، وشيعت جثامينهم الطاهرة بتظاهرة وطنية كبرى نادت بسقوط الإنكليز ورفض الوطن القومي اليهودي.

كان لاستشهاد القسّام أعمق الأثر في شباب فلسطين في الثلاثينات والأربعينات، كما أصبح القسّام رمزاً للتضحية والفداء، مما جعل بعض المؤرخين يعتبرونه بحق شيخ ثوّار فلسطين.

جعفر العسكري
(1886 ـ 1936)

لا يمكننا سرد حادثة اغتيال رئيس الوزراء العراقي السابق جعفر العسكري من دون الإطلالة ولو الموجزة على تلك المرحلة التي سبقت وتلت هذه الحادثة.

ولد جعفر العسكري في العام 1886 وهو أحد رؤساء الوزراء في العهد الملكي في العراق. تولى المنصب مرتين في العام 1924 و1927.

خدم في الجيش العثماني أثناء الحرب العالمية الأولى. كانت له أفكار قومية عربية انضم هو وزوج أخته نوري السعيد إلى لورنس العرب في معاركه ضد العثمانيين. نصَّبه الملك فيصل الأول وزيراً للدفاع في أول حكومة عراقية. شغل منصب وزير الدفاع أيضاً في حكومة ياسين الهاشمي.

قتل جعفر العسكري في انقلاب قاده بكر صدقي عام 1936 وبعد سنوات قامت مجموعة من أقارب العسكري باغتيال بكر صدقي في مطار الموصل. وجاءت الأحداث على الشكل التالي:

ـ انقلاب بكر صدقي والأحداث التي رافقتها:

ولد بكر صدقي عام 1866 درس في الأستانة، في المدرسة الحربية، وتخرج منها ضابطاً في الجيش العثماني، انضم إلى الجيش العراقي الذي أسسه المحتلون في 6 كانون الثاني/يناير عام 1921 برتبة ملازم أول.

رغم كون بكر صدقي من أبوين كرديين، فقد كانت له ميول قومية عربية، ولذلك فقد تلقفه أنصار القومية العربية، من طبقة الحكام العراقيين وتدرج في رتبته العسكرية حتى وصل إلى رتبة فريق ركن، في عهد الملك غازي، واشتهر بالقسوة والعنف عندما قاد الجيش العراقي ضد ثورة الأشوريين عام 1933، على عهد وزارة رشيد عالي الكيلاني، ثم ضد الحركة البارزانية، وضد ثورة العشائر في منطقة الفرات الأوسط عام 1935، وتوطدت العلاقة بينه وبين وزير الداخلية آنذاك، حكمت سليمان الذي أحبه كثيراً.

اشتد الصراع بين وزارة ياسين الهاشمي الثانية والمعارضة التي عملت جاهدة لإسقاط الوزارة التي سعت للتمسك بالحكم بكل الوسائل والسبل، وفي تلك الأيام كان بكر صدقي، الذي شغل منصب قائد الفرقة العسكرية الثانية يتردد باستمرار على دار قطب المعارضة المعروف حكمت سليمان وكان الحديث يدور حول استئثار وزارة الهاشمي بالحكم رغم افتقادها للتأييد الشعبي، اختمرت لدى بكر صدقي فكرة إسقاط وزارة الهاشمي بالقوة عن طريق القيام بانقلاب عسكري بالتعاون مع الفريق عبد اللطيف نوري قائد الفرقة الأولى الذي كانت تربطه معه علاقات وثيقة.

واستطاع الاثنان أن يضما إلى صفهما قائد القوة الجوية العقيد محمد علي جواد.

سارت الأمور بتكتم شديد، مما تعذر على الاستخبارات العسكرية كشف الحركة قبل وقوعها وجاء موعد مناورات الخريف للجيش عام 1936، ووجد بكر صدقي ضالته المنشودة بهذه الفرصة، فقد كانت خطة المناورات تقتضي إجراءها فوق جبال حمرين، بين خانقين وبغداد، وكان المفروض أن تكون الفرقة الأولى، بقيادة الفريق عبد اللطيف نوري في موضع الدفاع عن بغداد، فيما تكون الفرقة الثانية بقيادة بكر صدقي في موقع الهجوم.

وفي 29 تموز/ يوليو 1936 سافر رئيس أركان الجيش، الفريق ياسين الهاشمي شقيق رئيس الوزراء، في مهمة إلى خارج العراق، وأناب عنه الفريق عبد اللطيف نوري، مما سهل الأمور على الانقلابيين كثيراً.

كان موعد المناورات قد حُدد يوم 3 تشرين الأول/ أكتوبر 1936، ولغاية 10 منه، ولذلك فقد قرر بكر صدقي تنفيذ الانقلاب خلال هذه المناورات.

وفي يوم الثلاثاء المصادف 27 تشرين الأول/ أكتوبر، جرى لقاء قبل التحرك بين بكر صدقي وعبد اللطيف نوري، واتفقا على موعد تنفيذ الانقلاب، وتفاصيل الخطة، وجرى الإتفاق على تسمية حركتهم القوة الوطنية الإصلاحية، وطلبا من السيد كامل الجادرجي إعداد مذكرة إلى الملك غازي يطلبان فيها إقالة حكومة ياسين الهاشمي وتكليف السيد حكمت سليمان بتأليف الوزارة.

كما تم إعداد بيان الانقلاب، وجرى إعداد عدد من الطائرات، بقيادة العقيد محمد علي جواد، وبذلك أصبح كل شيء جاهز للانقلاب.

ففي ليلة الخميس المصادف 27 تشرين الأول/أكتوبر 1936، زحفت قوات الجيش إلى بعقوبة، ووصلتها صباح اليوم التالي، حيث قامت بقطع خطوط الاتصال ببغداد، واستولت على دوائر البريد والتلفون، وعدد من المواقع الإستراتيجية في المدينة، ثم واصلت القوات زحفها نحو بغداد، في الساعة السابعة والنصف صباحاً، بقيادة بكر صدقي.

وفي الساعة الثامنة والنصف من صباح ذلك اليوم، ظهرت في سماء بغداد 3 طائرات حربية، يقودها العقيد محمد علي جواد، وألقت ألوف المنشورات التي احتوت على البيان الأول للانقلاب الذي دعا الملك غازي إلى إقالة حكومة ياسين الهاشمي وتكليف السيد حكمت سليمان بتشكيل وزارة جديدة.

وفي الوقت الذي كانت الطائرات تلقي بيان الانقلاب، استقل السيد حكمت سليمان سيارته إلى قصر الزهور حاملاً إلى الملك المذكرة التي وقعها الفريقان بكر صدقي، وعبد اللطيف نوري، والتي حددا فيها مهلة أقصاها 3 ساعات للملك، لإقالة وزارة ياسين الهاشمي، حيث سلمها إلى رئيس الديوان الملكي السيد رستم حيدر.

وما أن بلغ نبأ الانقلاب ياسين الهاشمي حتى بادر إلى الاتصال ببكر صدقي، الذي أبلغه خلال محادثته بالهاتف، أن الملك غازي

على علم بالانقلاب، ولم يكد ياسين الهاشمي ينهي المكالمة التلفونية مع بكر صدقي حتى سارع للتوجه إلى قصر الزهور لمقابلة الملك وتدارس الأمر معه.

سلم رستم حيدر المذكرة إلى الملك غازي، وكان يبدو على وجهه الذهول والاضطراب، وعلى الفور طلب الملك استدعاء كل من ياسين الهاشمي وجعفر العسكري، وزير الدفاع، ونوري السعيد، وزير الخارجية، والسفير البريطاني لتدارس الوضع.

وتحدث السفير البريطاني مخاطباً الملك غازي، وسأله إن كان على علم مسبق بالانقلاب، فنفى الملك ذلك.

وتحدث ياسين الهاشمي موجهاً سؤاله للملك فيما إذا كان لا يزال يثق بالوزارة، فإن الوزارة مستعدة لمجابهة الانقلابيين، وإلا فإنه سيقدم استقالة حكومته.

أما نوري السعيد فقد دعا السفير البريطاني إلى التدخل العاجل لقمع الانقلاب، لكن السفير البريطاني أبلغه أن بريطانيا لا تود التدخل في الأمور الداخلية، وفي حقيقة الأمر أن بريطانيا كانت تريد التخلص من وزارة الهاشمي من جهة، وتخاف من حدوث ما لا يحمد عقباه إذا ما حدث التدخل وفشل في قمع الانقلاب، من جهة أخرى.

مضت الساعات الثلاث التي حددها الإنقلابيون مهلة لاستقالة الوزارة، وتشكيل وزارة جديدة برئاسة حكمت سليمان، ولما لم يتم ذلك بادرت الطائرات في الساعة الحادية عشرة

والنصف من صباح ذلك اليوم بإلقاء القنابل على مقر مجلس الوزراء، ووزارة الداخلية، ودائرة البريد القريبة من مسكن ياسين الهاشمي، ودار البرلمان واضطرت الحكومة إلى تقديم استقالتها للملك في 29 تشرين الأول/أكتوبر 1936. وتم قبول الاستقالة، وسارع الملك غازي إلى الطلب من السيد حكمت سليمان بتأليف الوزارة الجديدة، بناء على طلب الانقلابيين، لكن حكمت سليمان طلب من الملك أن يوجه إليه تكليفاً خطياً لكي يشكل الوزارة.

وفي الوقت الذي قدمت الحكومة استقالتها إلى الملك، فإنها عملت على إفشال الانقلاب. فقد بعث جعفر العسكري إلى عدد من قواد الجيش داعياً إياهم للتحرك لحماية بغداد إلا أن تلك الرسائل لم تستطع أن تفعل شيئاً.

ـ مقتل جعفر العسكري، وهروب نوري السعيد:

حاول جعفر العسكري وقف زحف قوات الانقلابيين نحو بغداد، فاتصل ببكر صدقي، وأبلغه أنه آتٍ لمقابلته، وأنه يحمل رسالة من الملك.

كانت فرصة بكر صدقي قد حانت للتخلص من جعفر العسكري ـ صهر نوري السعيد، والرجل القوي في الوزارة، فرتب الأمر مع عدد من ضباطه لقتله.

ولما وصل خبر مقتله إلى نوري السعيد، سارع إلى اللجوء للسفارة البريطانية التي استطاعت تهريبه إلى خارج العراق.

استمرت قوات الانقلابيين بالزحف نحو بغداد حيث وصلت أبوابها في الساعة الرابعة بعد الظهر فلم يجد الملك بُداً من توجيه خطاب التكليف إلى السيد حكمت سليمان، في 29 تشرين الأول/ أكتوبر. وعند الساعة الخامسة والنصف، كانت القوات قد دخلت شوارع بغداد، دون أن تلقى أية مقاومة.

كان حكمت سليمان قد عقد قبل يومين إجتماعاً في دار السيد كامل الجادرجي، ضم السادة جعفر أبو التمن ومحمد حديد، لوضع قائمة بأسماء أعضاء الوزارة في حالة نجاح الانقلاب، وقد طرح في الإجتماع اقتراح حول اختيار نوري السعيد في منصب وزاري، لتطمين الإنكليز، لكن الاقتراح لم يلقَ القبول، فقد عارضه السيدان جعفر أبو التمن، وكامل الجادرجي، واقترح بدلاً منه السيد صالح جبر.

أتم الانقلابيون تشكيل وزارتهم، وصدرت الإرادة الملكية بتشكيلها في الساعة السادسة مساءً وجاءت على الوجه التالي:

1 ـ حكمت سليمان ـ رئيساً للوزراء، ووزيراً للداخلية.

2 ـ جعفر أبو التمن ـ وزيراً للمالية.

3 ـ صالح جبر ـ وزيراً للعدلية.

4 ـ ناجي الأصيل ـ وزيراً للخارجية.

5 ـ كامل الجادرجي ـ وزيراً للإقتصاد والمواصلات.

6 ـ يوسف إبراهيم ـ وزيراً للمعارف.

7 ـ أما بكر صدقي فقد تولى منصب رئيس أركان الجيش، بدلاً من طه الهاشمي، الذي أحيل إلى التقاعد.

أما ياسين الهاشمي، ورشيد عالي الكيلاني، ونوري السعيد فقد غادروا العراق على الفور، بمساعدة السفارة البريطانية، خوفاً من بطش بكر صدقي.

أسرع السفير البريطاني إلى لقاء الملك غازي وحكمت سليمان، ليقف على ما تنوي الوزارة عمله، وقد طمأنه حكمت سليمان بأن الوزارة تحترم تعهدات العراق، وتسعى للنهوض بالبلاد، في كافة المجالات، كما لقي السفير من الملك كل ما يطمئن الحكومة البريطانية.

أراد بكر صدقي أن يرسل من يقوم بتصفية ياسين الهاشمي ونوري السعيد ورشيد عالي الكيلاني، إلا أن حكمت سليمان رفض الفكرة.

كان من أولى المهام بالنسبة للوزارة الجديدة تثبيت أقدامها وسلطتها، حيث لجأت إلى إجراء تغيرات واسعة في أجهزة السلطة الإدارية، والدبلوماسية، وإبعاد كافة العناصر المؤيدة للوزارة السابقة.

وفي الوقت نفسه، نظمت العناصر الوطنية المظاهرات المؤيدة للحكومة، وتقدمت المظاهرات بمطالب للحكومة تدعو فيها إلى إصدار العفو العام عن المسجونين السياسيين، وإطلاق حرية الصحافة، وحرية التنظيم الحزبي والنقابي، وإزالة آثار الماضي، والعمل على رفع مستوى معيشة الشعب، وضمان حقوقه وحرياته، وتقوية الجيش، ليكون حارساً أميناً لإستقلال البلاد. ولم تقتصر المظاهرات على بغداد فقط، بل امتدت إلى سائر المدن العراقية.

وبعد أن ثبتت الحكومة أقدامها، وبسطت سلطتها على كافة أنحاء البلاد أقدمت على حل المجلس النيابي، الذي جرى انتخابه على عهد الحكومة السابقة، واستصدرت الإرادة الملكية مرسوماً قضى بحله في 31 تشرين الأول/أكتوبر عام 1936، تمهيداً لإجراء انتخابات جديدة.

وفي الوقت نفسه تقدمت الحكومة بمنهاجها الوزاري الذي أكد على تعزيز العلاقات بين العراق وجيرانه، ومع بريطانيا، لما فيه مصلحة الأطراف جميعاً، وتطهير جهاز الدولة من العناصر الفاسدة والمرتشية، وتحسين أدائه، والعمل على رفع مستوى معيشة الشعب، وتحسين أحواله الصحية والثقافية، وتوسيع الخدمات العامة، وتنظيم السجون، وجعلها أداة إصلاح للمسجونين، والعمل على تحسين أوضاع البلاد الإقتصادية، وملفات العجز في الميزانية، وتطوير الزراعة والصناعة في البلاد، وإصلاح الجهاز القضائي، وإعادة النظر في القوانين والمراسيم التي أصدرتها الوزارات السابقة.

كما أكد المنهاج على تقوية الجيش، وتدريبه وتسليحه، ليكون سياجاً حقيقياً للوطن، وإصلاح جهاز التعليم، وتوسيع معاهد المعلمين، وفتح المزيد من المدارس، وإلغاء أجور الدراسة المتوسطة والثانوية وجعلها مجانية، وبناء المزيد من المدارس.

وفي واقع الأمر كان لدى الوزارة الجديدة خططاً طموحة لتغير وجه العراق فقد أطلقت سراح المسجونين الذين أدانتهم المجالس العرفية، أعادت كافة الأموال المصادرة منهم، كما أعادت كافة الصحف التي أغلقتها الوزارات السابقة، وسمحت بدخول الكثير من

الكتب التقدمية التي كانت ممنوعة في العهود السابقة، وإعادة الموظفين المفصولين لأسباب سياسية إلى وظائفهم، وأصدرت الحكومة قانون العفو العام.

لكن بكر صدقي بعد أن أحكم سيطرته على مقدرات البلاد استهوته شهوة الحكم، أراد أن يحكم من وراء الستار، متجاوزاً حلفاءه الإصلاحيين، حزب الإصلاح الشعبي الذين يمثلون الأغلبية في الوزارة، وكان باكورة خطواته، الطريقة التي جرى فيها انتخاب مجلس النواب.

فقد عقد بكر صدقي مع فريق من ضباطه، وعدد من القوميين إجتماعاً في داره لوضع الترتيبات للانتخابات، وإعداد قوائم المرشحين، مستبعداً رفاقه الإصلاحيين، وقد جاءت قوائم المرشحين في معظمها من المؤيدين لبكر صدقي شخصياً، فيما كانت حصة الإصلاحيين أقل بكثير، وقد جرت الانتخابات في 20 شباط/فبراير 1937، وجاءت النتيجة كما خطط لها بكر صدقي سلفاً. كان منهاج حزب الإصلاح الشعبي يرمي إلى إجراء تغيرات شاملة في حياة الشعب العراقي مستهدفين إجراء إصلاح سياسي وإجتماعي، وإقتصادي شامل في البلاد، وإعادة توزيع الثروة بصورة عادلة. وتفتيت الملكيات الزراعية الكبيرة، وتوزيع الأراضي على الفلاحين المعدمين، التقليل من الفروق الطبقية بين أبناء الشعب، وإطلاق كافة الحريات الديمقراطية، كحرية التنظيم الحزبي والنقابي، وحرية الصحافة، وضمان حقوق الشعب، وحرياته العامة.

وقد لقي منهاج الحزب هذا دعما كبيراً من الحزب الشيوعي،

ومن عدد كبير من صغار الضباط، ولعب الحزب الشيوعي دوراً بارزاً في تحريك الجماهير للمطالبة بحقوقهم وحرياتهم العامة.

لكن بكر صدقي أراد أن يجعل من نفسه أتاتورك العراق، ويحكم البلاد على هواه، وقد ظهر فيما بعد أن تقرب بكر صدقي من الإصلاحيين وضمهم إلى الوزارة، كان يهدف من ورائه استخدامهم وسيلة للوثوب إلى السلطة المطلقة، فلما أدرك الاصلاحيون أن الحكومة لا تحكم، وأن الحاكم الحقيقي هو بكر صدقي، لم يكن أمامهم سوى تقديم استقالتهم من الوزارة، وخصوصاً بعد أن أقدم بكر صدقي على استخدام القوة العسكرية ضد انتفاضة العشائر في السماوة، في 13 حزيران/يونيو عام 1937، ووقوع عدد كبير من القتلى والجرحى، حيث قضت تلك الأحداث على آخر أمل للإصلاحيين من البقاء في الحكم، فأقدم السادة جعفر أبو التمن، وكامل الجادرجي ويوسف عز الدين على الاستقالة من الحكومة وقد تضامن معهم صالح جبر وقدم استقالته من الحكومة أيضاً، فلم يبقَ في الوزارة سوى وزيرين فقط، هما عبد اللطيف نوري وناجي الأصيل.

وفي الوقت الذي استقال الإصلاحيون من الوزارة أخذ الإستقلاليون القوميون يتصلون ببكر صدقي ويحرضونه على العناصر الماركسية، واليسارية التي أخذت شوكتها تشتد، أعربوا له عن استعدادهم الكامل لدعمه إذا ما وقف ضد هذا التيار الجديد والعمل على حل البرلمان، وإجراء انتخابات جديدة، وإبعاد تلك العناصر من البرلمان الجديد، وقد وعدهم بكر صدقي بتحقيق ذلك، وتم

ترقيع الوزارة بتاريخ 24 حزيران/ يونيو 1937، حيث دخل الوزارة كل من: محمد علي محمود، وعباس مهدي، وعلي محمود الشيخ علي، وجعفر حمندي، مصطفى العمري.

ـ مقتل بكر صدقي وإسقاط حكومة حكمت سليمان:

أصيب الشعب العراقي بخيبة أمل كبيرة، بعد أن تبين له أن كل ما يهم بكر صدقي هو السلطة، متناسياً ما وعد به الشعب. وجاءت استقالة الوزراء الإصلاحيين من الوزارة لتزيد من انعزال حكومة بكر صدقي عن الشعب، وسحب الثقة بها، وبذلك فقد بكر صدقي وحكومته أهم عامل دعم وإسناد، وهو الشعب.

كان الإنكليز ورجالاتهم من الساسة العراقيين يراقبون الأمور عن كثب، ويتحينون الفرصة للانقضاض على الانقلابيين، فقد كان قلق الإنكليز يزداد يوماً بعد يوم، من توجهات بكر صدقي، وجاء زواج بكر صدقي من إحدى الغانيات الألمانيات ليزيد من قلق الإنكليز، خوفاً من تقربه من ألمانيا، وأخيراً أخذت الأخبار تتوارد إلى السفارة البريطانية عن عزم بكر صدقي إحتلال الكويت مما زاد في قلق الحكومة البريطانية، ودفعها إلى التعجيل في تحركها للخلاص منه بأسرع وقت ممكن.

وجاءت الفرصة المناسبة، عندما قرر بكر صدقي السفر إلى تركيا لحضور المناورات العسكرية التركية المقرر القيام بها في 18 آب/ أغسطس 1937، واتخذ الإنكليز قرارهم بتصفيته، وهو في طريقه إلى تركيا.

غادر بكر صدقي بغداد في 9 آب/ أغسطس بالطائرة إلى الموصل، وكان برفقته العقيد محمد علي جواد، قائد القوة الجوية، وكان من المقرر أن يغادر بالقطار، لكنه أحس بوجود مؤامرة ضده وقرر السفر بالطائرة.

وصل بكر صدقي إلى الموصل، ونزل في دار الضيافة وبصحبته محمد علي جواد، وقد وجد المتآمرون فرصتهم في الإجهاز عليه في الموصل، حينما انتقل بكر صدقي إلى حديقة مطعم المطار البعيد، والمنعزل، وبينما كان بكر صدقي جالساً في الحديقة مع قائد القوة الجوية محمد علي جواد، والمقدم الطيار موسى علي يتجاذبان أطراف الحديث، تقدم نائب العريف عبد الله التلعفري نحوهم، ليقدم لهم المرطبات، وكان يخبئ مسدساً تحت ملابسه، ولما وصل قرب بكر صدقي، أخرج مسدسه وصوبه نحو جمجمته، وأطلق النار عليه فقتل في الحال، ثم أقدم العريف على إطلاق النار على العقيد محمد علي جواد وقتله أيضاً.

وتم إلقاء القبض على القاتل، وأوسع ضرباً، وقد اعترف بأن الذي جاء به لينفذ الجريمة هو الضابط محمود هندي الذي اختفى بعد مقتل بكر صدقي ورفيقه محمد علي جواد، وتبين فيما بعد أن المتآمرين قد هيئوا عدة مجموعات لقتل بكر صدقي، ووزعوها على كركوك التون كوبري وأربيل والموصل على احتمال أن بكر صدقي سوف يمر من إحدى هذه الطرق، في طريقه إلى تركيا، وقيل أن العقيد فهمي سعيد كان لولب الحركة، وأن الضابط محمود خورشيد هو الدماغ المفكر لعملية تنفيذ الاغتيال، وسرت شائعة تقول أن

ضابط الاستخبارات البريطاني في الموصل، هو الذي دبر عملية الاغتيال، وكان المقدم الطيار موسى علي آمر القاعدة الجوية بالموصل قد تحدث إلى السيد عبد الرزاق الحسني بأن المقدم محمد علي جواد قائد القوة الجوية والساعد الأيمن لصدقي قد أبلغه بأن الإنكليز يريدون قتل بكر صدقي.

حاولت الحكومة إجراء تحقيق واسع لمعرفة الذين كانوا وراء عملية الاغتيال، وقد أرسلت لجنة تحقيق إلى الموصل، برئاسة نائب المدعي العام أنطوان لوقا حيث باشر في إجراء التحقيقات، التي أخذت تتوسع شيئاً فشيئاً، مما أثار خوف وقلق الضباط المشاركين في المؤامرة، من أن تصل التحقيقات إليهم، فأعلن أمر حامية الموصل أمين العمري العصيان على بغداد، واعتقال النائب العام، وجرى تمزيق أوراق التحقيق. كما جرى تسريح كافة الضباط الموالين لبكر صدقي وللحكومة في بغداد، وأصدر بياناً يعلن فيه انفصاله عن حكومة بغداد.

ورغم اتصال الملك غازي بأمين العمري، ودعوته له لإطاعة أوامر القيادة العسكرية، إلا أن الانقلابيين أصروا على موقفهم، وطالبوا الملك بإقالة وزارة حكمت سليمان، وتشكيل وزارة جديدة برئاسة جميل المدفعي كما رفضوا تسليم الضباط المتهمين بمؤامرة اغتيال بكر صدقي ورفيقه محمد علي جواد.

حاولت الحكومة، بدفع من الضباط الموالين لبكر صدقي، الزحف بالفرقة الثانية في كركوك إلى الموصل لإخضاع المتمردين على الحكومة لكنها لم تستطع ذلك.

ومن جهة أخرى حاول اللواء أمين العمري استمالة عدد من الوحدات العسكرية الأخرى إلى جانبه، واستطاع الحصول على دعم آمر معسكر الوشاش في بغداد سعيد التكريتي وساعده الأيمن المقدم صلاح الدين الصباغ، كما انضم إليهم آمر حامية الديوانية.

وهكذا بدا أن الجيش قد انقسم على نفسه، وأن الأمور قد باتت خطيرة جداً، وتنذر بوقوع حرب أهلية يكون عمادها الجيش، ولذلك اضطرت الوزارة إلى تقديم استقالتها للملك غازي، في 17 آب/أغسطس عام 1937، وتم قبول الاستقالة في نفس اليوم.

وسارع الملك غازي إلى تكليف جميل المدفعي بتأليف الوزارة الجديدة، وكان واضحاً أن التكليف جرى بضغط من السفارة البريطانية، وزمرة أمين العمري التي دبرت مؤامرة اغتيال بكر صدقي، حيث طالب أمين العمري الملك بإقالة وزارة حكمت سليمان ـ كما مر ذكره ـ، وتكليف المدفعي بتأليف وزارة جديدة، وصدرت الإرادة الملكية بتكليف المدفعي في 19 آب/أغسطس 1937.

وبمجرد تشكيل الوزارة الجديدة أعلن المتمردون في الموصل إنهاء تمردهم، وعادت الأمور إلى مجراها، بعد أن تم التخلص من بكر صدقي وحكومته، وهكذا تبين أن مقتل بكر صدقي لم يكن مجرد حادث فردي، وإنما هو انقلاب عسكري جرى تدبيره بتخطيط من البريطانيين وأزلامهم العسكريين والسياسيين، وكانت تلوح رائحة الانتقام من كل العناصر التي ساهمت وساندت وأيدت انقلاب بكر صدقي، وكان على رأس أولئك المتعطشين للانتقام،

نوري السعيد، الذي وصل به الأمر إلى اتهام الملك غازي بالتواطؤ مع بكر صدقي.

ـ نوري السعيد يتآمر لإسقاط حكومة المدفعي:

كان نوري السعيد كما ذكرنا قد هرب حال سماعه بتقدم قوات الانقلابيين نحو بغداد، ومقتل وزير الدفاع جعفر العسكري والتجأ إلى السفارة البريطانية التي قامت بدورها بنقله خفية في سيارة السفارة ممدداً في الحوض الخلفي للسيارة وقد غطي بالسجادة لإخفائه عن الأنظار كما جاء في كتاب دي غوري[1] حيث تم نقله إلى قاعدة الهنيدي معسكر الرشيد حالياً ومنها تم نقله بطائرة بريطانية إلى القاهرة حيث مكث فيها فترة من الزمن ثم انتقل إلى لندن.

وهناك قام السعيد بنشاطات واسعة واتصالات مع المسؤولين البريطانيين للعمل على التخلص من بكر صدقي وحكومة حكمت سليمان، وعندما جرى اغتيال بكر صدقي وتم إسقاط حكومة حكمت سليمان، وجرى تكليف السيد جميل المدفعي بتأليف الوزارة، حاول نوري السعيد العودة إلى بغداد وفي ذهنه تسلم السلطة والانتقام من الانقلابيين، والضغط على جميل المدفعي من أجل استقالة حكومته مستعيناً بثلاثة من كبار قادة الجيش وهم العقيد صلاح الدين الصباغ والعقيد فهمي سعيد، والفريق طه الهاشمي، وقد رفض الملك غازي والسيد جميل المدفعي عودته وطلبا من

(1) **«ثلاث ملوك في بغداد»**، دي غوري، ص 157.

السفارة البريطانية تأخير عودته لفترة من الزمن ريثما تهدأ الأوضاع ويتم تجاوز أحداث الانقلاب، وقد أجرى السعيد اتصالات مع العقيدين صلاح الدين الصباغ، وفهمي سعيد عن طريق ولده صباح من أجل التوسط لدى المدفعي لتسهيل عودته، وقد تمكن العقداء من إقناع المدفعي شرط أن يمتنع السعيد عن ممارسة أي نشاط ضد الحكومة، وعاد السعيد إلى بغداد في 25 تشرين الأول/أكتوبر عام 1937 وهو متعطش للانتقام من قتلة صهره جعفر العسكري، وتشريده وإبعاده عن السلطة.

ولم يمض سوى خمسة أيام على عودته حتى باشر في حبك المؤامرات محرضاً العقداء الأربعة قادة الجيش لإزاحة حكومة المدفعي، فما كان من المدفعي إلا أن توجه إلى السفير البريطاني يشكوه من تصرفات نوري السعيد، وطلب منه إبعاده إلى خارج العراق في الوقت الحاضر على الأقل، أو القبول بمنصب وزير العراق المفوض في لندن. وبالفعل أوعز السفير البريطاني للسعيد بمغادرة البلاد، حيث بقي بعيداً عن العراق حتى تشرين الأول/أكتوبر 1938.

قامت الوزارة بإحالة عدد كبير من ضباط الجيش المحسوبين على بكر صدقي على التقاعد، وعينت آخرين بدلاً منهم. كما شنت الحكومة في 18 تشرين الثاني/نوفمبر حملة شعواء ضد المشتبه بقيامهم بنشاط شيوعي، وأحالتهم إلى المحاكم، التي أصدرت أحكاماً بالسجن ضد معظمهم.

وفي 18 كانون الأول/ديسمبر باشرت الحكومة بإجراء

الانتخابات البرلمانية بنفس الأسلوب الذي درجت عليه الوزارات السابقة، حيث تقوم الحكومة بترشيح العناصر المؤيدة لها، وتفرضهم على المنتخبين الثانويين فرضاً، وبذلك استطاعت الحكومة إبعاد كل العناصر اليسارية عن المجلس الجديد، كما جرى إبعاد جميع العناصر العسكرية أيضاً.

ـ إسقاط حكومة المدفعي بضغط من العسكريين:

منذ أن عاد نوري السعيد وطه الهاشمي إلى العراق، بعد أن ثبّتت حكومة المدفعي مركزها في الحكم، أخذا يمارسان الضغط على الحكومة لمحاكمة رجالات الانقلاب، والحكم بإعدامهم، لكن حكومة المدفعي لم تكن ترى من مصلحة البلاد اللجوء إلى ذلك، وبالتالي عارضته بشدة.

وبسبب هذا الموقف سعى السعيد وطه الهاشمي إلى إسقاط الحكومة بالقوة، مستعينان بما عرف بالعقداء الأربعة، قادة الجيش الذين أخذ دورهم في الحياة السياسية يتنامى في أعقاب الدور الذي لعبوه في إسقاط حكومة حكمت سليمان، وهم كل من صلاح الدين الصباغ وفهمي سعيد ومحمود سلمان وكامل شبيب، وقد انضم إلى جانبهم عدد من الضباط الناقمين على بكر صدقي.

شعر جميل المدفعي بما يدبره له نوري السعيد، وطه الهاشمي، ورشيد عالي الكيلاني من مكيدة، فسارع إلى نفي الكيلاني إلى عانة، وحاول نفي العقداء الأربعة، ومعهم العقيد يوسف العزي والعقيد عزيز ياملكي، لكن نوري السعيد كان أسرع حركة منه، واستطاع أن يرتب الأمر مع العقداء الأربعة، للقيام بانقلاب عسكري

لإسقاط الحكومة، وحدد له موعداً في 24 كانون الأول/ ديسمبر عام 1938، وقام العقداء المذكورون بتهيئة قواتهم للقيام بالحركة، أرسلوا العقيد عزيز ياملكي إلى جميل المدفعي، يطلبون منه الاستقالة فوراً.

كما أرسلوا الفريق حسين فوزي رئيس أركان الجيش، وهو من المشاركين في التمرد على الحكومة، إلى الملك غازي ليطلب منه إقالة حكومة المدفعي.

استاء الملك غازي من تصرف الضباط، ومَنْ وراءهم نوري السعيد وطه الهاشمي، وأراد أن يستخدم القوة لقمع التمرد، لكنه تراجع عن موقفه بعد أن وجد جميل المدفعي ينوي الاستقالة، ليجنب البلاد إراقة الدماء، وربما يحدث ما لا يحمد عقباه فآثر الاستقالة في 24 كانون الأول/ ديسمبر 1938، واضطر الملك غازي تحت ضغط العسكريين إلى تكليف نوري السعيد بتشكيل الوزارة الجديدة.

- نوري السعيد يشكل الوزارة وينتقم من الانقلابيين:

عاد نوري السعيد ليشكل حكومته الثالثة، بضغط مباشر من العسكريين على الملك غازي، الذي كانت تتقاذفه أمواج الزمرة السياسية المتعاقبة على سدة الحكم، والتي تسير بهدى وتوجيهات السفارة البريطانية، واضطر الملك غازي، على مضض، وهو الذي لا يطيق رؤية نوري السعيد، إلى دعوته إلى تشكيل الوزارة، في 25 كانون الأول/ ديسمبر 1938.

وهكذا قبض الثنائي، نوري السعيد ـ طه الهاشمي، على أخطر الوزارات، الداخلية والخارجية والدفاع إضافة إلى رئاسة الوزارة، ثم عاد نوري السعيد بعد يومين، فعين ناجي شوكت وزيراً للداخلية.

كان أمام الوزارة السعيدية مهمة حل المجلس النيابي، وإجراء انتخابات جديدة، حيث أن حكومته لا تتمتع بتأييد أغلبية أعضاء المجلس، وكان في جعبة نوري السعيد الانتقام من خصومه السياسيين وعلى رأسهم الملك غازي، وحكمت سليمان، والعديد من الضباط الذين آزروا بكر صدقي في انقلابه، وتسببوا في مقتل صهره ـ جعفر العسكري ـ وزير الدفاع في حكومة الهاشمي.

ففي 22 شباط/فبراير عام 1939 استحصل نوري السعيد إرادة ملكية بحل المجلس النيابي، لكن الحكومة تلكأت في إجراء الانتخابات، بحجة قيام حكمت سليمان، بالتعاون مع عدد من الضباط بمؤامرة مزعومة لقتل عبد الإله و50 شخصية سياسية وضباط كبار في الجيش كانوا مدعوين في قصر الأمير إلى مأدبة عشاء.

وفي حقيقة الأمر، وكما ورد على لسان العديد من الوزراء، وأعضاء المجلس العرفي الذي شكله نوري السعيد لمحاكمة المتهمين بالمؤامرة، أن المؤامرة المزعومة كانت من صنع نوري السعيد الذي كان يضمر لحكمت سليمان، والضباط حلمي عبد الكريم وإسماعيل عباوي وجواد حسين، وعبد الهادي كامل وعلي غالب روح الانتقام وينتظر الفرصة المناسبة لذلك حيث أحالهم إلى المحاكمة أمام المجلس العرفي العسكري، الذي حكم على حكمت

سليمان وأربعة من كبار الضباط بالإعدام، وعلى إثنين آخرين بالسجن لمدة 7 سنوات.

لكن نوري السعيد لم يستطع تنفيذ حكم الإعدام بسبب عدم موافقة الملك، وتم استبدال الحكم إلى السجن المؤبد بالنسبة لإسماعيل عباوي، ويونس عباوي، وجواد حسين، فيما خفض الحكم على حكمت سليمان إلى السجن لمدة 5 سنوات وسيق إلى السجن، وأصيب هناك بمرض صدري، وبقي في السجن حتى قيام حركة رشيد عالي الكيلاني، عام 1941، حيث أطلق سراحه من السجن.

الفريق بكر صدقي
(... ـ 1937)

كانت الثورات الكردية المتعاقبة ضد الظلم القومي وضد الإلحاق وضد نهب خيرات البلاد، فالثورات التي حدثت في كردستان في القرن التاسع عشر، عندما عمدت الإمبراطوريتان الفارسية والعثمانية إلى القضاء على الإمارات الكردية شبه المستقلة، كان يلازمها فرض الإدارة الأجنبية وتنفيذ سياسة القمع والاضطهاد ضد الشعب الكردي ومحاربة الثقافة القومية وتشويه إقتصاديات كردستان. فلم تكتسب عملية القضاء على الإمارات الإقطاعية رضا الجماهير الكردية، لأن الاضطهاد أصبح شاملاً، فوقفت الجماهير وخاصة جماهير الفلاحين إلى جانب أمرائها الإقطاعيين ضد البرجوازية والشوفينية التركية والفارسية وضد الدول الاستعمارية التي تغلغلت في معظم المرافق الإقتصادية في تلك الإمبراطوريتين.

لم يستهدف إلغاء الإمارات الكردية، إلغاء النظام الإقطاعي، بل لتحطيم الحدود بين تلك الإمارات لتسهيل تغلغل الرأسمالية، وهي أجنبية على الأكثر، وتحقق بشكل عرضي السوق الموحدة.

ولما كان الظلم هو هو، أتى من دولة بعيدة أو قريبة، فإن التصدي لهذا الظلم اكتسب طابعاً تحررياً مشروعاً على الرغم من أن تلك الانتفاضات يقودها الأمراء الإقطاعيون ورجال الدين.

ولكن تلك الثورات أخفقت لأنها كانت تندلع في إحدى الإمارات دون الأخريات، وكثيراً ما كانت تلك الحكومات تستغل العداء والتناقض بين الإمارات الإقطاعية الكردية لدفع بعضها ضد البعض الآخر لسحق تلك الثورات، وكانت البرجوازية الكردية ضعيفة بدرجة لم تكن قادرة على التأثير في مجرى تلك الثورات أو تبؤ قيادتها. ولم تتمكن أية ثورة من تلك الثورات كسب وتأييد أو عطف الشعوب التي تعيش معها رغم كونها تعاني من الاضطهاد أيضاً على أيدي حكام تلك الدولتين. ولعب التنافس الروسي ـ البريطاني دوراً كبيراً لتقوية الدولتين الإيرانية والتركية وتزويدهما بمستلزمات سحق الثورات الكردية.

إن الثورات التي اندلعت في القرن العشرين، وخاصة بعد الحرب العالمية الأولى، كانت تختلف من حيث مضامينها وأهدافها السياسية عن الثورات السابقة، في الوقت الذي كانت الثورات الكردية في القرن التاسع عشر لها أهداف إقليمية محدودة ويقودها الأمراء الإقطاعيون، أصبحت للثورات المعاصرة في كردستان أهداف شمولية يلعب فيها أحزاب قومية وطبقية من المثقفين والتجار دوراً بارزاً، وإن كانت لا تزال تستعين برؤساء القبائل الكردية ورجال الدين لتحريك جماهير الفلاحين للإسهام في الثورة، ولها برامج قومية واضحة تهدف إلى حق الأكراد في تقرير مصيرهم

بنفسهم كسائر شعوب العالم فكان الشعب الكردي قد حرم من هذا الحق بسبب معارضة الدول الاستعمارية له.

وقد قال الحاكم السياسي البريطاني في السليمانية الميجر سون عن أهداف ثورة الشيخ محمود: «إنه أراد أن يصبح دكتاتوراً في جميع البلاد الممتدة من خانقين إلى شمدينان ومن جبل حمرين إلى داخل حدود إيران.

لقد فشلت الثورات الكردية التي اندلعت بعد الحرب العالمية الأولى أيضاً بسبب ضعف فئة من المثقفين والتجار التي أصبح لها دور في توجيه وقيادة تلك الثورات. فلم تتمكن هذه الفئة من تحريك الجمهرة الأساسية في الثورة وهي طبقة الفلاحين. فكانت تستعين برؤساء العشائر ورجال الدين، وكانت الفئة الأخيرة تنسحب من الثورة في ظروفها الحرجة عندما تتطلب مصالحها ذلك. كما تعاونت الحكومتان التي اقتسمت كردستان لسحق تلك الثورات.

جرى نهوض جديد في الحركة القومية الكردية في العراق بعد الوهن الذي أصابها جراء فشل الثورات الكردية التي قادها رجال الدين وكبار ملاكي الأراضي في كردستان على أثر نهوض الحركة الديمقراطية في أعقاب الانقلاب العسكري الذي قاده الفريق بكر صدقي العسكري عام 1936 والذي أدى إلى الإطاحة بحكم رئيس الوزراء ياسين الهاشمي.

وهناك تفاسير عديدة حول حقيقة ودوافع ذلك الانقلاب العسكري فمنهم من يعتقد أن إتفاقاً قد جرى بين الملك غازي

والفريق بكر صدقي للإطاحة بحكومة ياسين الهاشمي عندما استأثر الأخير بالسلطة ولم يكن للملك سلطة دستورية بإقامة الحكومة، فلجأ إلى الانقلاب العسكري لذلك. ويفسر القوميون الانقلاب بـ «الشعوبية» ضد حكومة ياسين الهاشمي القومية، إلا أن الرأي المستند إلى الوثائق هو أن جماعة الأهالي التي جمعت شخصيات سياسية متباينة في تفكيرها السياسي هي التي اتصلت بالفريق بكر صدقي عن طريق صديقه الشخصي السيد حكمت سليمان لتدبير ذلك الانقلاب، عندما استأثر ياسين الهاشمي بالسلطة ووقف ضد الذين طالبوا بالحريات الديمقراطية ومنهم جماعة الأهالي.

تشكّلت في أعقاب الانقلاب العسكري الذي قاده بكر صدقي عام 1936، حكومة برئاسة السيد حكمت سليمان واشترك فيها من جماعة الأهالي السيدان كامل الجادرجي ومحمد جعفر أبو التمن وأجرت الحكومة انتخابات برلمانية، تمكن عدد من اليساريين والديمقراطيين من الوصول إلى البرلمان، وأطلقت الحكومة بعض الحريات النقابية والديمقراطية. إلا أن التربية العسكرية والسياسية للفريق بكر صدقي قد خلقت منه شخصاً لا يؤمن بتحقيق الإصلاحات عن طريق إطلاق الحريات الديمقراطية للشعب. وكان تفكيره السياسي ينحصر في القيام بإصلاحات إجتماعية وسياسية على غرار ما قام بها كل من مصطفى كمال في تركيا ورضا شاه في إيران. وعلى الرغم من اكتفائه بمنصب رئيس أركان الجيش، إلا أنه هو وصديقه حكمت سليمان الذي كان في تفكيره السياسي، قد استأثر بالسلطة، الأمر الذي أدى إلى ابتعاد جماعة الأهالي ـ والتي لعبت دوراً أساسياً في عهد بكر صدقي ـ عنهما، فانسحب كل من

السيدين كامل الجادرجي ومحمد جعفر أبو التمن من الوزارة وانفضت الجماهير عن تأييد الحكومة عندما بدأت بحجب الحريات واضطهاد التقدميين، فأصبح الجو ملائماً للإطاحة بالحكومة، جرى ذلك باغتيال بكر صدقي في الموصل وإسقاط حكومة حكمت سليمان والحكم عليه بالسجن المؤيد.

ـ نشأة بكر صدقي:

ينحدر الفريق بكر صدقي من أسرة فلاحية كردية عاشت في قرية عسكر بناحية أغجلر التابعة للواء كركوك. وأخذ بكر صدقي لقبه العسكري من تلك القرية. وقد ساعد الحظ بكر صدقي ليكمل دراسته العسكرية التي بدأها في العراق، في اسطنبول في العهد العثماني ليتخرج ضابطاً في الجيش العثماني، ثم عاد إلى وطنه بعد الحرب العالمية الأولى ليخدم في صفوف الجيش العراقي عند تأسيسه بعد قيام الدولة العراقية. فكان آخر منصب قيادي شغله، قبل قيامه بانقلابه العسكري، وهو قيادة الفرقة الثانية التي معظم ضباطها وجنودها من الأكراد ومقرها في كركوك، فوثّق بكر علاقته بهم. وقد نسب إليه طموحه في إقامة دولة كردية في آخر المطاف، إلا أن الحكومة التي شكلها لم تدم طويلاً فقد انتهت باغتيال بكر صدقي في الموصل بتدبير من الانكليز.

ويروي اللواء المتقاعد فؤاد عارف الذي كان مرافقاً للملك غازي عام 1936، إن الملك غازي حمّل رئيس أركان الجيش الفريق بكر صدقي رسالة إلى هتلر تتعلق بآفاق التعاون العسكري بين الحكومتين العراقية والألمانية، وعند اغتيال بكر صدقي في

الموصل، اتصل هاتفياً بالعقيد أمين العمري الذي كان آمراً لحامية الموصل، طالباً منه الحصول على الحقيبة اليدوية لبكر صدقي والتي تحوي تلك الرسالة وإرسالها إليه بيد شخص أمين. وفي اليوم التالي طلب السفير البريطاني في بغداد مقابلة الملك لأمر هام. وعند مجيئه إلى البلاط الملكي، كان بحوزته حقيبة بكر صدقي وهو يقول: «صاحب الجلالة، إنكم طلبتم حقيبة بكر صدقي، آثرت أن أسلمها لجلالتكم شخصياً». فأوضح الملك بعد ذلك لمقربيه: «يظهر أن أيامي قد قربت».

ـ اغتيال بكر صدقي:

دعي الفريق بكر صدقي لحضور مناورات عسكرية يجريها الجيش التركي فسافر بالسيارة مع مرافقيه وبعض المقربين إليه عن طريق كركوك ثم الموصل التي وصلها يوم 10 آب/أغسطس عام 1937 وقضى تلك الليلة في دار الضيافة في الموصل. وفي اليوم التالي 11 آب/أغسطس قرر صدقي أن ينتقل إلى مقر سرب القوة الجوية في الموصل لكي يقضي ليلة هناك نظراً لازدحام دار الضيافة بالزبائن فأخليت له غرفة آمر الرف ليبيت فيها، وبينما كان بكر صدقي يجلس عصراً أمام بناية مقر السرب محاطاً بكل من الضباط محمود أيوب وجهاد عبد الغني ونديم صديق وموسى علي آمر السرب وكاظم عبادي الذي حضر بطائرته في اليوم نفسه مع بعض الهدايا لكي يصطحبها بكر صدقي معه إلى تركيا، في هذا الوقت دخل الطيار محمود هندي وهو أحد الضباط المتآمرين الغرفة المخصصة لبكر صدقي وخرج من الباب الخلفي تاركاً إياه مفتوحاً

فتسلل منها الجندي محمد علي التلعفري الذي أعده الضباط المتآمرون لاغتيال بكر صدقي وخرج على حين غرة من الباب الرئيسي للغرفة شاهراً مسدسه ووقف وراء بكر صدقي وأطلق عليه ثلاثة عيارات نارية تفجر الدم من رأسه على أثرها كالنافورة فأصيب الحاضرون بالذهول غير مصدقين ما حدث فقام عندئذ الرئيس الأول الرائد الطيار محمد علي جواد الذي حضر في اليوم نفسه بالطائرة لتوديع بكر صدقي وهمّ على الجاني وأمسك به محاولاً تجريده من سلاحه إلا أن الجندي التلعفري أراد أن يتخلص منه بدفعه دون جدوى قائلاً له أنه لا يستهدفه، ولما لم ينجح الجندي اضطر إلى أن يطلق على الرائد محمد علي عياراً نارياً أصابه في قلبه فخرّ محمد علي جواد صريعاً مضرجاً بالدماء.

عند ذلك تقدم بعض الضباط وجردوا الجندي من سلاحه وعندما حاول آمر السرب أحمد عزيز قتله منعه الضباط وأقنعوه بتركه لذمة التحقيق. يقول إسماعيل العارف في كتابه «أسرار ثورة 14 تموز/يوليو» إن الضابط الذي هيأ الجندي محمد علي التلعفري لعملية الاغتيال اسمه محمد خورشيد الكردي الأصل أما الضباط الذين دبروا مؤامرة الاغتيال فهم عزيز ملكي ومحمد خورشيد ومحمود هندي وفهمي سعيد.

ويضيف العارف نقلاً عن العميد الطيار المتقاعد كاظم عبادي أنه حالما قتل بكر صدقي قفز مرافقه جمال جميل إلى الهاتف واتصل بالزعيم العميد إسماعيل الأغا وكيل قائد الفرقة في بغداد وأخبره بمقتل بكر صدقي وطلب منه أن يعلن الأحكام العرفية فوراً

ويستولي على بغداد، إلا أن إسماعيل الأغا تردد في تنفيذ ذلك ولم يستمع إلى نصيحة جمال جميل.

ـ انهيار حركة بكر صدقي:

تعرضت حركة بكر صدقي لهجمات المعارضة التي تمكنت من الإجهاز عليها ونجحت في اغتيال قائدها الفريق بكر صدقي في الموصل وانتهت الحركة بموته وعاد السياسيون القدامى إلى المسرح السياسي وشنت الحكومات المتعاقبة حملات بطش بوليسية على جماعة الأهالي بالذات وطاردتهم وزجت بعضهم في السجون والمعتقلات.

لقد أدت عدة عوامل إلى انهيار حركة بكر صدقي العسكرية منها انعدام الجهاز التنظيمي والعقيدة السياسية التي تربط الجيش بأهداف سياسية محددة المعالم، وإهمالها للمشاعر والكتل القومية التي كانت تلعب دوراً نشيطاً في الجيش ثم لجأوا إلى العنف في تصفية خصومها جسدياً فانهارت حالما اغتيل بكر صدقي بمؤامرة دبرتها الكتلة القومية من ضباط الجيش بزعامة آمر حامية الموصل أمين العمري وصلاح الدين الصباغ يساعدهم في ذلك خصوم الانقلاب من المتضررين منه وخاصة الذين أرادوا الانتقام لمقتل جعفر العسكري.

لقد كانت حركة بكر صدقي سطحية مبتسرة نفذت في وقت لم تكن قد نضجت فيه الظروف الموضوعية والعوامل الذاتية فانعدام وضوح الرؤية السياسية للحكومة الجديدة وفقدان الانسجام بين آراء جماعة الأهالي والقادة العسكريين وطموحاتهم وقوة خصوم الحركة

من قوميين وساسة تقليديين، وزاد من حدة المعارضة مقتل جعفر العسكري ودخول عامل الانتقام الشخصي من قادة الانقلاب وعلى رأسهم بكر صدقي الذي قرر هو والمتعاونون معه من الضباط تصفية خصومهم من رجال العهد السابق بكل الوسائل المتيسرة لديهم، كما أن وزارة حكمت سليمان لم تكد تضطلع بأعباء الحكم حتى انهالت على بعض الشخصيات العربية رسائل تهديد بالقتل إن لم يغادروا العراق فور تسليمها. بل إن بكر صدقي في تلك الفترة التي دعا فيها للعنف ضد خصومه، احتفل بخطوبته من إحدى السيدات الألمانيات وتلقى الكثير من الهدايا وخاصة من الجالية اليهودية في بغداد فسادت البلاد فوضى من انتقامات واغتيالات شخصية ففي 21/ 1/ 1937 اغتيل ضياء يونس الموصلي سكرتير مجلس الوزراء في حكومة ياسين الهاشمي أثناء خروجه من مسكنه في محلة السعدون حيث انهال عليه الرصاص من كل جانب وتقدم أحد الرماة وألقى الجثة في الساحة وقيل أن القتيل كان يقود حركة سرية معارضة لبكر صدقي وأنه يمتلك وثائق سرية خاصة بالقضية الفلسطينية وأن قاتله اسمه إسماعيل توحلة الموصلي.

وفي ليلة 10 شباط/ فبراير عام 1937 وبينما كان مولود مخلص عضو مجلس الأعيان متوجهاً إلى داره أطلقت النار على السيارة التي كان يستقلها إلا أنه لم يصب بأذى، فسافر إلى مزرعته في جوار تكريت وتبعته ثلة من شرطة بكر صدقي، لكنه استطاع الهرب إلى سوريا. وبعد مقتل بكر صدقي وسقوط حكومة حكمت سليمان عاد مخلص وأقام الدعوى على من اتهمهم بالاعتداء على حياته لأنه كان يشجب الانقلاب ويهاجم بكر صدقي.

الجنرال أندروز
(... ـ 1937)

في العام 1937م اغتيل الجنرال الإنكليزي أندروز حاكم لواء الجليل في مدينة الناصرة عندما كان يهم بدخول كنيسة البشارة في مدينة الناصرة لأداء الصلاة فيها. وقد فرّ الثوار لكن قبض عليهم لاحقاً بعد أيام. جاء الجنرال أندروز من بريطانيا وهو يزبد ويهدد بتأديب الثوار الفلسطينيين الذين شقوا عصا الطاعة على بريطانيا.

ـ كيفية اغتيال الجنرال أندروز:

قال محمد أبو جعب ـ وهو أحد منفذي عملية الاغتيال ـ: علم الثوار في اليوم السابق أن الجنرال أندروز سيحضر قداساً في كنيسة البشارة في مدينة الناصرة، وقد ذهبنا من الصباح الباكر حيث كانت الكنيسة داخل سور صغير يحيط بها وكانت حديقة صغيرة تفصلنا عن مبنى الكنيسة فكمنوا خلف السور وخلف باب الحديقة الصغيرة وكانت الاستعدادات جارية على قدم وساق لاستقبال الجنرال أندروز. وفيما هم يقفون جاء شخص مريض نفسي متبوعاً ببعض الصبية وأشار لنا المريض بيده إلى موقع على الأرض وقال: «الدم سيسيل هنا، الدم سيسيل هنا».

وتابع أبو جعب: إن الجنرال سقط فعلاً وسال دمه في المكان الذي أشار إليه المجنون.

وكان الجنرال قد وصل في سيارة رولز رويس وحولها سيارات الحرس فنزل منها وتبعه الحراس وأبقوا محركات سياراتهم في حالة التشغيل وهي واقفة. قام أبو جعب بإشهار مسدسه وتردد قبل أن يطلق النار إذ انتابته رهبة فيما استمر أندروز في سيره إلى باب الكنيسة.

ويقول أبو جعب أنه لما رآه يفلت منه خلع حذاءه وجرى خلف الجنرال ولحق به وأطلق ثلاث رصاصات عليه في ظهره حيث أرداه قتيلاً. بعدها خرج ضابط من داخل الكنيسة ووقف هو وإياه وجهاً لوجه وقد وضع كل منهما مسدسه في وجه الآخر ومرت لحظات من الانتظار والترقب من يطلق الرصاصة من مسدسه لكنه لوى نفسه وتراجع متزامناً مع تراجع الضابط الإنكليزي وأدارا ظهريهما لبعض.

بعد أن ألقي القبض على قتلة الجنرال أندروز أودعوا سجن عكا وهو سجن رهيب حيث لاقوا الأهوال من التعذيب في ذلك السجن. وتشاء الصدف أن ينسف الثوار جزءاً من السجن كان فيه هؤلاء الأشخاص الثلاثة وخرجوا من ذلك السجن فراراً بعد أن نزعت أظافرهم وشوهت أجسادهم.

ـ من هو محمد أبو جعب؟

اشتهر في فلسطين اسم ذلك الشاب محمد أبو جعب من أهل بلدة قباطية الواقعة جنوب مدينة جنين وأصبح على لسان كل

فلسطيني لأنه هو الذي اغتال الجنرال أندروز. تم إلقاء القبض على اثنين من رفاقه وأعدمهما الانكليز فيما بعد. أما محمد أبو جعب فظل مطارداً من قبل الإنكليز حتى نهاية الثورة وخرج مع الثوار إلى سوريا ثم العراق وانتهى به المطاف بإرساله إلى المملكة العربية السعودية مع مجمل الثوار الذين كان الانكليز يطالبون برؤوسهم لتنفيذ حكم الإعدام بهم جميعاً. وهكذا وجدوا الملاذ الآمن في حمى الملك عبد العزيز إذ لم يستطع الإنكليز أخذهم من السعودية لأنها كانت مستقلة.

في الرياض عام 1952م كان محمد أبو جعب يعمل في تجارة لم يوفق بها كثيراً وكانت معه عائلته حيث أنه تزوج من امرأة من أهل مكة المكرمة وله منها أولاد.

الملك غازي الأول
(1912 ـ 1939)

غازي بن فيصل بن الحسين بن علي الحسني الهاشمي، ملك العراق، ولد سنة 1912 ونشأ في مكة المكرمة، وانتقل إلى بغداد حين سمّي ولياً لعهد المملكة العراقية سنة 1924، وأرسله والده فيصل الأول إلى كلية هارو في إنكلترا سنة 1927، فدرس فيها سنتين وعاد إلى بغداد والتحق بالكلية العسكرية وناب عن والده في تصريف شؤون الدولة سنة 1933. نودي به ملكاً على العراق بعد وفاة أبيه سنة 1933 فاستمر إلى أن توفي في بغداد في 4 نيسان/ أبريل عام 1939.

كان مولعاً بالرياضة والصيد، وللناس في سبب مقتله أقوال، وقد كانت فترة عهده فترة اضطرابات وانقلابات عسكرية، كثورة الفرات وانقلاب بكر صدقي في 29 ـ 10 ـ 1936.

ـ اغتيال الملك غازي:

تستلفت النظر بسبب ما تحمله من دلالة، ومن بعض تلك اللقطات الآتية:

كان محمود سلمان قد عين في البلاط الملكي في أواخر أيام المرحوم الملك فيصل الأول. وبعد وفاته وتتويج الملك غازي صار مرافقاً له. تقول صاحبة المذكرات عن ذلك[1]:

«كان القانون العسكري حينذاك يقضي بأنه لا يمكن بقاء أي ضابط في دائرته أو موقعه مدة أكثر من ثلث مدة الترفيع... أي على الضباط أن يخدموا في الوحدات الفعلية ثلثي مدة الترفيع التي كانت أربع سنوات، وإلا فإن الترفيع، أي ترقية الضابط، تؤخر. وفي ذلك الحين كان زوجي قد قضى مدة السنة والتحق مرافقاً للملك غازي. وعليه الآن أن ينتقل إلى إحدى الكتائب لأنه كان من ضباط الخيالة. ولكن تعلق الملك غازي به جعله يطلب إلى السيد رئيس أركان الجيش أن يبحث له عن أية طريقة كانت على أن يبقى محمود في مركزه هذا بحيث لا يحرم من الترقية».

ولهذا فقد نقل محمود اسمياً وشكلياً إلى أمرة الحرس الملكي على أن يقوم بوظيفة مرافق الملك الخاص في نفس الوقت. فبدأ الحسد يدب في نفوس بعض زملائه من المرافقين الآخرين... ويشهد الله، وأقولها للتاريخ بأنه لم يكن راغباً في البقاء ولا بالاحتيال على القانون. وقد بقي الحال على هذا المنوال حتى سنة 1936.

وبسبب من وشاية من أحد زملائه لدى رئيس أركان الجيش طه الهاشمي جعل هذا الأخير يستدعي محمود ويطلب منه ـ رغم حبه

(1) من مذكرات مديحة السلمان الموسومة ـ زوجة محمود سلمان ـ (الأسيرة رقم 93).

له واعتزازه به ـ أن يفاتح صاحب الجلالة في إبقائه في الحرس الملكي فقط، دون البلاط الملكي ويقنعه بأنه سيكون دوماً قريباً منه ورهن إشارته في كل لحظة، وقد وعده بتلبية اقتراحه.

اغتنم محمود فرصة وجوده في نزهة مع الملك ففاتحه بنقله، فنظر إليه نظرة استغراب وتعجب وابتسم وقال بالحرف الواحد: «حتى أنت يا محمود يريدون إبعادك عني وأنت الشخص الوحيد الذي أفهمه ويفهمني. . . حتى أنت يا محمود؟» قالها متأثراً ومتأملاً. فرد عليه محمود ثق يا سيدي بأني راغب في هذا النقل، فليس لأحد دخل أو أثر في هذا. . . فجلالتكم لا يخفى عليه أني بقيت في خدمتكم مدة أطول مما يجب. والقانون ورغباتكم هي المطاعة من قبل الجميع. وإني كعسكري يجب أن لا أخالف حكم القانون. فإني أتوسل لدى جلالتكم لتحقيق رغبتي هذه وإبقائي آمراً للحرس الملكي بإمرتكم وخدمتكم أولاً وآخراً. وقد نذرت نفسي في سبيل الوطن. ولكن الملك رد عليه بهذه الكلمات:

«قل ما تشاء. ولكن الواقع هو أنك مجبر على طلب النقل هذا ولست مختاراً. وحيث إني لا أريد أن أكون السبب في جلب المتاعب لك فسأقبل بما تقول. ولو طلب هذا غيرك لرفضت رفضاً قاطعاً».

فرفع محمود الشكر لجلالته على لطفه وعطفه واستأذنه بأن يذهب غداً إلى رئيس أركان الجيش لإصدار الأمر اللازم للنقل فأذن له. وهكذا كان. فتسلم أمرة الحرس دون غيرها.

وبعد وقت قصير اكتشف جلالة الملك ـ وهو خبير بما وراء

الكواليس ـ بالمكيدة التي كان قد دبرها ذلك المرافق غريم محمود. فما أن انتهت المدة القانونية لمرافقته حتى استدعاه ووبخه على تلك الفعلة النكراء. وبعد أسبوعين نقل إلى الكتيبة الثانية.

بعد وفاة الملك غازي عين الأمير عبد الإله وصياً على العرش نظراً لأن ولي العهد فيصل الثاني كان طفلاً. كانت مديحة تزور جلالة الملكة في بعض المناسبات الوطنية. وفي إحدى الزيارات سمعت منها قصة الحادث الذي أودى بحياة الملك. قالت الملكة:

«كنت جالسة في القصر فانطفأت الأنوار فجأة فيه. فاستفسرت عن السبب فسمعت بأن أحد العبيد الذي تربى في القصر الملكي يطلب النجدة ويقول: الحقونا، سيدي مصاب، حصل حادث للسيارة». قالت الملكة هذا والعبرات تكاد تخنقها. واسترسلت في الحديث قائلة: «وركضت بكل قواي صوب الحادث فوجدت سيدي الملك ـ كما كانت تلقبه ـ وهو يلقبها ـ بستي الملكة ـ لقد وجدته ملقى والدم ينزف من رأسه. ووضعت يدي على قلبه فوجدته ما يزال يخفق. وفي الحال طلبت استحضار الأطباء في السرعة الممكنة. وكنت أهيب بالحاضرين أن يسعفوني بقطن وشاش عسى أن أتمكن من إيقاف النزيف. أما الذين كانوا من حولي فكل واحد مرتبك وحائر، ولا يدري ماذا يعمل. وصرت أمسك بالجرح وأضغط عليه بكل شيء تقع عليه يدي. وكان الملك فاقد النطق. وكل شيء يدل على أنه فاقد للحياة سوى دقات قلبه ونظراته. وخلت الدقائق التي كنت أعيشها في تلك اللحظة العصيبة كأنها الأعوام الثقال قبل مجيء الأطباء. جاء الدكتور سندرسن والدكتور

صائب شوكت وبعض رجال القصر، فأهبت بهم أن يعملوا لإنقاذ الملك. وبدأ الكشف عليه وفحصه وبقوا واجمين. وبعد برهة أسلم الروح.

وكان أحد الذين رافقوه في السيارة حياً، وقد أصيب بكسر في يده. وقد حدّثني عن كيفية وقوع الحادث فقال: عند عودة جلالة الملك من قصر الحارثية إلى قصر الزهور، أدار محرك السيارة وانطلق بها بسرعة كبيرة ـ كما هي عادته دائماً ـ فكان أن اصطدمت بعمود كهربائي، فاستدارت حول نفسها ووقفت من شدة الصدمة. وكان الباب قد انفتح وانسد ثانية على يد العبد ولم يفق من شدة الألم، إلا على منظر سيده الذي كان جالساً في مقعد القيادة والعمود نازل على رأسه والدم ينزف منه.

وكان في السيارة شخص آخر وهو من البوليس ـ الحرس ـ لم يصب بسوء!! فهرع العبد وأبلغ عن الحادث، وعن كل شيء شاهده بعينه».

هذا ما روته جلالة الملكة عالية عن كيفية حدوث المصرع وهي تكبت الآلام والأحزان وتثير الشجون[1].

وفي 10 تموز/يوليو من ذلك العام قُتل مدير الشرطة العام هاشم العلوي في منطقة الرطبة، عندما كان في طريقه إلى لبنان، وأحيط مقتله بظروف غامضة، حيث قالت الحكومة أنه انتحر، ولكن الحقيقة التي كان يتداولها العارفون ببواطن الأمور آنذاك،

(1) «الأعلام»، الزركلي، ج5، ص 301، و«دليل العراق الرسمي لسنة 1936»، و«دليل الجمهورية العراقية لسنة 1960»، ص 230.

يقولون أن هاشم العلوي كان يعرف أسرار مقتل الملك غازي، وأراد نوري السعيد أن يتخلص منه بأسرع وقت خوفاً من أن يقوم بإفشاء تلك الأسرار لدى وصوله إلى لبنان، نظراً لكونه كان يشغل أعلى منصب أمني في البلاد، وأنه كان مطلعاً على كل شيء.

رستم حيدر
(... - 1940)

رستم حيدر من مواليد بلدة بعلبك اللبنانية كان من كبار رجال السياسة في النصف الأول من القرن العشرين. وكانت آثاره الكبرى السياسية في رفقته لفيصل أميراً وملكاً على سورية ومفاوضاً في باريس ثم مستشاراً له لما أصبح فيصل ملكاً على العراق عام 1921.

كانت صلات هذا الرجل وذكاؤه ومعرفته بالناس والأخبار قوية مما جعله محط الأنظار في الاستشارة والنصح، ونشرت مذكراته في بيروت عام 1988 وهي في 850 صفحة من القطع الكبير. ولا أريد أن أتحدث عن المذكرات لكنني أنقل فقرة منها وردت في جريدة «النهار» تاريخ 27 شباط / فبراير 2005 في مراجعة لهذه المذكرات للدكتور ميشال جحا.

العبارة التي نقلها الدكتور جحا يعود تاريخها إلى الحادي والعشرين في الشهر السادس عام 1919 أي في حزيران/يونيو من تلك السنة. يقول رستم حيدر بالحرف الواحد: «يظهر أن بطريرك الموارنة سيحضر إلى باريس لأجل المطالبة بلبنان الكبير مع معاونة

فرنسية. ويقال أنه ميال للمطالبة بالإستقلال التام. أرى أن من الواجب توسيع لبنان بقدر الإمكان والإتفاق إذا أمكن ضمن هذه الشروط مع البطريرك في طلب الإستقلال التام بدون قيد ولا شرط. لبنان المتوسط لا الكبير مفيد إذا كان مستقلاً تمام الإستقلال وانضمام بيروت وصيدا وصور مع جبل عامل له يقوي حزب الإسلام والدروز وبقية العناصر المسيحية غير الموارنة ويربط الجبل بصفته العربية لأنه على غير هذه الحالة يخشى من أن يعتنق الفرنساوية ويلوذ بها حفظاً لكيانه فنضيّع بذلك قسماً من البلاد يكون دوماً خطراً عليها في المستقبل. أما إذا استقل لبنان وفازت فيه السياسة العربية فيكون ملجأ الأحرار ومركزاً تنشر منه هذه الأفكار الحرة والإستقلالية. وأما لبنان فيستفيد استفادة عظمى لأن كل البلاد العربية تصبح مستعمرة له إذا قام بما قام به من النشاط حتى الآن».

لقد نشر الأستاذ الدكتور محمد أنيس، أستاذ التاريخ بكلية الآداب بجامعة القاهرة، والدكتور محمد الزبيدي أستاذ التاريخ المساعد بكلية الآداب بجامعة بغداد كتاباً طبع بمطبعة الجامعة في بغداد في سنة 1977، عنوانه: «رسائل ووثائق دراسة من تاريخ العراق الحديث والمعاصر»، وهو يشمل على مجموعة رسائل كان قد وجهها إلى السيد ناجي شوكة في أوقات مختلفة على بعض أصدقائه من الساسة العراقيين. وقد وجدت في تلك الرسائل ما يخص الزوبعة الطائفية التي هبت على البلاد في منتصف الثلاثينات من هذا القرن، ولاسيما بعد وفاة الملك فيصل الأول في 8 أيلول/سبتمبر عام 1933 والتي تفاقمت وبلغت

ذروتها وقتئذ في زمن وزارة الهاشمي الثانية[1].

وقد انتقد بعض المفكرين من العراقيين المرحوم ناجي شوكة لسماحه بنشر تلك الرسائل، وذلك لتخوفهم من أن يؤدي نشرها إلى تحريك نزعات وخلافات طائفية يقضي الواجب الوطني والقومي بتلافيها.

إن أفضل خدمة قدمها ناجي شوكة للتاريخ وللعراق كان بسماحه بنشر تلك الرسائل، ذلك لأنه لا يمكن تحاشي النقاش بحرية تامة في المشاكل السياسية والإجتماعية، ناهيك عن تجاهل وجود هذه المشاكل، لأن تجاهلها أو تحاشي النقاش فيها في رأي الكثيرين خطأ ينطوي على أشرار فادحة. وكما أن المرض لا يشفى بتجاهل وجوده، ولابد أن يشخص وتعرف أسبابه في الوقت المناسب، لكي يعالج في ضوء ذلك التشخيص، كذلك فإن السياسة الرشيدة هي سياسة الاعتراف بوجود المشكلة أولاً، تمهيداً لمعالجتها بالعقل والحكمة. وهذا بالضبط ما فعله الملك فيصل الأول في مذكراته أو وصيته الشهيرة حيث قال بصراحة: «إن العراق مملكة تحكمها حكومة عربية سنية مؤسسة على أنقاض الحكم العثماني» أي أن الانقسام السياسي على أساس طائفي أو الطائفية السياسية مرض موجود ويلعب ـ مع الأسف ـ دوراً كبيراً في نظام الحكم العراقي، كما أكد على أخطاره على مستقبل البلد وضرورة معالجته، وتقدم باقتراحات في هذا

(1) أوراق ناجي شوكة ـ «رسائل ووثائق دراسة من تاريخ العراق الحديث والمعاصر»، ص 242 ـ 297.

السبيل، وطلب إلى ساسة البلدان أن يعاونوه في إبداء آرائهم في هذه المقترحات وفي غيرها إذا كانت لديهم مقترحات أخرى. أما الساسة الذين تعاقبوا على الحكم بعد موت الملك فيصل الأول في الثلاثينات، وهي الحقبة موضوع بحثنا الآن، وكذلك بعد هذه الحقبة، فإنهم جميعاً وبدون استثناء تقريباً تجاهلوا وجود المشكلة أصلاً. وحتى الذين اعترفوا بوجودها، فإنهم تحاشوا كل بحث ونقاش بشأنها، ناهيك عن كل محاولة لمعالجتها. وهكذا تفاقمت المشكلة على أشد ما يكون التفاقم بعد وفاة الملك فيصل الأول واجتاحت البلد عاصفة طائفية هوجاء زعزعت استقراره وكادت أن تهد كيانه.

وقد رأيت أن أعرض بعض المقتبسات من رسائل علي محمود الشيخ علي الموجهة إلى صديقه ناجي شوكة لأنها تعطي في الحقيقة والواقع صورة صادقة للمشكلة التي تجاهل وجودها وأهمل معالجتها الساسة الذين تعاقبوا على سدت الحكم بعد الملك فيصل الغول في تلك الفترة، الأمر الذي أساء إلى مستقبل الدولة العراقية أيما إساءة.

إني أعتقد جازماً أن علي محمود الشيخ علي ما كان ليكتب ما كتب في رسائله وكشف فيها بتلك الصراحة المتناهية عن كل ما كان يختلج في أعماق نفسه عن مكنونات وأحاسيس طائفية، لو كان يعرف أن هذه الرسائل ستنشر في يوم من الأيام بين الناس. وهذا ما يزيد من قيمتها لأنها تكشف عن المكنونات الحقيقية الكامنة في النفوس والتي تثبت وتؤيد ما كان يشعر به الملك فيصل

الأول به من خطر الانقسامات السياسية الطائفية التي كانت تمزق وحدة البلد وخاصة وحدة العرب، وما كان يسعى جاهداً لرأب صدعه.

ـ مقتل رستم حيدر:

ويقول علي محمود الشيخ علي عن اغتيال رستم حيدر أنه في حوالي الساعة الحادية عشرة صباحاً من يوم 18 كانون الثاني/ يناير 1940، بينما كنت جالساً في مكتبي في وزارة الإقتصاد، رن جرس الهاتف، وإذا بصديق يخبرني أن محاولة جرت لاغتيال رستم حيدر وزير المالية، وإن شخصاً دخل عليه وهو في مكتبه في وزارة المالية وأطلق عليه الرصاص وأصابه في خاصرته، وقد ألقي القبض على الجاني وتم نقل حيدر إلى المستشفى الملكي لإجراء عملية جراحية له. وقد وقع الخبر علي وقع الصاعقة. فتوجهت حالاً إلى المستشفى الملكي ورأيت الوزراء وعدداً كبيراً من رجال الدولة مجتمعين هناك ينتظرون نتيجة العملية الجراحية، وخرج الجراح من غرفة العمليات، وأدركت من نظراته أن الأمل ضعيف في إنقاذ حياة حيدر.

وتوفي رحمه الله في يوم 22 كانون الثاني/ يناير وشيع جثمانه إلى المقبرة الملكية تشييعاً رسمياً في موكب مهيب ووري الثرى بالقرب من رئيسه ورفيقه في الجهاد الملك فيصل الأول. وبكيت بكاءً مراً على فقد صديق كنت أحمل له أصدق الود وأعمق الاحترام وأبلغ التقدير لمواهبه العظيمة التي تجلت لي من عملي معه معاوناً في رئاسة الديوان الملكي ثم مديراً للتجارة في وزارة

المالية، تلك المواهب التي أهدرها هذا المجرم الأثيم فحرم العراق والعالم العربي من الاستفادة من فيض هذا الكنز الكبير.

وصرت أفكر وأحلل الأسباب والدوافع في مقتل حيدر، وأتساءل لماذا أقدم الجاني على اقتراف فعلته النكراء هذه فاغتال شخصاً تميز بالمواهب العظيمة والثقافة الغزيرة والخبرة الواسعة والنبل والشهامة وقد كرس حياته كلها لخدمة العراق والأقطار العربية الأخرى خدمة صادقة؟

ثم صرت أتساءل وهل كان الجاني يعرف رستم حيدر معرفة شخصية؟ وهل كانت تربطه به علاقة شخصية؟ وهل كان يضمر ضغينة أو حقداً شخصياً عليه لأنه أراد من حيدر شيئاً فلم يحققه له؟ لقد تبين لي أن القاتل لم يكن يعرف رستم حيدر معرفة شخصية ولم تكن تربطه به أية علاقة شخصية. إذن لماذا قتله؟ أم أنه كان مدفوعاً من أحد أو من جماعة كانت تضمر الحقد والكراهية لحيدر؟ ومن هي تلك الجماعة إذا كانت موجودة، وما هو سبب كراهيتها وحقدها على حيدر حتى تندفع للتآمر عليه والتحريض على قتله؟ كانت الألسن تلوك أسماء عدد من الساسة وغير الساسة وتتهمهم بالتحريض على قتل رستم حيدر وقد ألقي القبض على بعضهم وأودعوا رهن التوقيف ثم أطلق سراح قسم منهم ثم برّأت المحاكم ساحة بعضهم وحكمت على البعض الآخر بالسجن لمدد مختلفة. وبقي السؤال لماذا قتل القاتل حيدر بدون جواب، لاسيما بعد أن حوكم القاتل في محكمة عرفية وأدين ونفذ فيه حكم الإعدام. أما اعتراف الجاني في إفادته أمام قاضي

التحقيق السيد جميل الأورفلي، بأنه هو الذي قتل رستم حيدر مبرراً هذا القتل بعدم حصوله على وظيفة كان قد وعده بها الوزير رستم حيدر بدون جدوى، وأنه بعد يأسه من الحصول على الوظيفة المنتظرة أقدم على قتله دون أن يحرضه أو يعاونه أو يشترك معه أي شخص كان بارتكاب الجريمة. فإن هذا الاعتراف لا يغير في الموضوع شيئاً. لقد كان القاتل متأثراً بالدعايات المغرضة التي كانت تُبث ضد رستم حيدر وبالجو الطائفي المقيت الذي كان مخيماً على العراق وقتئذ.

فالقاتل الحقيقي لمحمد رستم حيدر إذن هو الطائفية السياسية البغيضة التي عملت السلطات البريطانية، منذ تأسيس الدولة العراقية في سنة 1921، على تشجيعها بغية تشتيت التضامن الوطني وتفتيت الوحدة العراقية التي تجلت بأروع أشكالها في ثورة 1920 الوطنية. وهذه الطائفية السياسية وما ولدته من دعايات مغرضة ضد رستم حيدر هي التي أثرت على الجاني ودفعته إلى اقتراف جريمته النكراء. لقد تفاقم أمر هذه الطائفية السياسية في النصف الثاني من الثلاثينات بشكل حاد جداً كما يتجلى ذلك بوضوح من قراءة الرسائل الموجهة من علي محمود الشيخ علي إلى ناجي شوكة والمنشورة في كتاب «أوراق ناجي شوكة» تقديم وتحليل محمد أنيس والدكتور محمد حسين الزبيدي (صفحات 242 ـ 297) وهذه الطائفية السياسية التي اغتالت محمد رستم حيدر هي نفسها التي اغتالت التجربة الديمقراطية في العراق في ثورة 14 تموز/يوليو 1958، وهي التي تسببت بمجيء الدكتاتوريات واحدة تلو الأخرى، بسبب ما كانت تصوره للفئة الحاكمة من المخاطر التي تنطوي عليها

تجربة الديمقراطية الليبرالية النيابية على الإمتيازات التي كانت تتمتع بها تلك الفئة الحاكمة.

وقد كان رستم حيدر هدف الحملة الطائفية، لأنه كان السياسي القومي العربي المنحدر من أسرة عربية شيعية لبنانية والذي تميز بأوفر قسط من الثقافة العصرية، كان سياسياً لامعاً ومفكراً عميقاً وإدارياً قديراً حازماً، يضاف إلى ذلك أنه كان سكرتير الملك الخاص ورئيس ديوانه الملكي وموضع ثقته وأسراره، كذلك كان موضوع تقدير واحترام لدى مختلف الأوساط العراقية في بغداد، ولما كان الحكم الذي أقيم في بغداد، إثر قمع ثورة 1920 الوطنية حكماً يتسم بطابع فئوي باعتراف الملك فيصل الأول نفسه الذي اعتبره في مذكرته الشهيرة «امتداد للحكم العثماني»، فإن وجود رستم حيدر، سواء في البلاط الملكي أو في المناصب الوزارية، وما كان يتمتع به من نفوذ، كان نشازاً وخروجاً لا يحتمل على طابع ذلك الحكم، إن لم يكن في نظر بعض المتطرفين خطراً عليه، ولذلك كانت سهام النقد والتجريح مركزة عليه.

مما تقدم، يتبين لنا بشكل واضح لا يرقى إليه شك أن رستم حيدر كان ضحية مرض عضال ابتليت به معظم المجتمعات والدول العربية، ومنها المجتمع العراقي والدولة العراقية، أعني الطائفية السياسية، وهي في الحقيقة والواقع، نوع من أنواع العصبية القبلية ولكنها قبلية أو عشائرية ذات طابع طائفي، هي وليدة التخلف من جهة، ووليدة خوف الفئات الحاكمة في مختلف الأقطار العربية على إمتيازاتها المستمدة من هذا الوضع القبلي العشائري الطائفي

والمدعومة به والتي تتناقض مع مفاهيم الحكم الديمقراطي الليبرالي النيابي وما يعنيه من حريات ديمقراطية ومن مساواة ترفض كل شكل من أشكال التمييز أو التفرقة بين المواطنين لأية إعتبارات، ومنها الاعتبارات الفئوية أو الطائفية.

هذا وقد نشر مؤخراً الأستاذ المؤرخ المحقق نجدة فتحي صفوة مذكرات رستم حيدر بعد أن حققها وكتب لها مقدمة عن سيرته ومقتله. ومن قراءتها تبين لنا أية خسارة خسرها العراق والعالم العربي بمقتل هذا الرجل اللامع المثقف الذي ذهب ضحية هذه الطائفية الرجعية القبلية الهوجاء وهو الذي كان أبعد الناس عنها.

عبد الرحمن الشهبندر
(1882 - 1940)

لما لم تكن العروبة المقصود بها وحدة الأقطار العربية اللسان والمحمدية الدين سوى لفظة مُبدلةٍ من الوحدة الدينية المحمدية لتدلَّ على وحدة دينية محدودة باللغة، بدلاً من الوحدة الدينية المطلقة التي كانت غرض الدعوات الرجعية الأولى إلى إعادة إنشاء الدولة الدينية، كانت لفظة ذات قوة إذاعية عظيمة في الغوغاء يُحرِّض بها ويُحرِّك ويثار، وهذا ما تنبه له السياسيون الشخصيون ذوو المطامح والمطامع السياسية الفردية، الذين يهمهم استثمار الدهماء وبناء المجد الشخصي قبل إفادة الأمة وبناء المجد القومي.

أكثر السياسيين السوريين الذين تقدموا عهد الحركة السورية القومية أو انحرفوا عنها هم إما شخصيون، وهؤلاء معظمهم، إما رجعيون أو شخصيون ورجعيون معاً. ومن هؤلاء السياسيين من أدرك عقم فكرة الوحدة العربية كعبد الرحمن شهبندر وهاشم الأتاسي وغيرهما. وللشهبندر مقال نشر في عدد آذار/ مارس عام 1934 من مجلة «المقتطف» يقول فيه باستحالة الجمع بين بعض أقوام العالم العربي وبعضها الآخر.

ويعتبر الدكتور عبد الرحمن الشهبندر أحد أبرز المناضلين العرب، ومن ألمع الخطباء المجاهدين، ومن رعيل الثوار الأوائل في القرن العشرين الذين أخلصوا لوطنهم وأمتهم إخلاصاً كبيراً... ومثلما لمع في ميدان النضال والجهاد والثورة، فإنه لمع أيضاً في ميدان الطب، ونجح في هذا المضمار نجاحاً فائقاً، لأنه مارس الطب كرسالة من أجل الإنسان والإنسانية، وليست كمهنة بقصد الربح وتكديس الثروة... لقد كانت سمعته الطيبة من أغنى الثروات التي اكتسبها في حياته، كأغلى رأسمال يمكن لأي إنسان أن يجمعه في عمره... آمن بالشعب والوطن والثورة إيماناً راسخاً هو ذاته جزء من إيمانه بالله عزَّ وجل، مفعماً بالحكمة والعقل والوطنية، حتى غدا عبقرية فذة من عباقرة تاريخنا العربي الزاخر بالطاقات والإمكانيات الهائلة[1].

وُلِد عد الرحمن الشهبندر في السادس من شهر تشرين الثاني/ نوفمبر عام 1879 بينما ذكرت موسوعة السياسة أن ولادته كانت في العام 1882، من أسرة دمشقية عريقة في سورية، كما أن لها فروعاً في العراق أيضاً. والده السيد صالح الشهبندر الذي كان معروفاً بصفاته الإنسانية ومواقفه الوطنية المعادية لكل أنواع الظلم والاستعمار.

تلقى عبد الرحمن الشهبندر علومه الإبتدائية في دمشق، ثم انتسب إلى «الجامعة الأميركية» في بيروت، ونجح في العام

(1) «موسوعة السياسة». المجلد الثالث. المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت. الطبعة الأولى 1983. ص 826 ـ 827.

1901 بشهادتها العلمية. وعاد إلى دمشق وانضم إلى الحلقة الإصلاحية التي كان يرأسها الشيخ طاهر الجزائري. وبسبب الحركات التي كانت قائمة يومذاك، قُدِّم إلى المحاكمة بتهمة الإشتراك في تأليف رسالة موضوعها «الفقه والتصوّف»، وبأنه أحد الذين كتبوا في جريدة «المقطّم» المصرية حول خلافة السلطان عبد الحميد الثاني. غير أن صغر سنه يومذاك أنقذه من السجن، أو بالأحرى، مما هو أكثر من السجن وأخطر.

عاد الشهبندر إلى «الجامعة الأميركية» في العام 1902 ليدرس الطب طوال أربع سنوات، حيث كان من المتفوقين في صفه طيلة هذه المرحلة. وفي العام 1906 نال شهادة الطب بدرجة ممتازة، - بينما ذكرت موسوعة السياسة أن سنة تخرّجه طبيباً كانت في العام 1904، لم ينلها أحد قبله. وعلى هذا الأساس اختارته «الجامعة الأميركية» أستاذاً فيها وطبيباً لطلابها.

وفي العام 1908 عاد الشهبندر إلى دمشق، واتصل بعبد الحميد الزهراوي وبعض المجاهدين الأحرار، وكان عاملاً كبيراً في تأسيس الجمعيات العربية الحرة.

وحين اندلعت نيران الحرب العالمية الأولى، لجأ الأتراك إلى سياسة البطش والتنكيل وتعليق المشانق. وكاد الشهبندر أن يكون في عداد ضحايا هذه السياسة التنكيلية، لو لم يبادر بالفرار إلى العراق، ومنه إلى الهند، ومن بعدها إلى مصر، حيث قام فيها بخدمات هامة في سبيل القضية العربية.

وفي نيسان عام 1919 عاد الشهبندر إلى دمشق، بعد أن تولى

تحرير جريدة «الكوكب» التي أنشأتها دائرة الاستخبارات البريطانية في مصر، ثم قدَّم استقالته منها بعد أن اتضحت معالم السياسة الإنكليزية إلى الجنرال كلايتون. كما كان أحد السبحة الذين تقدَّموا بمذكرة إلى هوغارت، الذي كان من أبرز رجال بريطانيا ومخابراتها في علم الآثار، وهو أستاذ لورنس المشهور بـ «لورنس العرب»، وجاءهم الرد واشتهر باسم «التصريح إلى السبعة».

في شهر أيار/مايو عام 1925، عندما ألَّف هاشم الأتاسي وزارته التي سُمِّيت بـ «وزارة الدفاع»، عُهِد إلى عبد الرحمن الشهبندر بوزارة الخارجية. لكن معركة ميسلون في 24 تموز/يوليو عام 1920، واستشهاد وزير الحربية يوسف العظمة، ودخول الجيش الفرنسي دمشق، أجبرت الشهبندر على مغادرة العاصمة السورية، لكنه عاد إليها في تموز/يوليو عام 1921، وأخذ يعمل في تنظيم الأعمال السياسية لمقاومة الإحتلال الفرنسي.

تزوج الشهبندر عام 1910 من سارة ابنة تقي الدين بك وهو أحد وجهاء دمشق وكان من المؤيدين للعظم، وهذا الزواج لعب دوراً أساسياً في نشاطه السياسي ونفوذه الإجتماعي أيضاً، ورفعه إلى واجهة الأحداث الكبرى، مدعوماً من عصبية عائلية لها وزنها على هذا الصعيد.

والواقع أنه نتيجة لنشاطه السياسي والوطني هذا، فقد حكم عليه الفرنسيون بالسجن عشرين عاماً، والنفي إلى بيت الدين في لبنان ثم إلى جزيرة أرواد. وبعد تسعة عشر شهراً صدر عفو عنه. ولما غادر السجن سافر إلى أوروبا وأميركا للدعاية لقضية الوطن

والعروبة، حيث كان من أوائل الزعماء السوريين في تلك البلاد يطرح عليها قضية بلاده ويطرح لها كثيراً من المسائل التي تستحق الشرح لتبيان الحقائق واكتساب الدعم.

وفي تموز/يوليو عام 1924، عاد الشهبندر إلى دمشق، وألّف «حزب الشعب»، حيث أخذ يعمل من جديد في تنظيم العمل السياسي. وحين ترامى إلى سمعه ما يعانيه جبل العرب - جبل الدروز سابقاً - من ظلم حاكمه الفرنسي الكابتن كاربييه، وما يحضر له زعماء الجبل، وفي مقدمتهم سلطان باشا الأطرش للثورة ضد الفرنسيين وإنقاذ البلاد من براثن إحتلالهم، وجد عبد الرحمن الشهبندر أن الفرصة مناسبة للثورة ضد الفرنسيين، فأخذ يتصل بزعماء جبل العرب، من أجل تنسيق المواقف ورص الصفوف وتجميع القوى وإعلان الثورة.

في هذا الإطار، يروي المرحوم حسن الحكيم في كتابه الفريد «صفحة في حياة الشهبندر»، والذي وضعه قبيل رحيله وهو في الثامنة والثمانين من عمره، وكان رفيق درب الشهبندر وصديق عمره، يروي أن الدروز حين يئسوا من الفرنسيين، وأدركوا أنه لا أمل في تبديل سياستهم، اتجهوا نحو دمشق، فجاء الأمير حمد الأطرش يوم الأول من أيار/مايو عام 1925، واجتمع سراً بالدكتور الشهبندر، زعيم «حزب الشعب» في منزل قاسم الهيماني. ودار البحث حول الوضع السوري الراهن، وموقف فرنسا المستعمِرة، وما يجب عمله من أجل إنقاذ البلاد وتحريرها. فأظهر الشهبندر رغبته بالإجتماع بإخوان الأمير وأبناء عمه، وهم رجالات الجبل،

وعقد الجميع إجتماعين سرّيين في منزل الشهبندر. وفي نهاية الإجتماعين أقسم الجميع اليمين وتعاهدوا وهم وقوف، على أن يدافعوا عن إستقلال البلاد حتى النفس الأخير.

وحين وقعت معركة «ميشو»، انتدب حزب الشعب أسعد البكري وتوفيق الحلبي وزكي الدروبي، فذهبوا إلى الجبل، وأبلغوا رجالاته بتأييد سورية لثورتهم. وعاد المندوبون فقصُّوا على إخوانهم ما تم الإتفاق عليه في إجتماع عقد في منزل الحاج عثمان الشراباتي، والد أحمد الشراباتي، الذي صار وزيراً للدفاع بعد الإستقلال. واستغرق الإجتماع طوال الليل. وتم الإتفاق فيه على توحيد العمل والإشتراك في الثورة، وأن يخرج قادة الحركة الوطنية صباح يوم 23 أيار/مايو إلى الكسوة للقاء المقاتلين القادمين من الجبل.

ومساء يوم 22 أيار/مايو غادر الشهبندر دمشق مع نزيه المؤيد إلى قرية حوش متبّن حيث تقرر أن يجتمع قادة الحركة. وخشي الشهبندر أن يكشف أمر الإجتماع ويقع في شرك الفرنسيين، فغيّر خطه، وذهب إلى بلودان، ومنها انتقل إلى جبل الدروز، بعد أن اجتمع بجميل مردم بك وسعد الدين المؤيد، وقصدوا جميعاً الجبل، حيث أعدُّوا ما يلزم، لإشعال الثورة في دمشق، وكان إخوانهم قد لحقوا بهم[1].

كان للشهبندر دوراً مميزاً في الثورة السورية الكبرى بقيادة

---

(1) **«عبقريات وأعلام»**. عبد الغني العطري، دار البشائر. دمشق. الطبعة الأولى 1996. ص 21 ـ 33.

قائدها العام سلطان باشا الأطرش، وهذا ما دفع البعض إلى وصف الشهبندر بأنه كان عقل الثورة المفكر وكاتبها في أكثر بياناتها. كما أن البعض وصفه بأنه كان الأهم والأبرز من كتّاب الأدب السياسي للثورة.

تضمنت مذكرات الشهبندر نص مذكراته الموجّهة إلى وزارة الخارجية الفرنسية، وفيها تبسيط لأسباب الثورة السورية وأغراضها، مشيراً إلى طبيعة الممارسات التي قام بها الموظفون الفرنسيون في سوريا، مقدماً نماذج منها تبدأ بالاعتداء الشخصي على الأفراد، ثم فرض الغرامات النقدية لتصل درجة الإهانة الإجتماعية، وتحدي التقاليد المحلية، مما أدّى إلى احتقانات، ما لبثت أن انفجرت في مواجهة الضغط المتزايد، والقائم على أسس تكرّست منذ دخول الجنرال غورو سوريا، ومن هذه الأسس جمع السلطات في يد المفوض السامي، وخنق الأفكار الحرّة، واستغلال البلاد وأهلها إلى أقصى حدّ ممكن.

وأضافت مذكرة الشهبندر أن سياسة الإنتداب منعت تطوراً سياسياً سلمياً، بدأ القيام به «حزب الشعب» والذي كان بين ضحايا سياسة القمع والإرهاب. واختتمت المذكرة بالقول: «إن فرنسا لن تحافظ على نفوذها في هذه البقعة من بقاع الشرق بقوة السلاح. وإنما تستطيع أن تفعل ذلك بانتهاجها سياسة المسالمة واعترافها بحقوق سوريا المشروعة، وأستطيع أن أؤكد لكم أن أكثرية الشعب السوري على استعداد للتفاهم مع فرنسا على قاعدة سيادة سورية القومية مع المحافظة على مصالح الفرنسيين.

لقد وضع عبد الرحمن الشهبندر كل إمكانياته وطاقاته في سبيل دعم الثورة وإنجاحها، ولكن بدا واضحاً أن الثورة السورية الكبرى وضعت رحالها أو كادت مع أواخر العام 1926، فكان أن انسحب الشهبندر مع سلطان الأطرش ورفاقهما إلى منطقة الأزرق في الأردن كانسحاب مؤقت وذلك في تشرين الأول/أكتوبر عام 1926، منهياً مشاركته في الثورة التي تابعت عملياتها على نطاق محدود في مناطق وسط سوريا والغوطة، وكانت آخر معاركها في ربيع العام 1927.

لقد تكبد الفرنسيون، في الواقع، خسائر فادحة جداً، في الأرواح والسلاح، قبل أن تضطر فرنسا إلى وضع كل ثقلها من أجل إخماد نيرانها. وحين تم لها ما أرادت، اضطر الشهبندر إلى مغادرة سوريا، وكان ذلك في أواخر شهر تشرين الأول/أكتوبر عام 1926، ثم لجأ إلى العراق، ومن العراق انتقل إلى مصر. ولما كان قد صدر بحقه حكم فرنسي بالإعدام، فقد اضطر للبقاء في القاهرة أكثر من عشر سنوات، كان خلالها مثال المناضلين والمجاهدين بنشاط من أجل قضية البلاد. وحين ألغي حكم الإعدام، عاد عبد الرحمن الشهبندر إلى أرض الوطن، في الحادي عشر من أيار/مايو عام 1937، واستقبلته دمشق استقبالاً حافلاً، لا يليق إلا بأمثاله من رواد الكفاح والجهاد، كما من رواد السجون والمنافي المؤلمة.

استأنف الشهبندر في دمشق نشاطه السياسي والوطني. وأخذ رفاقه وإخوانه وأنصاره ينظمون له احتفالات جماهيرية كل يوم، يحضرها الألوف من رجال الأحياء والوجهاء ومختلف الطبقات.

وكان الشهبندر يلقي في هذه الاحتفالات اليومية خطباً حماسية، تلتهب خلالها الأكف بالتصفيق، والهتاف بحياته. واستمرت حفلات الترحيب الكبيرة هذه واحداً وعشرين يوماً. والجدير بالذكر أن عبد الرحمن الشهبدر هاجم «معاهدة 1936» مع فرنسا، وفنّد بنودها، وعدد مساوئها، الأمر الذي أثار ضجة في البلاد، انقسم الشعب على أثرها إلى فئتين، قسم أيد المعاهدة والكتلة الوطنية بقيادة هاشم الأتاسي، وقسم كبير التف حول الدكتور الشهبندر، واقتنع بوجهة نظره في تعداد مساوئ المعاهدة وعيوبها، وضرورة الكفاح من أجل تحقيق الإستقلال الكامل والسيادة المطلقة.

والحقيقة أن عبد الرحمن الشهبندر كان دقيقاً في الموقف والموقع على السواء، وكان لكل موضع موقعه، كما كان لكل موقع موقفه المميز. وعلى هذا الأساس تعامل الشهبندر مع الثورة السورية الكبرى بصفته قائداً سياسياً وليس من موقع آخر. ربما يؤكد ذلك، تلك الحادثة التي أشار إليها المجاهد منير الريس ـ أحد رفاقه في الثورة ـ في مذكراته عن الثورة قائلاً بأنه طُلب من الشهبندر معالجة أحد المرضى في الجبل فصاح: «أنا هنا لست طبيباً... أنا زعيم سياسي... ولست أحمل معي أي أداة للطب والتداوي»[1].

إزاء هذا الوضع، كانت فرنسا وحلفاؤها بالمرصاد للدكتور عبد الرحمن الشهبندر، كما كانت تتحيّن الفرص للإيقاع به والتخلص

(1) «معالم إنسانية من المشرق العربي». فايز سارة، منشورات وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية. دمشق 1996. ص 95 ـ 103.

منه. وليس من الصعوبة أن تجد بعض الحاقدين والمأجورين من الذين يبيعون الوطن والمواطن بأرخص الأثمان. وهكذا أقدمت مجموعة من الأشرار على اغتيال الدكتور عبد الرحمن الشهبندر، وهو في عيادته يمارس عمله الإنساني فدخلوا عليه زاعمين أنهم مرضى، وأطلق واحد منهم، وهو أحمد عصاصة الرصاص على الشهبندر، فأرداه قتيلاً. وكان ذلك في صباح يوم السادس من تموز/ يوليو عام 1940.

وكان لهذا الحادث الأليم وقع كبير على دمشق خاصة وبلاد العرب عامة. وشيّعت العاصمة السورية بأسرها الشهيد البطل والزعيم الكبير بالدموع والزفرات. ودُفن جثمانه الطاهر إلى جوار صلاح الدين الأيوبي، قرب الجامع الأموي الكبير. وإمعاناً في التضليل والفتنة بين أبناء الشعب الواحد، حاولت السلطات الفرنسية ـ كعادتها ـ إلصاق التهمة بالقادة الوطنيين والمخلصين، فرمت تهمة القتل على ثلاثة من رجال الكتلة الوطنية وهم السادة: سعد الله الجابري، ولطفي الحفّار وجميل مردم بك. واستغلت هذه السلطة خلاف الرأي الذي نشب بين الكتلة الوطنية والشهبندر، والحملات التي شنها على معاهدة 1936، والذين أيدوها. واضطر رجال الكتلة، الذين ألصقت التهمة بهم إلى مغادرة البلاد إلى العراق، ريثما تنجلي الأمور، ويتم التحقيق، ويظهر الحق من الباطل.

هذا، وكان لأحمد عصاصة شريكان في جريمته القذرة هما صالح معتوق وأحمد الطرابيشي. ولدى بدء محاكمتهم زعموا

أن رجال الكتلة الوطنية الثلاث، هم الذين أغروهم ودفعوهم إلى ارتكاب جريمتهم. ولكنهم ما لبثوا أن اعترفوا بالحقيقة الناصعة، وهي أن بهيج الخطيب، الذي كان يرأس حكومة المديرين في دمشق، وهو عميل فرنسي، يأتمر بأمر المفوض السامي الفرنسي، اجتمع بهم، وطلب منهم أن يتهموا رجال الكتلة الوطنية بتدبير جريمة القتل والتحريض عليها، ووعدهم بتبرئتهم والإفراج عنهم إذا فعلوا ما أمرهم به.

اعترف المجرمون بفعلتهم خلال محاكمة طويلة استغرقت شهوراً عديدة. وذكروا أن الدافع إلى جريمتهم البشعة ديني لا أكثر. فقد اتهموا الشهبندر في دينه، وزعموا أنه تعرض للإسلام في إحدى خطبه، وأنهم فعلوا فعلتهم انتقاماً وثأراً للدين الحنيف، وحكمت المحكمة على الثلاثة بالإعدام شنقاً ونفذ بهم الحكم يوم الثالث من شهر شباط/ فبراير عام 1941.

- من أقوال عبد الرحمن الشهبندر الدينية:
- إن العقيدة، لا تكون عقيدة إلا إذا كانت مخلصة لله.
- الإسلام رجاء، والقنوط ليس من ديننا.
- إن أعظم مواقفي، وأحبها إليّ، وأرضاها عندي، وأبعثها للسكينة في جوانب نفسي، موقفي للصلاة بين يدي الله.
- من يوجه نفسه إلى الله، ويصلي بقلب ملؤه الإيمان، لا يجوز له أن يقنط.
- رابطة العروبة أقوى من أن تصاب في قوتها وروحها ما دام القرآن يجمعها.

- نحن عرب، قبل أن نكون سوريين.

- ليس لسورية مجد أكيد، وتاريخ حافل بالمفاخر، إلا من بعد الفتح العربي.

- الأمة التي لا تسفك دمها في سبيل الوطن، لا تستحق تقدير الوطن.

- خير لنا أن نغرق متحدين، من أن نعوم متفرقين.

- خير لكم أن يُخاف منكم، من أن يُشْفَق عليكم.

- من لا يحب وطنه، لا إيمان له.

- جنة الوطن مفتوحة الأبواب لكل مخلص.

- العداوة الصادقة، خير من الصداقة الكاذبة.

- إذا مات الشهبندر أو قتل في ميادين الشرف، ففي الأمة شهبندريون كثر...

ليون تروتسكي
(1879 ـ 1940)

ليف دافيدوفيتش برونشتاين وهو الاسم الحقيقي لليون تروتسكي، ولد في مقاطعة خريسون في أوكرانيا يوم السابع من تشرين الأول/ أكتوبر عام 1879 في عائلة من المزارعين اليهود. وأمضى السنوات التسع الأولى من حياته في مزرعة العائلة ثم التحق بالمدارس الثانوية في أوديسا ونيكولاييف بين الأعوام 1888 و1897. وقبل أن يتخرج من مدرسة «نيكولاييف» كان تروتسكي قد انضم إلى حلقة ثورية سرية تابعة للنارودنيين (الشعبيين)، ثم ما لبث أن اعتنق الماركسية بعد عام من ذلك فانضم إلى الحركة الإشتراكية ـ الديمقراطية وكان أحد مؤسسي وقادة «الإتحاد العمالي لجنوب روسيا». اعتقل في أوائل عام 1898 مع أعضاء آخرين في الإتحاد بتهمة الإشتراك في قيادة عدد من التظاهرات والإضرابات العمالية وطبع الكتابات الممنوعة في نيكولاييف.

احتجز في السجن مدة سنتين ثم نفي إلى سيبيريا لمدة أربع سنوات بدون محاكمة. تزوج في المنفى من ألكسندرا

سوكولوفسكايا وولد لهما طفلتان، نينا وزينا، في سيبيريا. وفي المنفى أيضاً انضم تروتسكي إلى «الإتحاد الإشتراكي ـ الديمقراطي» في سيبيريا واشتهر باسمه المستعار «آنتيد ـ أوتو» كمعلق سياسي ومحلل إجتماعي وناقد أدبي.

هرب من المنفى عام 1902 ولبى دعوة لينين في الذهاب إلى لندن حيث التحق بمجموعة من الداعين للماركسيين التي كانت تصدر صحيفة «إيسكرا» (الشرارة) إلى جانب لينين وبليخانوف وأكسلرود وزاسوليتش ومارتوف وبتروزوف.

اشترك في المؤتمر الثاني لـ«حزب العمال الإشتراكي ـ الديمقراطي الروسي» الذي عقد في بروكسيل ولندن عام 1903 والذي حدث فيه الانشقاق التاريخي بين البلاشفة والمنشفيك.

انضم تروتسكي إلى المنشفيك لفترة ثم انفصل عنهم واتخذ موقفاً مستقلاً عن كلا الجناحين. تعرف في باريس عام 1904 على ناتاليا سيدوفا التي أصبحت فيما بعد زوجته الثانية. عاد إلى روسيا في شباط/ فبراير عام 1905 بعد اندلاع الثورة الروسية الأولى فكان قائد الحركة الإشتراكية وخطيبها ورئيس «مجلس مندوبي العمال» في بطرسبرغ.

ألقي القبض على تروتسكي عام 1907 بعد فشل الثورة وأصدرت المحكمة حكمها بنفيه إلى سيبيريا وبتجريده من جميع حقوقه المدنية، غير أنه ما لبث أن هرب إلى أوروبا الغربية. وخلال وجوده في السجن، انتهى من صياغة نظريته عن الثورة الدائمة في مقالة بعنوان «نتائج وتوقعات».

أمضى الفترة ما بين عام 1907 و1914 مع ناتاليا سيدوفا وولديهما ليون وسيرجي في فينا حيث أصدر مجلة الـ«برافدا» (الحقيقة) مكرساً وقته للنشاط الصحفي والسياسي.

نزح تروتسكي إلى سويسرا بعد اندلاع الحرب العالمية الأولى ومنها إلى فرنسا حيث عمل مراسلاً لصحيفة يومية كبيرة يصدرها الليبراليون في روسيا. كما أصدر صحيفة «ناشيه سلوفو». وكان أحد موجهي المعارضة الإشتراكية الثورية للحرب وأحد الداعين إلى «مؤتمر زيمروالد» عام 1915 وهو كاتب البيان الشهير الذي صدر عن المؤتمر.

أدت دعوته لمعارضة الحرب ولتأسيس «الأممية الثالثة» إلى تقارب في وجهات النظر بينه وبين لينين بعد سنوات طويلة من الخلاف بينهما. طرد من فرنسا، فالتجأ إلى الولايات المتحدة عام 1917 ثم عاد إلى روسيا عند اندلاع ثورة شباط/ فبراير.

انضم تروتسكي إلى الحزب البلشفي عام 1917 وعرف إلى جانب لينين، بهجومه الصاعق البارع على نظام حكم شباط/ فبراير. فسجنته حكومة كرنسكي في العام 1917.

انتخبه عمال بتروغراد رئيساً لسوفيات مدينتهم. وخلال وجوده في هذا المنصب نظم ثورة تشرين الأول/ أكتوبر وقادها. عين أول مفوض للشعب للشؤون الخارجية، وقاد وفد بلاده إلى مفاوضات «بريست ليتوفسك» غير أنه رفض شروط ألمانيا وطالب بانتهاج سياسة لا حرب ولا سلم واستقال من مفوضية الشؤون الخارجية.

عيّن مفوضاً لشؤون الحرب بين عام 1917 و1923 فأسس «الجيش الأحمر» وقاده بنجاح خلال أعوام الحرب الأهلية. وكان عضواً في المكتب السياسي وفي اللجنة المركزية طوال هذه المدة. خلال هذه الفترة كتب: «من ثورة فبراير إلى مفاوضات بريست ليتوفسك»، «الشيوعية والإرهاب» وكتباً أخرى، كما حرّر جميع بيانات المؤتمرات الخمسة الأولى للأممية الشيوعية وأهم بلاغاتها ومقرراتها السياسية.

وفي عام 1923، قاد تروتسكي أول حركة معارضة لستالين مستنكراً تهشيم الديمقراطية السوفياتية وتفاقم البيروقراطية في الحزب والدولة مطالباً بالتصنيع الثقيل في الإتحاد السوفياتي. وبعد أن تحالف عليه ستالين وزينوفييف وكامنييف وبوخارين وغيرهم استقال من مفوضية الحرب عام 1925.

خلال هذه الفترة كتب: «الأدب والثورة»، «العهد الجديد»، «إلى أين تسير بريطانيا؟» «أوروبا وأميركا»، «مشاكل الحياة اليومية»، ومؤلفات أخرى.

تحالف تروتسكي عام 1926 مع زنوفييف وكامنييف ضد ستالين فأسسوا «المعارضة الموحدة» وبعد صراع عنيف حول جميع القضايا الأساسية المتعلقة بالسياسة الشيوعية، طرد تروتسكي من الحزب في أواخر عام 1927 ونفي من موسكو إلى «ألما ـ آتا» على الحدود الروسية ـ الصينية حيث استمرّ في توجيه المعارضة وفي نقده نظرية ستالين عن الإشتراكية في بلد واحد والطريق التي يعالج بها الشؤون الشيوعية وخاصة سياسته تجاه الثورة الصينية عام 1925 ـ 1927 وفي

«ألما ـ آتا» كتب تروتسكي: «نقد مشروع برنامج الكومنترن»، «الثورة الدائمة»، ومؤلفات أخرى.

أُبعد تروتسكي إلى تركيا فسكن جزيرة برينبيكو حتى صيف العام 1933 فشرع في تنظيم مؤيديه في بلدان عديدة وأصدر «نشرة المعارضة» وكتب: «تاريخ الثورة الروسية»، «حياتي» ومؤلفات أخرى.

ابتداءً من العام 1929 شن حملة خاصة لتعبئة الحركة الشيوعية ضد خطر نشوء النازية، فلم تلق تحذيراته الاهتمام الكافي. سحبت منه الجنسية السوفياتية عام 1932، وذهب أتباعه وأقاربه ضحية حملة إرهاب عنيفة بقيادة ستالين. توفيت إحدى بناته ـ نينا ـ عام 1928، وانتحرت الأخرى ـ زينا ـ عام 1933 في برلين بعد مرض مزمن وبعد أن سحبت منها الجنسية السوفياتية ومُنعت من رؤية عائلتها في روسيا.

سمح لتروتسكي بدخول فرنسا، بعد أن رفضت جميع دول أوروبا تقريباً منحه اللجوء إليها، فدعا هناك إلى تأسيس «الأممية الرابعة». طرد تروتسكي من فرنسا عام 1935 فالتجأ لفترة قصيرة إلى النرويج حيث كتب «الثورة المغدورة». وبعد محاكمة زينوفييف وكامنييف والقيادات البلشفية القديمة وإعدامها في العام 1936، رضخت الحكومة النرويجية لضغط ستالين فاحتجزت تروتسكي لمنعه من فضح مهزلة «التصفيات الكبرى». في ذلك الحين كانت حملة ستالين الشعواء على التروتسكية قد بلغت ذروتها. فاتهم تروتسكي في محاكمات موسكو بتحضير مؤامرات عديدة لاغتيال ستالين وفوروشيلوف وكاغانوفيتش وغيرهم، وبالتحالف السري مع

هتلر وإمبراطور اليابان بغية تقويض النظام السوفياتي وتجزئة الإتحاد السوفياتي.

في العام 1937، سمح لتروتسكي بدخول المكسيك حيث مثل أمام محاكمة مضادة ترأسها الفيلسوف الأميركي جون ديووي. فدحض تروتسكي، بوصفه الشاهد الأساسي في هذه المحاكمة، جميع الاتهامات الموجهة إليه، وأصدرت المحكمة حكمها ببراءة تروتسكي من التهم الموجهة إليه، وفي السنة التي تلت أعلن تأسيس «الأممية الرابعة» وكتب «البرنامج الانتقالي للأممية الرابعة». وقد تنبأ بوقوع الحرب العالمية الثانية وحلّل نتائجها المتوقعة في عدد ضخم من الدراسات والمقالات.

ذهب ابنه الأصغر ـ سيرجي ـ ضحية حملة الإرهاب الواسعة في الإتحاد السوفياتي التي تمّ قتل عدد كبير من أتباع تروتسكي وعوائلهم. ومات ابنه الأكبر ليون في شباط/فبراير عام 1938 في باريس، وتشير ظروف موته إلى أن رجال «منظمة الشرطة السرية» السوفياتية قد اغتالته. وبالإضافة إلى ذلك، قضى العديد من أتباع تروتسكي نحبهم على يد عملاء هذه المنظمة في إسبانيا وفرنسا وسويسرا.

وفي أيار/مايو عام 1940، هاجمت عصابة ستالينية مسلحة تروتسكي نفسه. وبعد ذلك بمدة قصيرة، أقدم رامون ميركادار (جاكسون) في 20 آب/أغسطس 1940 على اغتيال تروتسكي في منزله في المكسيك. بينما كان على وشك الانتهاء من كتابة «سيرة حياة ستالين».

ـ من أهم أعماله:

1 ـ دروس أكتوبر:

كتب تروتسكي كتابه «دروس أكتوبر» خلال صيف 1924، ونشر في شهر أكتوبر كبديل لمقدمة الجزء الأول من مؤلفاته الكاملة.

إن هذا الكتاب، بناء شخصي للحوادث التي سبقت الثورة الروسية ورافقتها في أثناء الفترة الممتدة من شباط/ فبراير إلى تشرين الأول/ أكتوبر. وهذا هو الذي يجعلنا اليوم نفهم، بصعوبة، السبب الذي جعل هذا الكتاب يثير ما أثار من جدل وما لقي من معارضة إبان صدوره. فقد كان مركز نقاش سياسي في الإتحاد السوفياتي امتد لعدة شهور. فكون المؤلف عاد في كتاب «دروس أكتوبر» إلى الكلام حول بعض المواضيع الحساسة، خاصة، بإعادته إلى الأذهان موقف زينوفياف وكاميناف عشية ثورة أكتوبر، لا يكفي بالتأكيد، لتفسير لماذا أحدث ذلك الاهتمام، ولماذا أثار ذلك الجدل.

على أن الأمر الأول الذي يجب أخذه بعين الاعتبار هو أن شخصية المؤلف، بعد وفاة لينين في كانون الثاني/ يناير 1924، كانت، بدون أدنى شك الشخصية الأكثر مهابة بين فريق القادة البلاشفة، واسمه كان يستحضر إلى الذهن التجارب والصفحات الأكثر فخراً للثورة والحرب الأهلية. أما الأمر الثاني فهو الأخذ بعين الاعتبار ما كانت تمثله شخصية تروتسكي في الفلك السياسي وفي الأوضاع التي كانت قائمة في تلك الفترة، فقد كان يبدو، بصورة خاصة، كنقد، وكمعارضة، للفريق الحاكم الذي كان يمارس المراقبة الفعلية على الحزب وعلى الدولة.

ولاستكمال التفسير يلزم إعتبار عدة وقائع وعناصر أخرى:

فبين خريف 1924، والشهور الأولى لسنة 1925، كان تروتسكي قد نشر سلسلة مقالات جمعها بعد ذلك في كتاب سماه «تيار جديد». والموضوع الرئيسي لهذه المقالات يكمن في استنكار العملية الجارية لتدوين Bureaucratisation الحزب، والتي ستظهر آثارها في التعارض بين الجيل القديم «الحراس القدماء» وبين الأجيال الجديدة. فالحزب ـ حسب رأي تروتسكي ـ أخذ يفقد، بشكل دائم، الاتصال بالقوى الحية الأكثر ثورية في البلاد: وهي الشبيبة العمالية والطلابية. ويعبر عن هذه الظاهرة تركيبه الإجتماعي، من خلال نمو الوظائفية فيه.

2 ـ المركزية الديمقراطية[1]:

يقول تروتسكي في كتابه هذا: خلال الأشهر الأخيرة، تلقيت من عدد من الرفاق الشباب على ما يبدو، والذين لا معرفة لي بهم، رسائل حول النظام الداخلي لحزب ثوري[2]. ويشتكي بعضهم من نقص الديمقراطية في منظمتكم ومن استبداد القادة ومن أمور أخرى من هذا القبيل، وطلب مني بعض الرفاق فردياً إعطاءهم صيغة واضحة ودقيقة عن المركزية الديمقراطية تستبعد كل تأويل خاطئ.

(1) كتب في 8 كانون الأول/ ديسمبر عام 1937.

(2) منذ وصوله إلى كويوا كان حتى وفاته، تلقى تروتسكي رسائل عديدة من مناضلين من أميركا الشمالية حول موضوع **«النظام»** داخل فرع الولايات المتحدة الأميركية.

ليست الإجابة على هذه الرسائل أمراً سهلاً. إذ لا يحاول أي ممن راسلوني أن يبرز فقط وعلى نحو واضح وملموس، استناداً إلى أمثلة، أين يكمن بوجه الدقة انتهاك الديمقراطية. ويتضح من جهة أخرى، بقدر ما أستطيع الحكم من الخارج، استناداً إلى جريدتكم ونشراتكم، أنه جرى تنظيم النقاش في منظمتكم بحرية كاملة. وتضم النشرات بوجه خاص نصوص صادرة عن قادة أقلية صغيرة. وقد بلغني نفس الشيء بخصوص إجتماعات نقاشكم. والقرارات لم تتخذ بعد. وستتخذها طبعاً ندوة منتخبة بحرية. أين تجلت انتهاكات الديمقراطية؟ هذا أمر مستعص على الفهم. يبدو لي أحياناً، إن حكمتُ بناء على نبرة الرسائل، أي بوجه خاص طابع الاعتراضات اللاشكلي، أن المشتكين مستاؤون بوجه خاص من انكشاف كونهم مجرد أقلية صغيرة رغم الديمقراطية القائمة. إني أدرك بتجربتي الخاصة أن ذلك مزعج. لكن هل في الأمر انتهاك ما للديمقراطية؟

كما أرى أنه يتعذر علي تقديم صيغة عن المركزية الديمقراطية تزيل نهائياً كل أشكال سوء الفهم والتأويل الخاطئ. إن الحزب جسم نشيط. ويتطور خلال النضال ضد عقبات خارجية وتناقضات داخلية. ويخلق تفكك الأمميتين الثانية والثالثة الخبيث، في الشروط القاسية للحقبة الإمبريالية، مصاعب غير مسبوقة بوجه الأممية الرابعة. ولا يمكن تخطيها بصيغة سحرية ما. لا يسقط نظام الحزب ناضجاً من السماء، بل يتكون تدريجياً خلال النضال. إن للخط السياسي أسبقية على نظام الحزب. يجب أولاً تحديد المشاكل الإستراتيجية والمناهج التكتيكية بقصد التمكن من حلها. ويتعين

على الأشكال التنظيمية أن تطابق الإستراتيجية والتكتيك. إن الخط السياسي الصائب هو القادر وحده على ضمان نظام سليم داخل الحزب. لكن هذا لا يعني طبعاً أن تطور الحزب لا يطرح مع ذلك مشاكل تنظيمية. بل يعني أن على صيغة المركزية الديمقراطية أن تجد في نهاية المطاف تعبيراً مغايراً في أحزاب مختلف البلدان وفي مراحل مختلفة من تطور نفس الحزب.

ليست العلاقة المتبادلة بين الديمقراطية والمركزية علاقة ثابتة. الأمر كله متوقف على الظروف الملموسة، وعلى الوضع السياسي للبلد، وعلى قوة الحزب وخبرته، وعلى المستوى العام لأعضائه، وعلى ما كسبت القيادة من تأثير. قبل ندوة ما، عندما يكون المقصود تحديد خط سياسي للمرحلة القادمة، تُرجح الديمقراطية دوماً على المركزية. وعندما يصبح المشكل مشكل عمل سياسي فإن المركزية تُخضِع الديمقراطية. وتستعيد الديمقراطية حقوقها عندما يشعر الحزب بالحاجة إلى تفحص نقدي لنشاطه. يتشكل التوازن بين الديمقراطية والمركزية في النضال الفعلي وُينتهك أحياناً، ثم يعاد إرساؤه من جديد. ويتجلى نضج كل عضو بالحزب بوجه خاص في كونه لا يطالب نظام الحزب بأكثر مما بوسعه أن يعطي. إن من يحدد موقفه إزاء الحزب من خلال ما تلقاه شخصياً من ضربات على الأنف إنما هو ثوري تافه.

طبعاً يجب محاربة كل ما ترتكب القيادة من أخطاء فردية ومن مظالم وما إلى ذلك. لكن يجب ألا يجري تقييم تلك الأخطاء

والمظالم في حد ذاتها بل في علاقتها بتطور الحزب على المستوى القومي والعالمي. إن حكماً صائباً وحس مراعاة التناسب أمران بالغا الأهمية في السياسة. إن من يجنح إلى جعل الحبة قبة قد يضر بنفسه كما بالحزب.

تكمن تعاسة أناس مثل أوهلر وفييلد وويسبورد وغيرهم على وجه الدقة في افتقادهم لحس مراعاة التناسب. ثمة حالياً أنصاف ثوريين، أنهكتهم الهزائم، وتفزعهم المصاعب، شيوخ فتيان لديهم من الشكوك والإدعاء أكثر مما لديهم من عزيمة القتال. فبدل تحليل جدي لجوهر المسائل السياسية يبحث هؤلاء الناس على أدوية مزعومة لكل الأمراض ويشتكون من نظام الحزب في كل مناسبة مطالبين القيادة بمعجزات، أو يحاولون إخفاء شكوكهم الباطنية خلف ثرثرة فوق يسارية. أخشى ألا نتمكن من تحويلهم إلى ثوريين، ما عدا إذا أمسكوا زمام أمرهم بأيديهم. ومن جهة أخرى لا شك في قدرة الجيل العمالي الشاب على تقدير برنامج الأممية الرابعة ومحتواها الاستراتيجي حق قدرهما، وفي انضوائه تحت رايتها بصفوف متنامية دوماً.

يجب على كل ثوري حقيقي يكشف أخطاء نظام حزبه أن يخاطب نفسه أولا، قائلاً: «يتعين علينا استقطاب دزينة عمال جدد إلى حزبنا». وسيقوم العمال الجدد باسترعاء كل من السادة المتشككين وتجار الاعتراضات والمتشائمين إلى النظام.

لا يمكن إرساء نظام حزبي صلب وسليم في فروع الأممية الرابعة سوى على هذا النهج دون غيره.

3 ـ الوسطية والأممية الرابعة[1]:

أ ـ تشطب أحداث النمسا[2]، بعد تلك التي شهدتها ألمانيا، بصفة نهائية على الإصلاحية الكلاسيكية. ولن يجرؤ بعد اليوم على الحديث علانية عن آفاق التطور السلمي والإصلاحات الديمقراطية، الخ غير قادة التريديونيونية الإنجليزية والأميركية البلداء وتابعهم جوهو[3] وفاندرفلد رئيس الأممية الثانية وغيرهم من الكائنات السياسية المنقرضة. إن سواد الإصلاحيين الأعظم يصطبغ اليوم عمداً بألوان جديدة. وتخلي الإصلاحية المكان لألوان لا تحصى من الوسطية تغطي اليوم مجال الحركة العمالية في غالبية البلدان. وهكذا ينشأ وضع جديد، غير مسبوق بطريقته الخاصة، من أجل عمل وفق روح الماركسية الثورية (البلشفية).

إن الأممية الجديدة ستنمو خصوصاً على حساب التيارات والمنظمات الوسطية المهيمنة حالياً. وفي نفس الوقت لا يمكن للأممية الثورية أن تتكون إلا في خضم النضال الحازم

---

(1) يمثل هذا المقال منعطفاً في تحليل تروتسكي للمنظمات الإصلاحية ولوزن الوسطية. هو بداية تحليل سيفضي إلى ما يعرف بـ «**المنعطف الفرنسي**» المستند على تحليل عالمي.

(2) جواباً على استفزازات حكومة Dollfuss، والدعوة للنضال من جانب الحزب الإشتراكي الديمقراطي ردت ميليشيات هذا الحزب بالسلاح على البوليس وشنت، لا سيما في فينا، معارك ضارية من 11 إلى 16 شباط/فبراير 1934 وسحقها الجيش في النهاية. بنظر تروتسكي أكدت هزيمة عمال فينا ـ بعد معركة فعلية هذه المرة ـ الدور التاريخي للإشتراكيين الديمقراطيين.

(3) ليون جوهو 1879 ـ 1954 L Jouhaux نقابي ثوري قديم، كان منذ 1909 كاتباً عاملاً لنقابة CGT الفرنسية. انضم إلى الإتحاد المقدس عام 1914 وفضل الانشقاق على تسلم الثوريين للمنظمة بعد الحرب.

ضد الوسطية. إن الصرامة السياسية ومرونة سياسة الجبهة الوحيدة هما في هذه الشروط سلاحين لبلوغ نفس الهدف.

ب - يتعين:

أولاً، فهم السمات الأكثر تمييزاً للوسطية المعاصرة، وهذا ليس بالأمر السهل. أولاً، لأن الوسطية، بسبب انعدام الشكل لديها، لا تخضع إلا بصعوبة لتعريف إيجابي. فما ينقصها يميزها أكثر مما يميزها ما لديها.

ثانياً، لم يسبق أبداً للوسطية أن تلألأت كما هي اليوم بكل ألوان قوس قزح لأن صفوف الطبقة العاملة لم تشهد من قبل مثل هذا الاختمار السياسي الحالي.

إن الاختمار السياسي، بالمعنى الدقيق للكلمة، يعني إعادة تراصف وانتقال بين قطبي الماركسية والإصلاحية، أي الانتقال عبر مختلف أطوار الوسطية.

ج - مهما بلغت صعوبة تعريف عام للوسطية، التي يلازمها بالضرورة طابع الظرفية، يمكن ويجب استخلاص السمات الأساسية ومميزات التجمعات الوسطية الناجمة عن انهيار الأمميتين الثانية والثالثة.

إن الوسطية في مجال النظرية عديمة الشكل وانتقائية وتتملص، قدر الإمكان، من الواجبات النظرية وتميل، قولاً، إلى تفضيل الممارسة الثورية على النظرية. دون أن تدرك أن النظرية الماركسية وحدها قادرة على إعطاء الممارسة اتجاهاً ثورياً.

للوسطية، في مجال الأفكار، وجود طفيلي: إنها تكرر بوجه الماركسيين الثوريين الحجج المنشفية القديمة (مارتوف ـ أكسلرود ـ بليخانوف) وعادة دون تبين ذلك، وتستعير من جهة أخرى من الماركسيين، أي من البلاشفة اللينينيين، أهم حججهم ضد اليمين، ملطفة مع ذلك نقدهم بالتملص من الخلاصات العملية مفرغة على ذلك النحو نقدهم من كل محتوى.

يعلن الوسطي، بطيب خاطر، عداءه للإصلاحية. لكنه لا يتكلم عن الوسطية، بل يرى أن مفهوم الوسطية نفسه قليل الوضوح واعتباطي، الخ. بعبارات أخرى لا يحب الوسطي أن ينعت باسمه.

إن الوسطي، غير الواثق أبداً من مواقفه ولا من مناهجه، يكن حقداً للمبدأ الثوري: قول ما هو كائن. ويميل إلى إحلال دبلوماسية هزيلة بين المنظمات محل السياسة المبدئية.

يبقى الوسطي دوماً في تبعية روحية لزمر اليمين ويميل إلى البحث عن رضا من هم أكثر اعتدالاً والسكوت عن ذنوبهم الانتهازية وحجب ممارساتهم عن أعين العمال.

ليس نادراً أن يجهد الوسطي لإخفاء تسكعه بإثارة خطر العصبوية هذه التي لا تعني لديه سلبية دعاوية مجردة من النمط البورديغي بل سعياً نشيطاً إلى نقاوة المبادئ ووضوح الموقف وصرامة في السياسة وإتقان في التنظيم.

يقع الوسطي في منزلة بين الانتهازي والماركسي أشبه بمنزلة البورجوازي الصغير بين الرأسمالي والبروليتاري. يتملق الأول ويحتقر الثاني.

يتميز الوسطي، على الساحة العالمية، بقصر النظر أو حتى بالعمى. ولا يفهم أنه لا يمكن، في العصر الحالي بناء حزب ثوري، إلا بما هو جزء من حزب عالمي. واختيار الحلقات على المستوى العالمي أقل صعوبة على الوسطي من اختيارهم في بلده الخاص.

لا يرى الوسطي في سياسة الأممية الشيوعية غير الانحرافات اليسارية المتطرفة والنزعة المغامرة والانقلابية، وينسى كلياً التعرجات اليمينية الانتهازية (الكيومنتانغ ـ اللجنة الروسية ـ الانجليزية ـ السياسة الخارجية السلمية، الخ).

يتبنى الوسطي بطيب خاطر سياسة الجبهة الوحيدة، لكنه يفرغها من كل محتوى ثوري بتحويلها من أسلوب تكتيكي إلى مبدأ سامٍ.

يلجأ الوسطي إلى دروس أخلاقية مثيرة للشفقة لإخفاء فراغه الإيديولوجي ولا يفهم أن الأخلاق الثورية لا تتكون إلا على قاعدة عقيدة ثورية وسياسة ثورية.

قد يقبل الوسطي، بضغط الظروف، أقصى الخلاصات لكن فقط للتراجع والتخلي عنها عملياً فيما بعد لاحقاً فإن اعترف بديكتاتورية البروليتاريا ترك المجال واسعاً لتأويلاته الانتهازية. وإن أعلن ضرورة الأممية الرابعة عمل لبناء أممية 2 ونصف، الخ.

د ـ إن أسوأ مثال عمن يمثّل الوسطية هو المجموعة الألمانية Neu Beginnen: تكرر بطريقة سطحية النقد الماركسي للإصلاحية لتفضي إلى خلاصة أن كل مصائب البروليتاريا ناتجة عن الانشقاقات وإن الخلاص يكمن في وحدة الأحزاب الإشتراكية الديمقراطية.

إن هؤلاء السادة يضعون الانضباط التنظيمي لـ Wels وشركائه فوق المصالح التاريخية للبروليتاريا، وباعتبار فلس ومن معه يخضعون الحزب لانضباط البورجوازية فإن جماعة Neu Beginnen تحت غطاء نقد يساري مسروق من الماركسية تمثل في الواقع وكالة للنظام البورجوازي رغم أنها في مرتبة ثانية.

هـ ـ إن ما يسمى بـ «مكتب لندن» أمستردام حالياً(4) هو محاولة لإنشاء مركز عالمي للانتقاء الوسطية يتجمع تحت لوائه وسطيو اليمين واليسار ممن لا يستطيعون اختيار توجيه وراية بصورة نهائية. وهنا أيضاً يحاول الوسطيون جر الحركة وفق خط منحرف، فالعناصر التي تشكل هذه الكتلة يجري كل منها في اتجاه معاكس للآخر: فحزب العمال النرويجي يقترب بحذر من الأممية الثانية وILP تقترب جزئياً من الأممية الثالثة وجزئياً من الأممية الرابعة وOSP وSAP بتذبذب يقتربان من الأممية الرابعة وكتلة مكتب لندن بحفاظها واستغلالها انعدام الشكل الإيديولوجي لأعضائها وبمنافستها للعمل لأجل بناء أممية جديدة تقوم بدور رجعي. إن فشل هذا التجمع حتمي.

و ـ إن تعريف سياسة الأممية الشيوعية كوسطية بيروقراطية يحتفظ اليوم أيضاً بكامل قوته، ففي الواقع وحدها الوسطية تستطيع القفز باستمرار من الكيانات الانتهازية إلى نزعة المغامرة اليسارية المتطرفة، وحدها البيروقراطية السوفياتية استطاعت خلال عشر سنوات أن تمد سياسة التعرجات الكارثية هذه بقاعدة قارة[1].

(1) مقال كتبه ليون تروتسكي تاريخ 22 شباط/ فبراير عام 1934.

4 ـ تسعون سنة من البيان الشيوعي:

نكاد لا نصدق أن عشر سنوات تفصلنا عن الذكرى المئوية للبيان الشيوعي! يفاجئ هذا البيان بطراوته، أكثر بيانات الأدب العالمي عبقرية، لحد الآن. تبدو أقسامه الرئيسية وكأنها كتبت بالأمس. حقاً أحسن الكاتبان الشابان (كان عمر ماركس 29 سنة وأنجلز 27) النظر إلى المستقبل على نحو لم ينظر به أحد قبلهما وربما حتى بعدهما.

كان ماركس وأنجلز قد أشارا، منذ مقدمة الطبعة الإنجليزية سنة 1872، إلى أن أقساماً ثانوية من البيان باتت شائخة ولم يعتبرا من حقهما تعديل النص الأصلي لأن البيان أصبح، خلال 25 سنة المنصرمة، وثيقة تاريخية. ومنذئذ مضت خمس وستون سنة، وغاصت بعض الأقسام المعزولة من البيان بشكل أعمق في الماضي. سنبذل قصارى جهدنا لنعرض في هذه المقدمة أفكار البيان التي حافظت كلياً على قوتها حتى اللحظة، وكذا تلك المحتاجة إلى تعديلات جدية أو إضافات.

1 ـ قاوم التصور المادي للتاريخ، الذي اكتشفه ماركس قبُيل نشر البيان وطبقه فيه بمهارة تامة، مقاومة كلية امتحان الأحداث وضربات النقد المعادي، وهو يشكل اليوم أحد أثمن أدوات الفكر البشري، بينما فقدت باقي تفسيرات السيرورة التاريخية كافة كل قيمة علمية. وبكل يقين يمكن القول إنه دون تملك التصور المادي للتاريخ، يتعذر على المرء حالياً أن يكون مناضلاً ثورياً، لا بل حتى إنساناً ذي ثقافة سياسية.

2 ـ يبدأ الفصل الأول من البيان الشيوعي بالجملة التالية: «ليس تاريخ كل مجتمع إلى يومنا هذا سوى تاريخ صراع الطبقات».

هذه الأطروحة نفسها، التي تمثل أهم خلاصات التصور المادي للتاريخ، ما لبثت أن أصبحت موضوعاً لصراع الطبقات. فقد تعرضت النظرية التي تستبدل المصلحة المشتركة والوحدة الوطنية وحقائق الأخلاق الأبدية بصراع المصالح المادية بما هي القوة المحركة، لهجمات شرسة على نحو خاص من طرف المنافقين الرجعيين والعقائديين الليبراليين والديمقراطيين المثاليين. وانضم إليهم لاحقاً، من داخل الحركة العمالية نفسها هذه المرة، من كانوا يُدعون بالتحريفيين أي أنصار مراجعة الماركسية وفق روح تعاون الطبقات والتوفيق بينها. وأخيراً اقتفى أثرهم في عصرنا الورثة الحقيرون في الأممية الثالثة (الستالينيون)، لقد نتجت سياسة ما يسمى «الجبهات الشعبية» كلياً عن إنكار قوانين الصراع الطبقي. هذا مع أن حقبة الإمبريالية تمثل النصر التاريخي للبيان بدفعها كل التناقضات الإجتماعية حتى نهايتها القصوى.

3 ـ شرح ماركس في كتاب «الرأسمال» بشكل ناجز 1867 التركيب الداخلي للرأسمالية بما هي طور محدد من التطور الإقتصادي للمجتمع. لكن منذ البيان الشيوعي كانت الخطوط الأساسية لتحليله المقبل مرسومة بأزميل حازم. مكافأة العمل بالقدر اللازم للإنتاج، وتملك فائض القيمة، والتنافس بما هو قانون أساسي للعلاقات الإجتماعية، وخراب الطبقة الوسطى أي البرجوازية

الصغيرة بالمدن والفلاحين، وتركز الثروات بأيدي قطب لا يفتأ يتضاءل من المالكين، وتنامي البروليتاريا عدداً في قطب آخر، وتهيئة الشروط المادية والسياسية للنظام الإشتراكي.

4 ـ تعرضت أطروحة البيان، حول ميل الرأسمالية إلى خفض مستوى حياة العمال وحتى إفقارهم، لهجوم عنيف. فقد انتصب الكهنة والأساتذة والوزراء والصحافيون والمنظرون الإشتراكيون ـ الديمقراطيون والقادة النقابيون، ضد نظرية الإفقار التدريجي. وعلى نسق واحد اكتشفوا تنامي رفاه العمال، حاسبين أن الأرستقراطية العمالية هي البروليتاريا، أو معتبرين ميلاً عابراً بمثابة ميل عام. وفي نفس الوقت أدى تطور أقوى الرأسماليات، رأسمالية أميركا الشمالية، إلى تحويل ملايين العمال إلى فقراء تجري إعالتهم بإحسان الدولة أو البلدية أو الخواص.

5 ـ بتعارض مع البيان، الذي كان يصف الأزمات التجارية ـ الصناعية بما هي جملة كوارث متنامية، كان التحريفيون يجزمون أن تطور التروسات قومياً ودولياً يضمن التحكم بالسوق ويفضي تدريجياً إلى السيطرة على الأزمات. صحيح أن نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين تميزتا بتطور مندفع لدرجة بدت الأزمات وكأنها فترات ركود عرضية، لكن تلك الحقبة مضت بلا رجعة. في هذه المسألة أيضاً كانت الحقيقة، في آخر التحليل، إلى جانب البيان.

6 ـ «ليست الحكومة الحديثة سوى لجنة تدير الشؤون العامة للطبقة البرجوازية بأسرها». في الواقع تنطوي هذه الصيغة المركزة،

التي بدت للقادة الإشتراكيين ـ الديمقراطيين مفارقة صحفية، على النظرية العلمية الوحيدة حول الدولة. ليست الديمقراطية التي خلقتها البرجوازية قوقعة جوفاء يمكن، كما اعتقد برينشتاين وكاوتسكي، ملؤها بما يُراد من مضمون طبقي. لا يمكن للديمقراطية البرجوازية أن تخدم غير البرجوازية. وليست حكومة الجبهة الشعبية، سواء بقيادة بلوم أو شوطون (لارغو) أو كاباليرو أو نغرين، سوى لجنة تدير الشؤون العامة للطبقة البرجوازية بأسرها، وحين تخفق هذه اللجنة في التخلص من المأزق تطردها البرجوازية بضربة قدم.

7 ـ «كل صراع طبقي هو صراع سياسي»، «تُشكل البروليتاريا في طبقة ثم في حزب سياسي». طالما تهرب النقابيون من جهة، والنقابيون الفوضويون من جهة أخرى، من فهم هذه القوانين التاريخية، وما فتئوا اليوم يحاولون التنصل منها. لقد تلقى المبدأ النقابي الخالص ضربة رهيبة حالياً في ملجئه الرئيسي، الولايات المتحدة الأميركية. ومُنيت الحركة النقابية الفوضوية بهزيمة لا ترميم لها في آخر قلاعها، إسبانيا. حتى في هذه المسألة كان البيان على حق.

8 ـ لا يمكن للبروليتاريا أن تظفر بالسلطة في إطار القوانين التي تسنها البرجوازية. «ينادي الشيوعيون علانية بأن لا سبيل لنيل أهدافهم إلا عبر تدمير النظام القائم تدميراً عنيفاً». حاول الإصلاحي تفسير أطروحة البيان هذه بعدم نضج الحركة آنذاك وبنقص تطور الديمقراطية. ويبرز مآل الديمقراطية الإيطالية والألمانية وجملة أخريات أن ما ينقصه النضج هو الأفكار الإصلاحية بالذات.

9 ـ يستلزم القيام بالتحويل الإشتراكي للمجتمع تركيز الطبقة العاملة بين يديها للسلطة القادرة على تحطيم كل العقبات السياسية على طريق النظام الجديد. «البروليتاريا المنظمة في طبقة حاكمة» هي الديكتاتورية. وهي في نفس الوقت الديمقراطية البروليتارية. ويتوقف نطاقها وعمقها على الشروط التاريخية الملموسة. وبقدر تزايد عدد الدول المنخرطة في الثورة الإشتراكية بقدر ما ستكون أشكال الديكتاتورية حرة ومرنة وبقدر ما ستتسع الديمقراطية العمالية تتعمق.

10 ـ يستتبع التطور العالمي للرأسمالية الطابع العالمي للثورة البروليتارية. ويمثل عمل البروليتاريا المشترك، بالأقل في البلدان المتحضرة، إحدى أولى شروط تحررها. وقد ربط التطور اللاحق للرأسمالية كافة أقسام كوكبنا، المتحضرة منها وغير المتحضرة، بعضها ببعض ربطاً وثيقاً لدرجة جعلت مشكل الثورة الإشتراكية يكتسي طابعاً عالمياً بشكل شامل ونهائي. وقد حاولت البيروقراطية السوفياتية تصفية البيان في هذه المسألة الأساسية. وكان الانحطاط البونابارتي للدولة السوفياتية الإبانة القاتلة لأكذوبة نظرية الإشتراكية في بلد واحد.

هكذا نرى أن كتيب المؤلفين الشابين ما زال يزودنا بتوجيهات متعذر استبدالها في مسائل النضال التحرري الأساسية والأكثر إلحاحاً. فأي كتاب آخر يقبل، ولو من بعيد، القياس بالبيان الشيوعي؟ لكن هذا لا يعني بأي وجه أن البيان، بعد تسعين سنة من تطور غير مسبوق لقوى الإنتاج ومن نضالات إجتماعية عظيمة،

غني عن تصحيحات وإضافات. لا قاسم مشترك بين الفكر الثوري وبين عبادة الأوثان. فالبرامج والتنبؤات تُصحح على ضوء التجربة، ذلك المحك الأسمى للفكر البشري. وكما تدل التجربة التاريخية نفسها يتعذر إدخال تصحيحات وإضافات ناجحة دون اعتماد المنهج الذي قام عليه البيان[1].

5 ـ نتائج وتوقعات[2]:

ـ مقدمة:

لقد تكونت مختلف الاتجاهات الإيديولوجية والتنظيمات السياسية داخل الحركة الثورية الروسية بناء على مواقفها من قضية أساسية هي قضية طابع الثورة الروسية. وقد أثارت هذه القضية خلافات حادة في الحركة الإشتراكية الديمقراطية منذ أن فرضت عليها الأحداث طابعاً سياسياً. فمنذ عام 1904 إلى يومنا هذا، اتخذت هذه الخلافات شكل اتجاهين أساسيين: المنشفية والبلشفية. فكانت وجهة النظر المنشفية تقول إن ثورتنا ستكون ثورة برجوازية، أي أن نتيجتها الطبيعية ستكون انتقال الحكم إلى البرجوازية وخلق الظروف الملائمة لقيام البرلمانية البرجوازية. وكانت وجهة النظر البلشفية، بالرغم من إقرارها بحتمية الطابع البرجوازي للثورة القادمة، تعتبر أن مهمة الثورة هي إنشاء جمهورية ديمقراطية بواسطة ديكتاتورية العمال والفلاحين.

---

(1) كتب في 30 تشرين الأول/أكتوبر 1937، صدر في جنوب أفريقيا باللغة الأفريكانية Afrikans كمقدمة للطبعة الأول من «البيان الشيوعي» لتلك اللغة.

(2) ترجمة بشار أبو سمرا، دار الطليعة بيروت ـ الطبعة الأولى. آذار/مارس 1965.

كان تحليل المنشفيك في غاية السطحية، يقتصر في جوهره على مقارنات تاريخية باهتة، ذلك الأسلوب التقليدي الذي يعتمده المثقفون المتحذلقون المحدودون. فلا تطور الرأسمالية الروسية الذي خلق تناقضات حادة عند قطبيه والذي حال دون أن تلعب الديمقراطية البرجوازية دورها، ولا تجربة الأحداث اللاحقة أوقف سعي المنشفيك الدؤوب وراء الديمقراطية الصحيحة والحقيقة التي سوف تقود الأمة وتبني البرلمانية وتوفر، قدر المستطاع، الظروف الديمقراطية للتطور الرأسمالي. وفي كل مكان وكل زمان، جنّدوا أنفسهم لاكتشاف آثار لتطور الديمقراطية البرجوازية، وحيث لم يجدوا هذه الآثار اخترعوها. فأخذوا يضخمون أهمية أية بادرة أو ظاهرة ديمقراطية بينما عملوا في الوقت نفسه على التقليل من أهمية قوى البروليتاريا ومن الاحتمالات المطروحة أمام مسيرتها النضالية. ولأجل تأمين الطابع البرجوازي الشرعي للثورة الروسية الذي زعموا أن قوانين التاريخ تتطلبه أن يكون كذلك، إلى درجة أنهم خلال الثورة ذاتها عندما لم تتوفر ديمقراطية برجوازية لقيادتها، تعهدوا بأن يقوموا هم بواجباتها ببعض النجاح.

إن ديمقراطية البرجوازية الصغيرة الخاوية من أي مضمون إيديولوجي إشتراكي، والمجردة من أي تحضير ماركسي طبقي، ما كان بإمكانها ـ طبعاً ـ أن تتصرف في ظروف الثورة الروسية بشكل يختلف عن تصرف المنشفيك الذين لعبوا دور الحزب «القائد» لثورة شباط/فبراير. إن فقدان قاعدة إجتماعية جدية ترتكز إليها الديمقراطية البرجوازية أرهق المنشفيك، فسرعان ما استنفدوا طاقاتهم فطرحهم الصراع الطبقي جانباً في الشهر الثامن من الثورة.

وعلى العكس من ذلك، لم يكن البلاشفة يؤمنون بالطاقات الثورية الكامنة في الديمقراطية البرجوازية في روسيا ولا بقوتها. فمنذ البدء أقرّوا الأهمية الحاسمة للطبقة العاملة في الثورة القادمة. أما فيما يخص برنامج الثورة ذاتها، فقد اقتصر البلاشفة فيه أول الأمر على ضمان مصالح ملايين الفلاحين الذين لم يكن باستطاعة البروليتاريا أن تقوم بالثورة حتى آخرها ضدهم أو بمعزل عنهم. من هنا جاء اعترافهم الآني بالطابع الديمقراطي البرجوازي للثورة.

فيما يتعلق بتقييم قوى الثورة الداخلية وتوقعاتها، لم ينضم مؤلف هذا الكتاب في ذلك الحين إلى أي من الاتجاهين الأساسيين السائدين داخل الحركة العمالية الروسية. وبالإمكان رسم الخطوط العريضة لموقفه في ذلك الحين على النحو التالي: إن الثورة، التي ستبدأ كثورة برجوازية فيما يخص مهامها الأولى، سوف تولّد صراعات طبقية عنيفة، وهي لن تحرز النصر الأخير إلاّ بعد أن ينتقل الحكم فيها إلى الطبقة الوحيدة القادرة على قيادة الجماهير المضطهدة، وهذه الطبقة هي البروليتاريا. ولمجرد أن تصبح البروليتاريا في الحكم، فإنها لن ترضى بأن تحصر نفسها ضمن البرنامج الديمقراطي فحسب، ولكنها ستجد نفسها مجبرة على تخطيه أيضاً، وسوف تتمكن من تحقيق الثورة حتى النهاية فقط في حال تحول الثورة الروسية إلى ثورة تشمل كل البروليتاريا الأوروبية. إذ ذاك يصبح بمقدور الطبقة العاملة الروسية أن تتخطى البرنامج الديمقراطي البرجوازي للثورة بحدوده الوطنية الضيقة، فتتحول السيطرة السياسية الآنية التي تمارسها إلى ديكتاتورية إشتراكية بعيدة

المدى. وإذا لم تتحرك البروليتاريا في أوروبا، فإن الثورة المضادة البرجوازية لن تطيق وجود حكومة للجماهير الكادحة في روسيا فتسير بالبلد بعيداً جداً عن جمهورية العمال والفلاحين الديمقراطية. لذا، يستحيل على البروليتاريا أن تبقى ضمن حدود الديمقراطية البرجوازية. إنها مجبرة على تبني خطط الثورة الدائمة، أي على تحطيم الحواجز التي تفصل بين برنامج الحد الأدنى وبرنامج الحد الأقصى من مطالب الحركة الإشتراكية الديمقراطية وعلى أن تلجأ إلى إصلاحات إجتماعية أكثر جذرية، وأن تسعى إلى كسب تأييد سريع ومباشر من الثورة في أوروبا الغربية. إن هذا الكتاب، الذي نحن بصدد التقديم له والذي كتب بين عامي 1904 و1906 يعرض هذا الموقف ويحلله.

خلال تمسكه بالموقف الداعي إلى الثورة الدائمة طوال خمسة عشر عاماً كان لا بد للمؤلف من أن يقع في الخطأ عند تقديره للجناحين المتصارعين داخل الحركة الإشتراكية ـ الديمقراطية. وبما أن كلا الجناحين كان ينطلق من الثورة البرجوازية، اعتبر المؤلف أن الخلافات الموجودة بينهما ليست من العمق بحيث تؤدي إلى حدوث الانشقاق. وكان يأمل، في الوقت نفسه، أن يبرهن تطور الأحداث القادم على ضعف الديمقراطية البرجوازية الروسية وعلى عدم أهميتها من جهة، وعلى أنه يستحيل موضوعياً أن تحصر البروليتاريا نفسها ضمن حدود البرنامج الديمقراطي من جهة ثانية. وكان يظن أن هذا البرهان سوف يزيل كل مبرر لقيام خلافات بين الأجنحة.

وبسبب كون المؤلف خارج كلا الجناحين طوال فترة الهجرة، لم يتسنَّ له أن يقدر تمام التقدير أن الخلاف بين البلاشفة والمنشفيك قد أدى إلى تكتيل الثوريين الصلبيين في جهة والعناصر التي تزداد انتهازيتها وضوحاً ويظهر استعدادها للتكيف في جهة أخرى. فعندما اندلعت ثورة 1917، كان الحزب البلشفي قد غدا منظمة مركزية تجمع أفضل العمال المتقدمين والمثقفين الثوريين استطاعت أن تتبنى، بعد فترة من الصراع الداخلي، خططاً علنية تدعو لقيام ديكتاتورية الطبقة العاملة الإشتراكية تنسجم انسجاماً كاملاً مع الوضع الدولي بمجمله ومع العلاقات الطبقية في روسيا. أما الجناح المنشفيكي فكان قد نضج في ذلك الحين النضج الكافي الذي يؤهله أن يتحمل أعباء تحقيق الديمقراطية البرجوازية، كما أشرت سابقاً.

إني، إذ أقدم هذه الطبعة الجديدة من كتابي للجمهور، لا أريد فقط أن أشرح المبادئ التي مكنتني، مع رفاق آخرين ظلوا سنوات عديدة خارج صفوف الحزب البلشفي، من أن نربط مصيرنا بهذا الحزب في بداية عام 1917، إن مبرراً كهذا لا يكفي لإعادة طبع الكتاب، ولكن لكي أستعيد التحليل الإجتماعي - التاريخي للقوى المحركة للثورة الروسية الذي توصلت من خلاله إلى الاستنتاج أن استلام الطبقة العاملة للسلطة السياسية يمكن ويجب أن يكون هدف الثورة الروسية، قبل أن تصبح ديكتاتورية البروليتاريا واقعاً ملموساً بزمن طويل. إن مجرد استطاعتنا أن نعيد طبع هذا الكتاب الذي كتب عام 1906، والذي كانت خطوطه الرئيسية جاهزة منذ عام 1904 دون أن نجري عليه أي تعديل، إن هذا لدليل كاف على أن

النظرية الماركسية ليست إلى جانب البديل الديمقراطي البرجوازي الذي يقدمه المنشفيك وإنما إلى جانب ذلك الحزب الذي حقق ديكتاتورية الطبقة العاملة تحقيقاً فعلياً.

إن الامتحان الأخير للنظرية هو التجربة. لذا كان الدليل القاطع على كوننا طبقنا النظرية الماركسية بشكل سليم هو أننا تنبأنا بالخطوط العريضة للأحداث التي نشارك فيها الآن وحتى بأشكال هذه المشاركة منذ ما يقارب الخمسة عشر عاماً.

كملحق لهذا الكتاب، سنعيد طبع مقال نشر في مجلة «ناشي سلا فو» في 17 تشرين الأول/أكتوبر 1915 في باريس بعنوان «النضال من أجل استلام الحكم». إن لهذا المقال هدفاً سجالياً، فهو نقد لرسالة على شكل برنامج وجهها القادة المنشفيك إلى الرفاق في روسيا. ونخلص في هذا المقال إلى أن تطور العلاقات الطبقية خلال السنوات العشر بعد ثورة 1905 قد حطم أمل المنشفيك في إمكان قيام ديمقراطية برجوازية، وأنه من البديهي أن يرتبط مصير الثورة الروسية أكثر من ذي قبل بقضية ديكتاتورية البروليتاريا ففي وجه الصراع الفكري الذي دار خلال السنوات العديدة السابقة، كان كل من تكلم عن طابع المغامرة في ثورة أكتوبر هو متحجر الرأس فارغه!

وفي معرض حديثنا عن موقف المنشفيك من الثورة، لا بد من الإشارة إلى تقهقر كاوتسكي إلى موقع المنشفيك. إن كاوتسكي هذا يجد الآن في نظريات مارتوف ودان وتسيريتللي خير تعبير عن تعفنه النظري والسياسي.

سمعنا من كاوتسكي بعد ثورة أكتوبر 1917 ما معناه: بما أن استيلاء الطبقة العاملة على الحكم يجب أن يكون مهمة تاريخية ينفذها الحزب الإشتراكي ـ الديمقراطي، وبما أن الحزب «الشيوعي الروسي» لم يدخل إلى الحكم من الباب الخاص الذي عينه له كاوتسكي وفي الوقت الذي حدده هو له، إذن يجب تسليم الجمهورية السوفياتية إلى كرنسكي وتسيرتللي وتشيرنوف ليجروا عليها التعديلات اللازمة. لابد من أن يكون نقد كاوتسكي الرجعي المتحذلق قد فاجأ هؤلاء الرفاق الذين واكبوا فترة الثورة الروسية الأولى بأعين مفتوحة وقرأوا مقالات كاوتسكي خلال العامين 1905 و1906. ففي ذلك الوقت، تمكن كاوتسكي ـ بتأثير من روزا لوكسمبورغ ـ من أن يفهم الثورة الروسية فهماً عميقاً وأن يعترف بأنه لا يمكنها أن تنتهي إلى جمهورية ديمقراطية ـ برجوازية بل إنها ستؤدي حتماً إلى دكتاتورية البروليتاريا نتيجة للمستوى الذي بلغه الصراع الطبقي بمجمله في البلد نفسه، ونتيجة لوضع الرأسمالية العالمي. وكان كاوتسكي في ذلك الحين يتكلم بصراحة عن حكومة عمالية يكون الإشتراكيون ـ الديمقراطيون أغلبية فيها. ولم يخطر بباله قط أن يسخّر المسيرة الطبيعية للصراع الطبقي لتقلبات تركيبات سطحية في الديمقراطية السياسية.

في ذلك الحين، فهم كاوتسكي أن الثورة ستبدأ بتحريك ملايين الفلاحين والعناصر البرجوازية الصغيرة في المدن، ليس دفعة واحدة وإنما بالتدرج، فئة بعد فئة؛ فعندما يبلغ الصراع بين البروليتاريا والبرجوازية الرأسمالية ذروته تكون الجماهير الفلاحية مازالت على مستوى بدائي جداً من التطور السياسي فتمنح أصواتها للأحزاب

السياسية الوسطية التي لا تعكس سوى تأخر طبقة الفلاحين وعقدها. وقد فهم كاوتسكي أيضا أن البروليتاريا، التي يدفعها منطق الثورة ذاتها إلى استلام الحكم، لن تستطيع أن تؤجل هذا العمل إلى ما لا نهاية بشكل فردي لأنها تكون بتضحيتها بنفسها قد أخلت الطريق أمام الثورة ـ المضادة. وإنه في حال استلام البروليتاريا الحكم، ليس عليها أن تعلق مصير الثورة على الأمزجة المتقلبة لأقل الجماهير وعياً ويقظة في اية لحظة من اللحظات، بل على العكس عليها أن تحول السلطة السياسية الموضوعة بين أيديها إلى جهاز ضخم لتوعية هذه الجماهير الفلاحية الجاهلة المتخلفة وتنظيمها. وفهم كاوتسكي أن تسمية الثورة الروسية ثورة برجوازية، وبالتالي حصر مهامها ضمن هذه الحدود، هو جهل مطبق بما يجري في العالم. وقد اعترف عن حق، مع الماركسيين الثوريين في روسيا وبولونيا بأنه في حال استيلاء البروليتاريا الروسية على الحكم قبل أن تستولي عليها البروليتاريا الأوروبية، يتوجب عليها أن تستغل وضعها كطبقة حاكمة ليس لتسليم مواقعها بسرعة للبرجوازية ولكن لكي تقدم مساعدة قوية لثورة البروليتاريا في أوروبا والعالم بأسره. إن هذه التوقعات الأممية المليئة بروح العقيدة الماركسية لم نصل إليها ولا وصل إليها كاوتسكي بناء على التفكير بكيف سينتخب الفلاحون ولمن سيدلون بأصواتهم في انتخابات ما يسمى بالجمعية التأسيسية في تشرين الأول/ أكتوبر وكانون الأول/ ديسمبر عام 1917.

الآن، وبعد أن تحولت التوقعات التي تبلورت منذ خمسة عشر عاماً إلى واقع ملموس، يرفض كاوتسكي أن يمنح الثورة الروسية شهادة ولادة لأنه لم يجر تسجيل ولادتها في حينه في سجلات

المكتب السياسي للديمقراطية البرجوازية. يا له من حدث مدهش! يا لانحطاط الماركسية! بإمكاننا أن نقول عن حق أن تعفن «الأممية الثانية» قد عبّر عن نفسه في هذا الحكم الداعي على الثورة الروسية من قبل أكبر مفكري هذه الأممية بشكل أكثر بشاعة مما عبّر عنه التصويت إلى جانب مصاريف الحرب في 4 آب/ أغسطس عام 1914.

لقد وضح كاوتسكي مبادئ الثورة الإجتماعية ودافع عنها خلال عقود من الزمن. أما الآن وقد أصبحت هذه المبادئ واقعاً، يفرّ كاوتسكي من أمامها بذعر. إنه يخشى سلطة السوفيات الروسية. إنه يتخذ موقفاً معادياً من الحركة الجبارة التي ولدتها البروليتاريا الشيوعية في ألمانيا. فكأني بكاوتسكي ذلك المدرس البائس الذي ظل خلال سنوات عديدة يصف الربيع لتلامذته ضمن جدران غرفة الدرس المظلمة. وأخيراً وبعد أن انتهت سني خدمته، يخرج إلى الهواء النقي فإذا به لا يتعرف إلى الربيع، فيتملكه الغضب - إلى مدى ما يمكن للغضب أن يتملك مدرساً - فيحاول أن يثبت أن الربيع ليس هو الربيع وإنما هو فوضى كبيرة في الطبيعة لأنه أتى بشكل مغاير لقوانين التاريخ الطبيعي. ولكن من حسن الحظ أن العمال لا يثقون ولا حتى بأكبر واحد من هؤلاء الأساتذة المتحذلقين، إنهم يثقون بصوت الربيع.

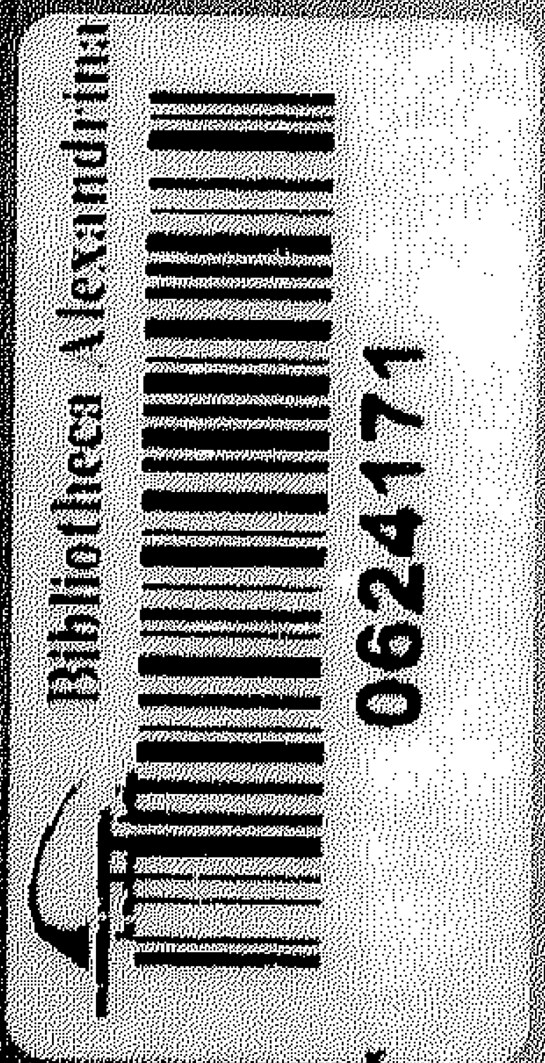
نحن تلامذة ماركس، الواقفين إلى جانب العمال الألمان، نتمسك بقناعاتنا أن ربيع الثورة قد أطلّ بشكل ينسجم مع قوانين الطبيعة الإجتماعية ومع قوانين النظرية الماركسية في آن واحد؛ لأن

الماركسية ليست عصا مدرس تشير إلى ما وراء التاريخ، وإنما هي تحليل إجتماعي للأساليب التي تنتهجها العملية التاريخية في مسيرتها الحقيقية.

لقد تركت كلا الكتابين، كتاب عام 1906 وكتاب عام 1915، دون أن أجري عليهما أي تعديل. فقد أردت في الأصل أن أزود النص بملاحظات ترقى به إلى مستوى الأحداث، بيد أني أقلعت عن هذه الفكرة بعد مراجعتي له. فلو أني أردت الدخول في التفاصيل، لكان علي أن أضاعف حجم الكتاب وهذا ما ليس لدي الوقت لأحققه، بالإضافة إلى كون كتاب «ذي طبقتين» قليل الفائدة بالنسبة للقارئ. وأهم من ذلك أني أعتبر أن الخط الفكري في فروعه الأساسية يقترب إلى حد كبير من ظروف زمننا هذا. لذا، فإن القارئ الذي يبذل جهد التعرف الوثيق على هذا الكتاب، سوف يتسنى له بسهولة فائقة أن يضيف إلى ما يحتويه الإحصاءات والوقائع الضرورية المستنبطة من تجربة ثورتنا الحالية[1].

(1) ليون تروتسكي، الكرملين 12 آذار/ مارس 1919.

الفهرس



مركز الشرق الأوسط الثقافي